شوقي كريم

شروگية

رواية

NOVEL

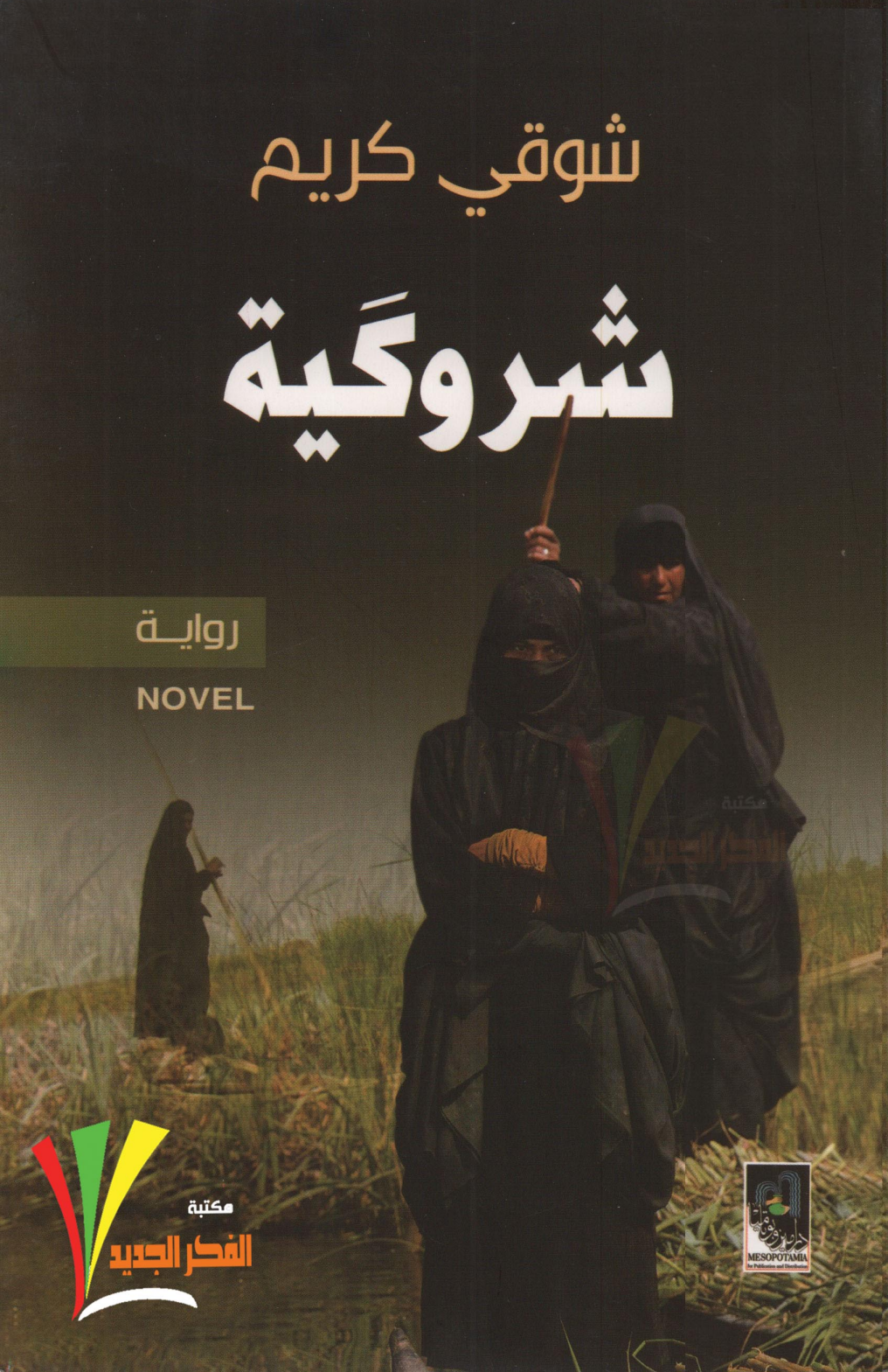

مكتبة الفكر الجديد

MESOPOTAMIA
for Publication and Distribution

شروكية

مكتبة
الفكر الجديد

الكتاب: شروكية

المؤلف: شوقي كريم

الطبعة الثانية

2014م

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق ببغداد 1492 لسنة 2014

عدد النسخ: 1000

عدد الصفحات: 256 / القياس: 14.5 × 21.5

محفوظة جميع الحقوق

الناشر

دار ميزوبوتاميا

للطباعة والنشر والتوزيع

بغداد – شارع المتنبي

موبايل: 07905139941

mazin24@ymail.com

الإشراف العام: مازن لطيف

hamawendi@yahoo.com

مكتبة الفكر الجديد

شروكية

شوقي كريم

مكتبة
الفكر الجديد

الإهداء

إلى والدتي فطيم اوحيلي ..

معلمتي الأولى

ومدونة حكايات الأهل !!

مكتبة
الفكر الجديد

-1-

كان يا ما كان .....

هكذا تبدأ الدورة الخامسة من نشيد الأكاذيب، يعزف الأول إيقاعاً، فتهتزّ الحناجر بالشفاء، وتفور العيون زاحفة خلف ضجيج الغرف التي غسلتها روائح الأنفاس، وضغط الخواتم، وشواء الليالي التي ما أحسّت بغير وحدتها، كانت القصّة تبدأ بالسؤال:

- ما الذي صيّر السندباد غراباً؟!!.

- ما لي أصيّر الأوطان محض هراء؟!!.

ما الذي يمكن أن تفعله ببغاء علاء الدين في نفس حطّمتها الغرف الحمر، والتأوّه، وتوسّلات الجوع والإهانات التي ما كان لفعلتها انتهاء؟!!.

- ما الذي يمكن لإنسانك أن يأنسه، فيصير إنساناً من صدق؟!!.

كانت اللذّة تمخر صباحات التحقيق، وتحيل كل العذابات إلى وجع وسؤال لعمق مخاوفنا، ننصت لخطوة المفاتيح وصرير المزالج ورعاف التوسّلات، عذب أن تحسّ نفسك رقماً، أن تلعب والأيام لعبة أرقام منسيّة، عذب أن تُهان مباهجك، بصمت رضاك!!.

مكتبة الفكر الجديد

مَـن يفـتح أبـواب الجولـة، مَـن يغلـق مسـافات الظلمـة والانقيـاد معصوب العينين، مَن يمنح الجسد الفائر كالتّنّور بعض رضاه؟!!.

كان معلّمنا يتحدث عن بحر وجنود وسفن، تأكلها نيران اللّه، كان معلّمنا مهووساً بالتاريخ السّرّيّ، لأول أعمال الطين، يحدّثنا عن عمّال الجصّ والفعلة، وعن توابيت القبب الذهبية التي ما انقطعت يوماً، قفْ عند أول مصبّ، يؤدي إلى حيث تحول الأرض إلى فضاء، نأتيء من المقابر، قفْ، لترى أيّ المسافات تلك التي لا تشغلها خطوات الموت، يعدو لاهثاً، وثم حوقلات وطواف وهرولة، لا تستقرّ عند أيّ لحظة، من لحظات الزمن، لم تكن عقولنا المسكينة تعي لهذه الكلمات معنى، " موت"، أو ثمة انتقال إلى لعبة ثانية، جزع آخر، وأمهات أكثر حزناً، وأكثر اصطباغاً بالسواد، سمعتُ جدي يقول عنها: إن لها لون الفيروز!! ما الذي جعل جدي يتوهّم مثل هذا الشكل .. أو تراه رحل إلى هناك، بطلب عمره الساكن؟!!، كان يجلس قبالة الفراغ لساعات عدة، دون أن ينبر بشيء، يظل مأخوذاً بلهو لسانه الباحث عن أطمار الماضي، لكم حاولت أن أفكّ مغاليق صمته لكنه كان ينظرني بفتور رهيب، ويقفل عينيه بتحدّ، علّه كان لا يريد رؤيتي، كانت له ملامح أولاد الأرض ورعونتهم.

أظل أجوس طرقات صمته، ناقلاً له عن عمد كل ما يمكن أن يثيره، لكن نفسه تتيبّس، وعمره يصير مثل شجرة صفصاف يابسة، يداعب شعر رؤوسنا، يقول:

- الطين صديق الفقراء.. وودّ رضاهم!!.

أرى أمي تتحزّم ضوء التنور، وسعف النخل يُدفئ ظهيرتها الساخنة، تحدّق في عمق التنور، عن ماذا تبحث وسط النيران؟! .. عن فقر أكثر من حال مدينتنا!!

مكتبة الفكر الجديد

عن مدن كان التنور يشوي غناها وأغانيها، تبتسم الأم، بحبور. كان معلّمنا يصمت لحظة، يشم رائحة الخبز، ويرنو إلى ضفاف الأحلام، فتصمت مآقينا . يقول:

كان، يا ما كان !!

فأسمع صوت الملاية، يردّد محمّلاً بكل أحزان الدنيا ((عباس، يا تاج الفخر)) ما معنى أن تردّد العروس الحلوة نداء التوسل ؟! ما معنى أن تبكي أمي وتلطم خد أنوثتها الفائح مثل التفاح ؟! ما معنى أن تتهدّل صدور الرضع؟!! يظل معلمنا مأخوذا بالحيرة، ونحار أمام رائحة الخبز، تصبغ مدينتنا طينها بالسواد، وتلبس أمي تاج عزلتها، وتنوح على أمل الموت.

يتقرفص أبي صامتاً، ويدخّن تبغ الرشيد ممزوجاً بشاي العباس، ويلعن أيام القاتل الذي أورثنا الحزن والخمول، كان يلعب بالسؤال، فيصمت الصمت، وتنسحب عاصفة الرجاء، يلطمه الظلّ على وجهه، ويسمعه كلمات من جوف القاتل.

- ابن الـ ...!!.

((تهدأ عاصفة الحزن، ويسكن موّال المحنة)).

- ما الفرق بين السارق والمسروق؟!!

- ما الفرق بين العرش المبني على أعناق الود .. وعرش اللاشيء؟!!.

- ما الفرق؟ ....

- ابن الـ ...!! ((ابن التي جلّلها سواد التواريخ، وأزاح عن قلبها ستار الفرح ... ابن التي ما أحسّت بطعم الارتياح؛ لأنها منحت عمرها للولد الذي يأكله الوطن)).

مكتبة الفكر الجديد

-2-

يأخذك الشارع إلى قلب المحنة، عند يسار اللحظة في بؤبؤ العين، تشوف المنارة الزرقاء المضلعة بالصفيح، مثل كفّ حمامة مملوص، ترفع خلالها الموج الراكض خلف الصوت الناعم كالدخان، تأخذك الفكرة عبثاً إلى لبّ الأسواق، وأشكال عبوديتها، كان الفجر ينطر بنداءات التكبير، فتمتلئ (الجواميل) وغرف الطابوق التي لها طعم الأسنان المنخورة بترتيل الحمد، وقت يجيء الأذان، تستيقظ الأمّهات؛ ليعجن خدرهن، ويعلن عبودية الآمال، ثمة يوم، لا بد أن يسود الأرواح، يوم له طعم الشاي المر، لكنه يجيء، على أي حال، ولا بد من استقباله، تحطّ "الصينية" وسط الحوش، ويلتمّ الزغب بريشهم الغارق بنعاس الفتور، تنفرك الأكفّ، وتحاول العيون كمش ضعف الضياء، يجلس الأب المحفوف بالصلوات، وثم عيون، ترنو إليه، كان يجلّل حضوره بآي الخالق، فيتساقط فوق الرؤوس ذهب الإدهاش، لم يكن الله سوى سماوات زرقاء، كنا ساعة نلتم فوق السطح، تصير مشاوفنا طائرات من ورق شفّاف، ومثل دودة قزّ، نحطّ عند حوافّ النجوم، نتلمّس الضوء الباهر الذي يشبه مسحوق الفضّة، ونتمنّى لو احتضنت أكفّنا مئات النجوم، كان أبي، يجلف صدأ لياليه، فتظهر لامعة، تشعّ بين أصابعه ((العشر فلوس)) مبتسماً، يوصي أمي بصوت آمر، أن تحرص على إشباعي، فالدرس يريد طعاماً، لا أدري كيف عرف الوالد سرّ المعارف، ولا أعرف ما الذي يربط الشاي ورغيف الخبز بصور القراءة وصحن

مكتبة الفكر الجديد

الفواكه؟ تنظرني الوجوه بحسد، وتطرق متوسّلة كفّ الأب التي كانت تطعم أحلامنا رنين النقود، فجأة تبتسم الأم، ويرمي الأب ((الخمس فلوس)) في الأحضان التي تضجّ بلغط ذئاب ماكرة، يصرّ الباب بصمت الخطوات، فنطالع رائحة عمي الذي له شكل عمود الخيمة العتيقة، يهمّهم بحزن، ويجلس متناولاً استكان الشاي، كان يحدّق بسحر الفراغ، ويهمس لأبي بأشياء، تجعله يهيم في براري من الغضب والحزن والتّمنّي، كان الهمس يغضبني، لكني ما ألبث أن أتمالك نفسي، وأنهض جاراً خلفي أكوام المجانين.

تصير المدينة مرجلاً، والخطوات رعافاً، والطراق جنوناً، يؤدي إلى الاصطفاف والنشيد وحكايات الموت، كانت خطواتنا تربك الفقر، أبصر صبح أبي وماكنة الخياطة التي تلاعبها أمي مثل بنت طيبة، كانت الألوان تحيط بالوجه المحزون، فتضجّ بضحكات الاختيار، ثمة كثير من العجائز، والنسوة والصبايا، خليط من الحكايات، لا يمكن أن تتوقف، أمي تصغي، الماكنة تدور، القماش يغني، الأجساد الفتية الحلوة، تنتظر، ومن ثم؛ تعليقات، تقطع صباحات الأنوثة، اختيارات ماكرة لأحبّة، لابد وأن يكونوا يوماً أزواجاً، ورفض تجلّله ثياب الخجل، وارتياح مطمور وسط سيول من الأحلام، تظل أمي مأخوذة بأسئلة الحيرة/كنتُ أعرف أن ثمة ما يربطها إلى .. لصف القبب المذهّبة والروائح التي لا يمكن معرفة مصدرها، مزيج مختلف من السنديان والحرمل والعنبر، والأنفاس، وعرق الأجساد وهيبة الأمكنة/تأخذني مسحولاً، وتدفعني إلى حضن الضريح البهي وبحزن، ألمّ قبضة كفّي، وأتحسّس كراة الشباك الباردة، ورغم كل هذه الاضطرابات تظلّ كراة الأضرحة باردة، تنسرّب برودتها إلى شغاف الأفئدة الباحثة عن لحظة أمان، أحسّ بهدوئي، يغسل عيني، فتفيضان دمعاً، وتتشبّثان برجاء الوجوه التي لا

مكتبة الفكر الجديد

يمكن تحديد ملامحها، كانت أمي تبصر طفولتي، تهرول لائذة بحذاء السيد جليل، يُمسّد رأسي، فترجواه بكل قلق الأمهات أن يحفظ قلبها من التراجع، وأن يملأ الرأس الدائخ بالنظر إلى علو بعض السكون، كان معلّمنا يتحدث بصوت عذب، لحظة يحطّ حلقه عند هاتيك القبب التي لها ألق الرب، يملأ جوانحه بالفخر، ويقول حاسماً - إنه أمام أجل الأعمار مجداً.!!

وفجأة؛ يغور السؤال عميقاً في دهاليز الفؤاد، فأصرخ .-

ما الذي لم يكنه هذا السيد؟!!.

تحبس أمي أنفاسها، وتضطرب شفتا جدتي، وأشعر أن ثمة مَن يأخذني إلى علو، فجأة، أتلمّس حوافّ النجوم، وأجسّ نبض الأقمار، هكذا يعتقد الكهنة .. / إن الخطوات التي لا تلائم خطوهم ملعونة، ويجب أن نخشاها / .

تزرفه الكآبة، تزرف فتحة رأسه، فينسكب عذابه، ثمة أنثى بعيدة، يحاول الإمساك ببعض أنوثتها، وثمة ولد شقي، يركض عبر ممرات، لكنه لم يصل إليها، يظلان معاً يدوران في حضور غيابهما، كان الولد الطافح بورد الطفولة يريد الإمساك بشذى الأبوة التي محتها الجدران، يغمض عينيه، وببطء، يحاول لملمة الأبوّة الضائعة، فتثير شفتاه بسؤال اللوعة .

- أمي؛ لم لا يجيء؟!!

يجيء الترقّب، وتئزّ الأبواب، وبين الترقّب والأزير أرواح تفور، وعيون تبصر القادمات بخطواتهن الأثقل من كل جبال الأرض .. وبود، تسعى أكداس من الأطعمة والعلاليق .. زمن لا يدري كيف يسير، ما دام

مكتبة الفكر الجديد

مألوف أنوثته قد صار بحجم هذا الإصرار على المواصلة .. لم تفه الأفواه حتى تستقرّ الألسن بين الأفئدة، عندها يسرك أن تبتسم إلى أجل أرواح العجب .. تتحول الباحة إلى تراتيل من صياحات وتوكيد رباني، يجعلك تخرس لهذا الانهيار الجميل .. عالم من الأفئدة تسوره عوالم من الأمنيات والسعادات المؤجّلة.-

كل الآباء يعودون، فلم لا يعود هو؟!..

تزفر الأم وحش وحدتها، وتأخذه إلى حضنها المائع بالرجاء، تمسّد الشعفة اللينة، وتلاعب أصابع الكفّ التي تشبه الحامض حلو، يبتسم الولد، وتهدأ قدور نفسه الفائرة، كان السؤال يضغط... ويضغط .. فيحسب على أصابع الحامض حلو - كم بقي من الأسبوع؛ ليصل إلى الرقم الثاني؟!!.

كانت الأبوّة العارفة بسرّ الجواب ترقّب لهاث أوردتها، وكانت الأيام تتحيّر إزاء ما يحدث.. فليس ثمّة غير جواب واحد، يختصر كلّ آثام الدروب .. إن في القلب وطن آخر، له فضل الكلمات، ولابد بعد أن تلده العقول التي تحمل كلّ هذا الاضطراب يوماً!!.

يتكوّر العالم بين الأكفّ، وتطرق الرؤوس باحثة مثل دجاج عن أزمان الاندثار، كانت الجدران التي أصبحت تقف عند حافّة الزرقة، تبتسم كلّ التبدّلات والآثام، لم تكن سوى لعبة .. سوى زمن يخرّ، ببطء من بين الأصابع دون أن يقدر أحد منا على لمس بقاياه .. ما دامت الجدران تحاصر الوجود..

مكتبة الفكر الجديد

-3-

مَن يظلّ ينتظر الطرقات، وهي تأخذ منه خوف طفولته؟!!.

كانت تمدّ أصابعها، ورويداً تضمّ أحلامنا التي ألفها الفقر، وتجعل من خطواتنا فكرة آثمة، ترمينا بيوت الإكثار التي تشبه جحور الفئران إلى طين الشوارع الكارهة لوجودنا، فنشعر ضياعنا، وتمتلئ بطوننا التي لها شكل أرض يباب بالزعل، والقلق، نراقب أبواب البيوت الساكنة وهامات أشجار الحدائق وخفايا القصور، فتنطلق الحناجر بغرائب الاشتهاء / كانت جدتي تملأ رأسي بأضويتها، ما إن يحلّ المساء، ويصيح الليل موقظاً أوادمها ودسائس مخلوقاتها وزعل أعمارهم، الذي لا يمكن أن ينفثئ بغير تدخّل هادم الملذّات ومفرّق الجماعات/ كنت أريد معرفة كنه هذا الهادم الطيب الذي يكره أصحاب القصور، فيدمّر حيواتهم، ويحيل أفراحهم دخاناً ورماداً.!!.

أتوسّل ليجيء إلى بيوت الطين وأضلاع الطابوق الناتئة مثل أسنان مكسورة..

- لم يتركنا نعاني خوف أحزاننا، ولا يمنح أرواحنا غير الخبز والشاي والطماطة نص العطنة؟!!

((.. آه؛ لو كان الولد المملوء بالحزن يعرف ما الذي يقلق أزمنته ... آه؛ لو منحته الكلمات وهج احتراقها، لصار عارفاً، ولاستطاع مثل جني السندباد، نقل دنياه إلى دنيا ثانية، لأخذ الأفراح والودّ وهجر اللطم

مكتبة الفكر الجديد

والسواد، لكان خلق نساء من نور، وضحكات من ورد .. وحياة من ديمومة..)).

تمطر عيوني ماء من حزن، فتعصر أمي جسدي بين يديها، وتمدّ عيناها وجعاً.

- ما الذي يمكن أن تفعله الأمّهات والنفوس تنضغط تحت أطنان من المجهول؟!!.

يدور الزمن لاعباً بهدوئنا، وتغدو فصول المدارس محاجر، لكم تقلقني هذه الكلمة القاتمة الحادة مثل نقش، كانت الغرف الحمر لها طعم الفراقات، وصمت الأنين الذي يعبر جدران الكونكريت ماسحاً أرواح الترقّب بلغة الاحتيال والتحدي، تشعرك بالوحدة؛ لأنك مجرد لا شي، كائن مجذوم تحاول الإنسانية قطع جذورك، كيما تصاب بعطف أفكارك وخروقات عقلك التي ما تلبث أن تشعل النيران في مدارج الأفعال النبيلة، فجأة تحسك ابننا عاقاً للأزل، ابننا يلهث وراء أوهام العناء الذي لا يريد مركزاً لشيء، تظل الجدران تملأ عينيك بخطابات بيض، أذان تخربش الاحمرار، وأدعية تترحّم الأرواح التي تفسلها عطور الأفكار، كان اليوم يرنو إلينا مهموماً، لحظة تخطو صوب هذه النيران التي تعبّىء النفوس بالكراهيات، تموت في أعماقك مشاعر الإنسان الذي كنته قبل لحظة، تطالبك المساحة الضيقة بالانهيار، تموت في لبّ قلبك الوجوه التي كانت تمور بالسعادات، وتنبت مخاوف السؤال، تنفتح العيون المغموسة بالنعاس على صوت الأب الذي يسبح في أنوار كلمات اللّه، كان صوته يوقظ الصباحات، فتغبش بنداءات الحمّالين وعمّال البلدية، وتعود بخطوات الحرّاس الباحثين عن شعلة دف، يأز حطب التنور، وتحيط ذوائب السنا، بكاء أختي المحرومة، جوعنا يطوي أكفنا

مكتبة الفكر الجديد

إلى البطون، وتجعل الألسن تهمس بالرجاءات التي تتعجّل التنور بالاشتعال، والخبز بالنضوج، وزوجة الأب بإعداد صينية الفطور. ينتظرني أبي، وثمة لوعة، تملأ عينيه، كان وجهه يسحق الكلام، فتتراجع الحنجرة، وتظل تخشخش، يمطق استكان الشاي متحسّساً حلاوته، ويؤرث سيجارة اللفّ، فتعط الريحة التي تزيد الصباح حنية، وتجلي العيون غيبوبة نعاسها، تلمّست جسدي، فشعرت أن ثمة شيئاً ما يسري بين جوانحي جعلني أفوج وسط تيارات من الأوهام، قال الأب :-

أنت بعدي ؟

وصمت!!

تتعلّق الشفاه بشفاه أبي، أو العيون بعيونه --

لا بد أن تعينني على حال الدنيا .. أصبحت رجلاً، ومحال أن يظل الرجل دونما طعم، يمسح جسده بالرضا، شهقت أمي، وأطرقت زوجة أبي، وتبسم الزغب، كان حلمي يتبدّد، يتلاشى، وتغدو القصور التي بنتها قحفة الرأس صرائف وأكوام طين ملفوفة بالحزن، لم أفه بشيء، كان خجلي ينسكب مثل ماء حار فوق رأسي، ظللت صامتاً، ظل عمري صامتاً، نهض أبي بخطوات قلقة، وغدت المدرسة والفصول آثار غربية، فجأة؛ صار صبحي هياكل وأجداث، أخذتني الرجولة إلى أعراف ومقامات وحدود، لا أصدق وجودها قبل أن ألج تلك الأبواب .

مكتبة الفكر الجديد

- 4 -

كان فجري قد غدا قنبلة ولهاثاً وضجيجاً!!

أسرج عربتي ((اشتراها لي أبي بعد أن باع آخر ما تركه جدي .. عباءة ودلال نحاس وساعة قديمة يقال إن السلطان عبد الحميد قد أهداها له .. كنت أبصر عمي، وهو يتفاخر بحملها، والنظر إليها طويلاً، كانت موشومة بشعار العصملية، ومزينة بألوان، تجعل الأبصار تشهق استحساناً ... حاولت السؤال..- ما الذي جعل جدي يتصل بعبد الحميد هذا؟

قالت الجدة، وهي تلاعب خرسها القلق باستمرار:

- كان هذا من زمن بعيد ... كنت يومها فتاة تشبه صينية البقلاوة... طيبة لا ترى غير وجوده ... كنت أتلصلص عليه .. أغمره بخداعي.. لكنه كان يخاف والده، ويخاف والدي، ويخاف البوح بسر قلبه الدفين!!.

تقول جدتي، وهي تلمّ أطراف ثوبها إلى قدميها، وتبصر قلب نار الكانون:

- صباحاً .. لم يكن مثل باقي الصباحات .. اختفى الشقي الذي هفا إليه القلب.. وانطفأت نيران العمر .. وظل السواد يرافق خطوات أهلنا .. لم يقع عليه أحد بخبر .. ما إن أفتح عيني، حتى أراه يقف

مكتبة الفكر الجديد

أمامي .. ثوب أبيض، ووجه، له استدارة الشمس وابتسامة سيد جليل، أفرك عيني، أتوسل.. أتوسل أعمارنا المرهونة بتلك التوسلات، تصمت جدتي، ويصمت القلب، وتظل خطوات جدي الذي لم أره تجوس في ربوع ذاكرة السيدة العجوز التي عادت شابة، لها طعم الزيتون .. أحاول استفزازها، أحاول الولوج في قلب مخاوفها، لكنها تغلق الأبواب، وتظل ترنو، وبعد أن تحس تعباً تقول:

- وفجأة عاد ... عاد، وهو بغير الحال، يحمل ساعة، ويقرأ القرآن بصوت عذب، ويتحدث عن أشياء ما كنا نعرفها من قبل ... حروب وسلاطين وخفايا عن حلم، لا بد أن يتحقق يوماً ... كان يجلس الرجال إليه، ويحدثهم عن مدن بعيدة، ورجال يريدون أن يؤسّسوا لأحلامهم طريقاً غير الطريق الذي يسلكه السلطان!!

تظلّ الأفواه فاغرة إليه .. ويظلّ يتحدث .. عن أشياء أبداً، لا تتحقق!!

تصمت جدتي، يمسح عمي وجه الساعة، ويدسّها في جيبه ... الساعة التي صارت - بعد كل هذا الاحترام والتقدير - عربة نفط، كلّ شيء أحسّه يموت، وأنا أجرّ عربة النفط الصغيرة، كان صمتي يتأمّل ضيق الشوارع، وهدوءها وأحاسيس النداءات الناعمة مثل طحين الصفر، أضرب على حافّة الحديد البارد، فيرنّ الصياح مخترقاً فضاءات البيوت، وجبروت أغانيها، تأخذني الشوارع إلى الأزقة، والأزقة إلى الشوارع، يدور عمري بين الآثام، ولحظة ترى عيني الأولاد، وهم يحملون حقائب الجلد، ويهشّون بألسنتهم أفراح فتوتهم الآيلة إلى الرحيل أنفر بسنواتي، وأتّكئ بأحلامي إلى جدران الضجر والبكاء، تطويني فراغات الشوارع طي بقج العوانس ألوان من الأفكار وسحنات بين هموم

مكتبة الفكر الجديد

الاستباحة، كانت النداءات تفجّر روحي بتوسلات غاضبة، ثمة أصوات برقة الريح، وأصوات بعصف مطارق الجسور، ترنو رقبتي إلى الصوت محددة معالم انهماره. . ابو الن. .. فت!! تضيع الطاء في بحور الطبقية، وتصير أمام عيني طيراً وطابوق وأطر من السوادات، يتلفّت قلبي، فيجدها مشنوقة عند بوابة الجوع، كان جدي يتحدث بصوت جدتي.. التي تتحدث بصوته.. عن سنوات الجرح، عن سنوات التموين وقماش الجويان.. عن السرقات الخفية التي تسدّ رمق المواصلة.. كانت تقول أشياء تحرق أعمارنا في لهيب نيران من المخاوف.

يتوقف الحصان الذي بداخلي، وينصت، تتلاشى الجدة، ويظل الجدّ يحدّق في استدارة الوقت، ويظلّ الوقت يضرب مساحة الرحيل. ينصت الحصان محاولاً اختيار المسافة التي تفصله والعالم الذي سيتم اختراقه بعد هنيهة، ورويداً، يترك الحصان حدود مملكته، ويملأ الصفيحة بالنفط، يضغط على الباب، فينفرج عن أنثى بلون ورق الأقحوان، ويطرق الولد الذي في أعماقي حياء، وتشرئبّ رقبة الحصان مكتشفة الدرب باتجاه الممر المفضي إلى المطبخ، تشعر والعالم يتلطلط بين فخذيك، إن ثمة هدوءاً يتسربل المكان، هدوءاً يفضي إلى أثاث غريب التكوين، ثمة أسد يحتضن كلباً بألوان مزركشة، يسحرني غضبي، فأظل ممطوطاً صوب بهرجتها، تبتسم البنت، أتأمل هطول مطر الأجساد، فأذوب في فيض ضجيجها، وأرتمي عند قدمي القلق الذي يظل يلاحقني طوال يومي العاصف، أجر العربة بفتور حمار، ويغدو الحصان الذي داخلي مجرد فوضى من كلمات وغضب ونسيان، تطرق جمجمتي شوارع الوهم، يحتضن السندباد عمري الذي تركته منذ أيام عند قدمي جدتي الغارقتين بطين الارتخاء وانتظار فراغات المجهول، كانت رغم كل غرورها الباعث على الفرح، ورغم بقايا أنوثتها البضّة

مكتبة الفكر الجديد

الفائحة بروائح المسك، تشعر أن ثمة ما يهدم الذات ما يحيلها إلى خطايا وآثام وجبروت، تقول ((ما أجمل تلك الطفولات المملوءة بالحكايات والشاي الحار، وألم الفراقات التي تلفّها العيون بأغطية الحنين))، تلفظ الشوارع وجعي، فأجلس عند حدود ألفي شاعر بضياع أحلامي بين طيات الصمت الذي أعيش، فجأة؛ تنفرج شفتي الباب الخارجي، وتنسكب صورة امرأة موشومة بورد حذاء الست، ابتسمت المرأة بجبروت، وما لبثت أن عادت تاركة الباب يهيم في براري الكشف، كان الارتباك يحاوط وجودي محيلاً خجلي إلى مقبرة، بتحدّ؛ رفستُ القاع، فانبجست جنوناتي، وهممتُ بالنهوض، لكن الجسد الفائح بعطور الأخذ، استقام واقفاً أمامي مطوياً بجذل الاسترحام دون أن يحسّ بشيء، أخذت بيدي، وأحاطت حافّة الباب بعذابي، انداحت روحي مسرعة عبر الممرّ المفضي إلى المطبخ، ثمة حديقة وكراسي موزّعة دونما انتظام وآثار لقناني، لها أشكال أجساد مذبوحة، كان معلّمنا يحدّثنا عن أماكن قصية، تشبه أرض الواق واق، لا يمكن الرجوع عن تحدّيات إنسانها، خطو غائب في لجج المحنة ما يلبث أن ينمحي وسط اضطرابات السؤال. كنت أشوف أبي، وهو يتقرفص لامّاً ركبتيه إلى صدره محدقاً في فراغ الحوش، عينان من مدافن وآثام وخطايا، ارتكبتها أزمنة غابرة، كان يحدّق في حلق جدتي التي تطلق في فضاء رؤوسنا مدنا ونافورات من الأعاجيب، يبتسم بشوق لحظة ترف رايات الحب فوق هامة ((نور الدين))، ويتألم.. يتألم لعذابات ووحدة ((ست الحسن)) كان قلبه يهتزّ مثل ماء قدر، ويستغرب وجود أنثى في حضن فراش بارد تحت ضغط ليالي الشتاء الطويلة، يداعب شاربيه، ويمسّد وجه أمي بنظرات الاشتهاء، فتفور براكين زوجته الثانية، وتعضّ على نواجذها متألمة، ينقل عينيه بهدوء إلى تكوّر ملامحها، فتحسس انتشاء

مكتبة الفكر الجديد

ومودة، وتبتسم برضا، وتُطرق بحياء، لم أكن أعرف هذا الغناء الخفي، أشارت الحلوة مثل حمامة إلى وراء الحائط القصي، فرأت عيني صفيحة النفط، خطت قدمي إلى الداخل، فتضاءلت أحلامي، وتقلّصت مساحات إنسانيتي، وامتدّت مقابض أصابعي إلى برودة الصفيح، أغمضت عيني، فصمت وجعي، كانت الجدران، تحاصر خاصرة وحدتي، وكنت مأخوذاً بالصمت، مأخوذاً بمراجعة ألم الوحدة، لكنني نفرت، وتمنّيت لو رمتني روحي وسط الضجيج،/كان رأسي يحاول، من خلال كتل الكونكريت الوصول إلى صخب الأمكنة، تلك المسافات المسكونة بالفئران، كان الاضطراب يؤصّل الأزمنة بالمسير صوب متاهات، لا حدود لمخاوفها، يأمرنا الصبية الموشومين بعدم الارتياح، فنجلس مثل كتل، صفوف طويلة، تتأوّه منتظرة سماوات العدّ: لتُمطر سبابا واحتجاجات، تتقيّد الأرواح بسلاسل من المهانة والإذلال، فترمش العيون، وتمتلئ بالحياء والوجع، ليس ثمة أقسى من أن تجد نفسك مجرد شيء غريب التكوين، شيء ممحو الانتماء، مشكوك بوجودك المترف، تظل محاطاً بالغرابات والاستفزاز، تحاصرك الأعمار المهدورة، كنت أتمنى لحظتئذ أن أحدّق في مرآة، أيما مرآة، يمكن لها أن تكشف كنه إنسانيتي/، كانت مرآة أبي مثلومة الحوافّ قانعة مثل ثوب عجوز، تغيّر ملامحنا، ونحن نختلس النظر إليها لحظة ينهي والدي حلاقة وجهه الأسبوعية، كانت المرآة تشيخ، ووالدي يتأوّه حزناً كلما حدقها غائمة، كانت تكشف أمام عينيه غيابات الأيام وعبث الانتظار، كانت أمي تحدّق إليه، ولحظة تلمّ أدوات الحلاقة، تسرق بوجل روح المرآة، فتتعلّق أهدابها بأذيال المجهول، ينظرها أبي، ومثل صبيين، وجدا نفسيهما صدفة، في موقف حلو، يبتسمان، ويبصران امتداد أعمارنا الواقفة إلى عمق أعمارهم الراكضة، يتأوّه الأب، يأخذني قهري إلى لبّ

مكتبة الفكر الجديد

الاستسلام، فأحوم بجنون أبن أوى، وفجأة.. ما الذي لم تؤسّسه المفاجأة .. لا شيء سوى الانتظار،

تمتدّ اليد البيضاء، وتأخذ بيدي، تتلبّسني الحيرة والارتباك، فأرغب لو صارت أكفي أجنحة، لو أنزلت السماء حبلاً، ورفعتني إلى علو، كانت رائحة الأنثى، تلك الرائحة الفائحة مثل رائحة تمرّ معجون بدهن، تمرّ عميقاً مخترقة اضطرابي، يستكين الفتى الجنوبي الوجل مثل جرادة، وينبق الحصان الذي كنته قبل هنيهة، يرفس معالم اضطرابه، ويصهل، يصهل ممسداً عرق رجولته، تغرق الأنثى في لعبة الاختيار، تتأمل البنطال العاج بروائح النفط. حاولت ستر عورتي، حاولت الاندماج في لعبة الاختيار، فمنحت نفسي ريش طاووس، وعنق زرافة، رفعت رأسي عالياً، وتنحنحت، فانسلت ببطء إلى الأسفل، باستسلام، أخذتني إلى وسط صالة الاستقبال، باستسلام، شدّ المحقق عيني، وأمرني بالانتظار/كان العالم يعجّ بروائح التوسلات والأكاذيب، لم أعد أعرف ما الحدّ الفاصل بين أن تكون إنساناً، تحترمك أحلامك، وأن تكون قطعة زائدة، لابد من رميها وسط تنانير المعاني. أجلسني الصوت الأمر لصق الجدار، وظلت خطواته ترنّ مثل مطرقة، بطيئة، لكنها رويداً علت مصحوبة بهمهمات جارحة، لحظتها؛ عرفت معاني الصمت/لمَ كانت جدتي تصمت، وهي تزحف باتجاه خراب الأرواح، ولمَ كان عمّي يحدّق في زمن ساعة أبيه السلطانية، ويرسم فوق سطح وجهه المجدور مئات من الأسئلة الخرساء.. ولمَ كان أبي يمدّ يده بإتقان لص إلى تأوّهات أمي التي تظلّ صامتة، ترقب محنتها الموغلة في عذابات وأحزان تشبه الانهيار، ولمَ كانت زوجة أبي تحوس وسط ظلمة الغرفة، وهي صامتة.. ولمَ كان أزيز القنابل يغسل الأجساد بترقّب وجل، ولمَ صيّرني سافل، له كلّ هذه الأسئلة التي لا تصل إلا إلى الصمت؟!!.

مكتبة الفكر الجديد

يحدّق ظلامي في ظلام الحائط، وبعناد يعلو ظهري سوط .. وآخر.. وآخر.. أتذكر كم من السنوات ما غادرت السياط ظهري، كان والدي يربطني إلى الحائط، ويرتمي بكامل جثته التي تشبه جثة كركدن فوق وجعي، أحاول الإفلات، أحاول الارتماء بين عيني أمي، وأتوسّل ((العباس)) أن يحضر لنجدتي، تبكي أمّي ملتاعة، ويضجّ الزغب بصراخ عنيد، يرمي الوالد السوط جانباً، ويلهث، ويستمرّ المحقق في جلد إنسانيتي، كنت أعد خلسة ما يمكن أن يتحمّله جسد، لان من رنين الأوجاع، بدأت مسارب الدم تزحف صوب مؤخّرتي الجاثية إلى الأرض، بدأ المحقّق الذي كنت أعتقده قزماً بأنياب ناتئة، يلهث متوسّلاً روحه بأن تستمرّ، ثمّة لذّة تسيطر عليه، لذّة أن يكون سيداً، يجلد عبده، من أجل أن لا يغادر بيادر عبوديته، انهزم الجسد المبلول، ونامت عيناي، وفاض وجعي مالئاً عباب الروح.. رويداً بدأ الانهيار.. وبدأ الصمت، أخذتني جدتي إلى حضنها، ودفنتني بين أثدائها المتهدّلة، كنت أشمّ من بين ثيابها روائح الزعفران والطين خاوة والحرمل، كان الجسد يمنحني رضاي، فأستقرّ شاعراً بأن وجعي بدأ يتلاشى.. أحاول فتح عيني، فأطالع عيون الزغب، وهي تطالعني.. يبتسم أخي.. أختي.. أخي.. وتبتسم أمي، ابتسامة حزن أخّاذة، ما تلبث زوجة أبي أن تبتسم. فجأة أجد نفسي محاطة بدوائر من دهور الابتسامات، وبغتة؛ تهبّ عاصفة أبي، فيأخذني من حضن جدتي، ويقبّل رأسي معتذراً، يحصر روحي بين يديه، ويمسّد أوجاعي، ويهمس في أذني كلمات، لها طعم العسلية واللوزينة، فأضحك.. يقول الأب:

- حاذر أن تتجاوز حدود رجولتك.. لا تصرخ حتى وإن قسى عليك زمنك!!

مكتبة الفكر الجديد

أغمض عيني.. وبصمت؛ ينجرّ جسدي خارج الغرفة الغارقة بروائح المستشفيات، عند الباب، ينهمر فوق جسدي سطل الماء، فيشهق، ويلوذ بالصمت، أتعمّد إغماض عيني، أتعمّد الصمت ((عوّدنا المحقّقون على التوسّل والصياح، وعوّدنا أنفسنا، من أجل أن تستمرّ لعب التعذيب والإهانات، ما إن تنسطح على الفلقة، حتى يبدأ الطرح، يبدأ التوسّل، والآن؛ تسكت عنك المهارات، وتتحوّل اللذّة التي تعيش إلى غضب، لا يمكن إطفاؤه بأنهار من الدماء والركلات مستحضراً لكل ما أنتجه الإنسان منذ أبده إلى أبده، من سباب، وما أنتجته القواميس من تواصيف، لا يمكن أن يطلقها أحد غير العاهرات والمحقّقين .. ببطء سلحفاة، تنسحب العصابة إلى علو عن عيني، فأطالع بهدوء امتداد الممرّ المفضي إلى فتحة ضوئه، وثمة مَن يجلس عند القصي لاعقاً لسانه مراقباً يقظتي، كان الممرّ مملوءاً بتكوّرات الأجساد المشدودة إلى ظلمة أرواحها، وفجأة.. تسمعت أذاني إلى صوت أنثى، صوت ناعم متوسل، كان الصوت يتوسّل، وما لبث أن انهمر ببكاء، كان له وقع قطرات المطر الشديد .. ظلّت روحي تلوب متوجّعة، وظلّ القاعد عند القصي يراقب نشيجي، وظلّ صوت المرأة يسقط مالئاً الممرّ، بحزن، لم أر مثله من قبل، كانت تصدر أصواتا مبهمة، وكان رأسي يحاول لملمة ملامح الصوت، علّه ينجح في اجتذاب أشكال الإنسان الذي حاولت الجدران الحمر محوها .. أخذت المرأة الحلوة يدي بين يديها، كان الحصان الذي داخلي قد صهل مبعداً الفتى الخجول القابع في لبّ جنونه، هي مرتي الأولى التي تطمس كفّي الخشنة المضمخة بالنفط، كفّ امرأة، لها شكل النسلة، ظلت تبصر تراجعي، وعنادي، بابتسام ودود، ولهنيهة؛ تلفتت متفحّصة المكان، كمن تحاول التأكّد من سيادة الصمت، كان الأسد الذي يحتضن حملاً قد غيّر مكانه، واستدارت أثاث البيت خارجة.. وثمة

مكتبة الفكر الجديد

مساحة فاضحة من الاضطراب والتراجع والانتظار، قالت بعد أن دفعتني إلى كرسي، كان يستقرّ عند الزاوية غير البعيدة عنها، ورمت حذائي ((الاستيك)) عند حافّة الباب:

- ما اسمك؟!!.

ارتجفت أعماق روحي، ولاذت بأذيال الهروب، كنت أريد الفرار، أريد الخروج إلى حيث تتوحّد نفسي وعذاباتها، لكني وجدت جسدي يمور بصوت من الارتجاجات، صمتت حنجرتي، وارتمت نفسي في هوة، لا قرار لها، تتحرّك قدمي محاولة الوصول إلى بوابة الصالة المواربة، لكن الحلوة التي برقت عينيها بعواصف الاشتهاء تعيدني إلى الكرسي، فأتسمر شامراً عيني ناحية ((قندرتي الاستيك)) التي بدت مثل يتيم، قالت بصوت، تعمّدته واضحاً، تشوبه رنّة أمر واضحة:

- ما الذي أصابكَ؟ .. ألم ترّ امرأة مثلي من قبل ؟!

ببطء، بارتخاء، رفعت رأسي إليها، كان الحصان الذي في داخلي قد استحال مهراً نافراً، يعوزه ترويض سائس مخمور، قلت بصوت مخنوق، تعذبه المخاوف:

- لا ...!!

- لا ... كيف؟!!

- لا ... هكذا!!

أطلقت لنفسها عنان الفرح، فطارت ضحكاتها مالئة فضاء الصالة، تسمّر الخرس في بلعومي، ودارت عيناي في محاجرهما، وصرت مثل ولد بال في فراشه، كان الشيء الذي بين فخذي ينتق محاولاً الخروج، محاولاً اكتشاف صحارى أزمنة القاحلة، أخذتني المرأة

مكتبة الفكر الجديد

إلى حضنها، لم تكن رائحتها تشبه رائحة جدتي، ولم يكن لجسدها دفء ذلك الجسد الذي تضمّخ بروائح الجنوب المثيرة للحنية، كانت رائحة الجسد التي تشبه رائحة التفاح تمتزج ورائحة النفط، ثمة ما جعلني أحذر الانسكاب، قالت - وهي تمد يدها إلى وسطي -:

- هيا، ما الذي أصابك؟ ألا تجدني جميلة؟!!.

أغمض عيني محاولاً البحث عن جواب، يرضي غرورها الذي انفجر مثل بركان /، كنت أبحث عما يرضي جنون المحقّق، ويهدئ من روع غضبه/ وأبحث عن أجوبة أقل إيغالاً في الوضوح، إجابات أتعمّد أرجحتها بين الرضا المطلق والشك الذي جعله يصمت طويلاً شاعلاً سيجارته بوهج ارتياحه، أظل أبتسم لسرّ لعبتي الصبيانية متحسّساً بقلق مسارات وجعي، كان ظهري يتنمّل ما إن أدخل حجرة التحقيق، وأوغل عميقاً في دهاليز عتمتها المطلقة لعصافير التهديد، تحسّ أن كل ما يحيط بك رغم ظلامه يحاول السيطرة عليك، كيف يمكن لولد، دفعته الأيام بقوة إلى أزقة الخوف من السيطرة عليه ؟. كان عالمي المشاكس يتلاشى دون أن أقدر على تشييد عالم آخر ... كان عالمي يموت بين يدي الحلوة التي لها أصابع النعناع، يموت تحت ضغط سياط المحقّق الذي كنت أحسه يرتجف ما إن ابدأ بسؤالي الغريب:

- ما الذي تريد؟!!

كنت أعرف أن ثمة أشياء كثيرة، يريدها المحقق، أشياء قاسية، يمكن إن أنت تخاذلت بإطلاقها أن تؤدي بك إلى حبل المشنقة، ما إن تدخل الغرف الحمر .. حتى يتحول رأسك إلى دنانير مزوّرة ... يُغضب السؤال المرأة، فلقد كان عليَّ أن أعرف، أو أدعي معرفة ما الذي تريده امرأة وحيدة وسط هذا الركام من الوحشة والانكسار، كانت أصابعها

مكتبة الفكر الجديد

المصقولة الحارة تبحث بإتقان عن شيء، بدأ هو الآخر الظهور متفحّصاً نور الصالة، حاولت الضغط على ما بين ركبتي، لكني شعرت فجأة أنّ ليس ثمة خلاص، كانت عفّتي تتفلّش، والصبي الجنوبي الحائر يضيع وسط شوارع المدينة المسحوقة تحت ضغط الجنوب، جدّتي تكره المدن، وتصفها بمساكن العفاريت، ويوم قرّر أبي وعمي الانتقال إلى العاصمة، كادت تموت اضطراباً، وتوسلت كل أمة الأرض أن يعود أولادها إلى أرضهم التي غدت سباخاً، ولم تعد تساعد في سدّ رمق الأفواه التي بدأت تتكاثر مثل دود اللحوم، كانت تضم نفسها وسط مخاوفها، وأبدأ ما كانت تقدر على مفارقة سرّ البوح، وظلّت لشهور طوال لا تُطمئن لغرف الطين، رغم إحساسها بخطوات الغرف، وفرحها لمسارب الهواء البارد، وسيادتها المطلقة على باحة الحوش ومخدة الريش، مبصرة حافّة الازرقاق التي التحمت بالحائط المقابل لمشرق الشمس. وما تلبث مثل سلطان، أن تصدر أوامرها، فتتحرّك مكائن الكنات دون أن ينبسن بشيء، كنت أشوف أمي تنظرها بودّ، فكثيراً ما شعرت أن ثمة تواطىء دفين بينهما، كانت الجدّة تبوح بأسرارها لأمي التي تظل صامته لزمن، ثم ما تلبث أن تسكب ما تريد في الأذنيين الموغلتين في مدن السماع، تحاول أمي الإمساك بعصا السيادة، فلابد للجدّة من لحظة رحيل، لابد لها من مغادرة، حتى وإن بدت أمام الأنظار بعيدة، أو غير ممكنة الحدوث... وسياط المحقّق تحاوط عقول الذين لا يعرفون لم وضعتهم الأيام في هذه العلب الحمر.. ما الذي لا يمكن حدوثه، وكل شيء قد حدث دون إرادة أحد .؟!!.

كانت قطارات الحروب تأخذنا إلى أمام، وما تلبث أن تعود فارغة، وها هي قطارات غرف التحقيق، تأخذنا باتجاه الغرف الحمر وصالات

مكتبة الفكر الجديد

المحاكم؛ لترمي بحطامنا إلى قاعات السجن المركزي والغرف المحاطة بآلاف الأسلاك لقاطع بيع الأرواح!!.

تحاول أمي البقاء تحت ظل الخفاء، مبددة الآمال التي قد تصل إلى حد الانتقام من سيطرة زوجة أبي، وكراهيات الأيام الموحلة، كانت ماكنة الخياطة - بالنسبة لها - خصماً واختياراً وقدراً، تريد من خلاله الإمساك بروح الزمن الذي بدأ يهرب من بين يديها». كنت ما إن أربط الحصان الذي يسكن في أعماقي عند محطة التعبئة، وأجر تعبي إلى باحة الحوش، حتى تطالعني بعينين مهدومتين، وضياع ما كنت أعرف كيف يمكن لي السيطرة عليه، كانت تظل لزمن تحدّق بي، ثم تندفع إلي محاوله الإمساك بكلي المنقوع برائحة النفط وعذابات الإسفلت. أظل ساكناً، ويظل الحياء يربك حواسي، فلا أنوس بشيء، تتعطّل حركة الكلمات، ويصير حلقي صحراء، تحوي في أعماقها رياح الغضب والاستنكار والخنوع ،.. لحظة ارتمى جسدي عند ركن الممر الممتد مثل طريق مهجور، كانت أمي توسد ساقها رأسي، وتمسّد الشعر الذي وخطه البياض، تتلمّس بحنو أسرار انطراحي، وتفيض بنواح، يجعلني أغمض عيني، وأنسكب عند هامة السيد الذي ذبحته الآثام، كانت المرأة التي يجلّلها الحزن، تحيط آمالها علوم الودّ، تبصر الرأس المدمّى، وتنقل أبصارها بين هالات الرفض والأجساد المطروحة ها .. وهنا .. وهناك.. ثمة مَن لا يقدر على لَمّ جماح هذه القدرة المؤسسة لأبدية الأبد .. تهمس للرأس المرتل بآي الفخر، فتنفرج العينان السوداوان بهدوء، وتصمت فضاءات الوجود، فليس ثمة ما يمكن أن يقدر على الاستمرار، إن تحدث السيد المذبوح الرأس :

قال _ أي أخيّة؛ أو تبكين وأنت سر معارف الأعظم بين الأجداد!!

مكتبة الفكر الجديد

قالت _ وكيف لا أبكيك، يا ابن أم؟

قال _ لا عليك.. فأنا أبصر من خلالك أهلي وعشيرتي، وكل ما يمكن أن يصير الحق حقاً.!!.

قالت _ وأنا .. أنا ايها الفان بالتحول؟!!

قال _ أخيّة: هذا قدر اختيارنا .. أبداً .. أبداً، لن يموت أحد منا بغير الدم.. أعمارنا رفيقة الموت، وابنة اللاء التي تستمر.. نحن نورث معارف واضح نورها .. أن لا حقيقة دونما يقين، يوصل إلى مسار الأبد ..!!.

تظل السيدة تبصر الاجساد، ثم ما يشعل الأفئدة، ولكنْ؛ عليها أن تكابر.. أن تبدأ .. أن تصير مثل أنهار. كانت أمي توجع وجعي. تحاول البوح بالاستمرار.. تحاول الإمساك بعمر أنوثتها الممدودة بين ضجيج ماكنة الخياطة وقصص العجان، وريح الصبايا الخاتمات على فناجينهن بأدعية الانتظار.. تحاول بث آمالها بين جوانح روحي التي فاضت بالتعب والتألّم والفرار، أمد يدي ببطء.. فلا أمسك غير الفراغ.. ولا أشم غير عجاج البلوى... يرفسني الواقف فوق رأسي، فأصر على عدم التحرك، أرمي نفسي وجسدي بين يدي الانهيار، ليس ثمة أقسى من أن تتحدى.. ولكنْ؛ لابد من ذلك.. لابد من أن تظل لاؤك لاء، ونعمك نعماً، ويظل اختيارك الأنصع بين الاختيارات.

- أو لم تؤمن..؟

- بلى!!.

- أولم ترد البحث عن راية، تحملها للخلاص؟!! -بلى!!

مكتبة الفكر الجديد

- أولم ترد لغرف الطين والجماميل والمدارس المهجورة والمستوصفات التي لا يرعاها أحد والجوع والكراهيات غير المبررة أن تتغيّر؟!

- بلى!!

- إذنْ؛ لم تمنح تخاذلك شكل الانتصار؟!.. لمَ .. كل هذا الصمت .. وهذا الوجل وهذا الاندغام في بحر الأكاذيب والنفاق..؟!!

ترفس القدم التي لها ثقل الحديد لمة رأسي، فينزّ ماء أحمر، رويداً يسيح تجاه فتحة الممرّ الذي تعبّأ بظلمة موحشة، كانت جدتي تصارع وحدتها، وكنت أنصهر في بوتقة الترقب، رأسي يتدلّى، ورقبتي تتمدد، ولساني ينحطّ محاولاً الإمساك بأذيال الغيبة، وحدي تجوس في خواطري خواطر من فراغات، كان رنين الكلام يوجع قلبي، فأصغي إلى أصوات الأنين واللهاث، كانت أمي تكبت لهاثها زمن ينكفئ أبي فوق بساط رجولته، وتظلّ غارقة في همس شفتيها المرتجفتين، أبي يموء مثل قطط شهر شباط، مواء حيي ما يلبث أن يتحول إلى فحيح، ترفع أمي يدها ببطء، وتطبق كفّها لاهثة في شطآن الاكتئاب، تسحل نفسها بفتور، ويدير أبي رأسه إلى الجدار متحسّساً خطوة الظلام، أتحسّس نبع الدم، «أتحسّس سيل آثامي، أتحسّس الكفّ التي تحتضن طفولتي محاولة الولوج في سرادق عفتي، كانت الأكف تبحث عن لعبة الاسترخاء، تتملّق هدوئي، فأتمسك بستر طفولتي المتناثرة مثل رماد، قعدت السيدة بين قدمي، وبدأت بحذر تسحب بنطالي، تسحبه متعجّلة الوصول إلى مبتغى الرضا «لم تقدر حنجرتي على صد الآثام، ولم تقدر على البوح، لذا؛ استكانت لائذة بوَهْم الخوف، كان الحصان الذي في داخلي يجنح إلى الخيال، يثور من أجل إثبات وجوده، فيما وقف الفتى الجنوبي حائراً، كان السؤال الذي يجلد لهاتي كأنه ملصوق بين الفكين:

مكتبة الفكر الجديد

_ مالذي تريدين مني؟!!

قالت وهي ترمي البنطال عند حذائي الميت -سأعطيك بنطالاً جديداً..!./ تمتم الفتى الأخرس من بين شفتين جافتين -- شكراً!!

- وستكون صديقاً لي .. أعطيك ما تريد .. بشرط!!

شهق الحصان، وشرق الفتى بخجله -- ما .. إذا؟!!

-تعال إلي ...!! -كيف.....؟!!

- ليكن موعدنا كل يوم عند الساعة العاشرة ..!!

- لكن شغلي يشتدّ في مثل هذا الوقت .!!

- لا عليك، قلت لك سأعطيك ما تربحه، وأكثر!!

انهدمت أسوار الشك في داخلي، وبدأ الفتى الجنوبي المعجون بروح الكبرياء والممنوعات ينهدم، أو حقاً يقدر الفتى المتعوب بجرّ الحصان الذي صاره، أن يتجاوز مخاوفه والارتماء في أحضان البياض الذي له لدونة الإسفنج، زحزح نفسه رويداً، فأخذته المرأة إلى حضنها، وطبعت فوق خده قبلة ساخنة، تشبه بيضة مقلية، وما لبثت أن مدّت يدها إلى ما تحت ستر حزامه.. كانت تبحث دونما ضياء عن رجولته التي لم تكتشف بعد، وكان يتسمّر مبصراً فراغ الصالة، وصمت المكان، ثمة فحيح وهمهمات، وغضب، كان الآخر يقف عند الباب مراقباً أشياءه الملقاة دونما اكتراث»، حاول الأخذ برسن الاسترخاء، لكن المرأة شدّته إليها بقوة، جعلته يطلق آهة وجع، ما لبثت أن ملأت المكان». كان وسطه يقاوم الاستسلام، وكانت أكفّ الصبية تجوس بإتقان عارفة من أجل الوصول إلى مكمن إنسانه الضائع في لجج الاضطراب ،... فتح عينيه،

مكتبة الفكر الجديد

فطالعه الجدار الأحمر الموشوم بأدعية ونداءات ربّانية، يشعرها خارجة من جوف القلوب الملكومة المترقّبة نهايتها الغريبة، ليس ثمّ مَن يخرج من هنا دون أن يدفع ثمن أيامه التي عاشها، فلا بد من ذنب مرتكب، ولابد من جريمة قد وقعت حتى في عمق الأطياف، ولابد من محاكمة، تملي عليه خطوط الاتهامات التي تصل أحياناً إلى حدّ محاولة تدمير أسس الأرض .

كيف يمكن له البوح بأسئلة الفراغ.. وفراغه صار مملوءاً بأسئلة، لا تقل غرابة عن أسئلة صباه.

كان الفتى الذي كانه يقف غير بعيد عنه، يتململ العمر بين أركان الفوضى، فيتقدم الفتى، ويحتضن سروره، وما يلبثان أن يسيحا معاً، في مدن من الاستذكارات، ليس أمام قاطني الغرف الحمر ومدمني العبوس سوى الفرص عميقاً في بحور الاستذكار صدفة .. تنهمر أمام عمرك التعب سنوات عمرك المهاجر، ترى آثامك وخطاياك، والوجوه التي كدت تفقد مطمحها، فجأة.. تعيد خطواتك حساباتها، تصمت حنجرتك، يصمت وجهك، فتكمش المرأة مكامن رجولتك مطلقه آهة ارتياح، وتأخذه بين يديها، تقول بصوت رماني عذب، بارد، بليل :

- ما أجمله؟!!

تتلوّن القضاءات بغبار التراجعات التي محت عفّتي، كنت أوهم نفسي بالاندفاع، بالتخندق وراء مقاييس الإرث الذي بقي يغور في أعماقي، كان عقلي يسعى للإمساك بهدوئه عازمً على إيجاد منفذ للخلاص ء ليس ثمة أمام الفتى الجنوبي الحائر غير الهروب.. ولكنْ؛ كيف؟ وإلى أين يمكن أن تفضي بك قدميك؟!!. ... إلى أين تراك وصلت؟!... فإلى ماذا أوصلك الاختيار؟! جدران كالحة، مغموسة بالضياع، ومخاوف مرتبكة» وأناس ما كنت تود اللقاء بهم حتى وأنت

مكتبة الفكر الجديد

تعاود ضغاث أحلامك، ما كان رأسك الواهم بكل أفعال الخير أن يجد قلقه فجأة منسكباً وسط صور من الأحاديث التي لا يمكن أن تفضي إلى غير الأكاذيب وأفعال ما كره رجال تلطّخت أصابعهم بأكل آثام الأرض.. أولاد قابيل النازف وجعاً ». ظلّت روحي تتأرجح معلّقة فوق هوة سحيقة، وثمّ هناك من التنانين والأفاعي تنتظر السقوط، تحرك قدميك، فتلوذ المرأة بخاصرتك، وتظل تحبس العظم الناتن الذي كان منصوباً مثل لكم رصاص، كانت ترعبه بوهن، وكنت تلهث خلف الشوال.. لم أكن أعرف ما الذي يعنيه كل هذا.. ولما تصرّ المرأة على الإمساك بالنتوء العظمي، وشدّه إلى نفسها، تبصره بارتياح، وتداعبه مثل ولد مدلّل، وبصمت؛ ترمي جسدها بين قدمي الكرسي، كانت المرأة تريد أن يكون الأول السابق إلى القول لأمها، تعرف أسرار لعب الامتهان، وتتقن الإمساك ببعض الرجولة، يغمض عينيه، فتجرّه المرأة لامة قوتها، عاصرة ذوابة رجولته بعنف؛ يجعله يبصر شعرها المسكوب فوق الكتفين، ليل داكن ينتظر مَن يطشره بمن حسبه فوق نواصي اللذة.

كانت زوجة أبي تعلن بصوت، تتعمّده عالياً؛ ليثير غضب أمي، كانت تعرف سرّ لعب الأنوثة، وتحفظ خفايا البوح. ما إن يبدأ أبي بالضغط فوق لدونة الجسد الساكن. كنت أسمع إلى أمي، وهي تستفزّ الرب، وتبكي بصمت لأمه، لم يمنحها مكراً، تربط به وجهها الوافر الرجولة، كان أبي يمور بفحولته، يبدو مثل ثور هائج لحظة يحسّ ذوبان روحه بين يدي الرغبات، يطبق فمه، ويغمض عينيه مبسملً، وحين يفتح عينيه، يحدّق باستغراب بمن حرة زوجته الثانية، وينظر جفاف أمي بعيني ذئب، حاولت الإفلات من جنون غرفتنا المكتظّة بروائح الليل، كانت الغرفة مملوءة بالانتظار أجسادها، تنام متكوّمة مراقبة ريح الفرج.. كانت غرفتنا تطير، وعصافير الأحلام، ثمة رفيف وأوهام

مكتبة الفكر الجديد

وأساطير من جنان، يريد أصحابها الدخول إلى فراديس بلعب الأكاذيب.. لحظة يجفّ الليل، وتنسد الأبواب، تصير الغرف سوقٌ، وتشتدّ النداءات، وما تلبث أن تزداد وحشية، ورويدٌ يسود الصمت .. يسود الترقّب، وما تلبث أرتال من الماء أن تسيح أنهاراً من الألم. طلبت من أمي أن تضع فراشي عند مطبخنا المهجور، لكنها احتجبت، وسالت دموعها بانفجار عجيب، وأخبرت جدتي بالأمر، فرمتني بنظرات الاستهجان، لكنها - وببطء - أخذتني بعيداً، وهمست في صيوان أذني:

- أو تخجل مما يحصل ليلاً؟!!.

طفرت دموعي بغتة، وهززتُ رأسي مجيباً، أحسّتْ حرجي، فأجلستني إلى حذائها، وقالت بصوت خافت في روائح العنبر والمسك والزعفران:

- أو تعرف للنساء عملاً غير هذا ؟

قلتُ مدارياً خجلي: ((آه، أيها الجنوب، ملأت أعمارنا بالخجل ؟)).

تشهق جدتي، يشهق بلعومها بكرات أيامها، فتبكي لاعنة الأيام التي فرّقت بينها وبين مَن تحب، تقول: هذا ما كان يقوله جدك!!

فأحتجّ غاضباً _ لكنه قول معلّمنا !.!

يصفن نَفَسها لزمن، ولحظة ترانا نحدّق بها، تقول مبتسمة:

- إيه .. ربما سمعه المعلّم من جدك!!

لم يفه أبي بشيء، ويظلّ عمي ينبش الأرض الرطبة بعود ثقاب، وتدور أمي باستكانات الشاي، يبدأ الخطّ الأبيض بالتلاشي، وتصير الدنيا عتمة وقهراً وصمتاً، تشق جدتي سطوعها، فأقول متعمّداً إغاظتها:

مكتبة الفكر الجديد

- عمل ماذا..!!

تحرّك كفّيها ارتياحاً، وتأخذ بيدي عادّة أصابعي ببطء متعمّد.. تقول بفرح فتاة في العشرين. _ إن المرأة لا تجيد سوى هذه اللعبة...!!.

- ما الفائدة، جدتي؟!!

- لمَ تبحث عن فائدة؟.. سلْ هذه الأرض .. وستعرف أي فائدة يقدّم لهاث الليل!!. _ وإن رفضت؟!!

- آه، يا ولد.. آه، لو رفضت، لتحوّلت المرأة التي بين يديك إلى وحش، وربما، احتجّت على عذاب جسدها بالقتل!!

- أولهذا الحد؟

- ليس للمرأة غير عمر واحد.. ولابد أيها الولد الشقي أن يملأه الرجل بالسعادة والأمان، وكلاهما لا يمكن أن يتمّ بغير لهاث الليالي وألفة اللمس.

ظلّ جدي ماخوذاً بما قام به، ظلّ يحلم برؤية الرجل الصالح بذقنه المدبّب الذي قتل القيصر، وبنى فوق أشلاء وجوده، أول وجود للفقراء، كان يضع عينيه هناك، فيما كان قلبه يخفق هنا» يرقب الخرابات الدائمة، ويضيع في عجائب اكتشافاته المثيرة للجدل والاستهجان، أبصرت جدتي رضاها من بين يديها، فأدمعت العيون، ورويداً فاضت بريح الفراقات»، حاولت الإمساك ببقايا الرجل الناصت لأقوال الكتب العتيقة» لكنه ما لبث أن تلاشى؛ ليضيع في غياب، ظلّت ترقبه حانية الظهر ضائعة في سواد ثيابها» كانت ترقب الطرقات، وتتوسّل المتحدّثين عن المسكون، مستطلعة الأخبار؛ لتبني نشيد آمالها، قالوا:

مكتبة الفكر الجديد

- إن الجد التقى الرجل الجليل!!

وقالوا: - إن الجليل اتخذه خليلاً ومرشداً، وإنه أعطاه سبع بنات بواكر من بنات أذربيجان والمسكوف!!. وقالوا: إنه أنجب أولاد أشداء وبنات حلوات ما زالوا حتى اللحظة يتلقّبون بلقبه، ويتفاخرون بانتمائهم إلى أرض السواد!!.

وقالوا: - مات مصاباً بأبو زوعة، فأكلته وحوش صحراء الربع الخالي!..!.

وقالوا: - إن حجّاج بيت الله التقوه عند البيت العتيق .. يقرأ آي القرآن، ويبحث عن وجه، أدمن حضوره، وقالوا: انما هو يسكن قلب القمر حتى تحين الساعة، ويأتي الباعث على الآمال؛ ليملأ الأرض بنداءات الودّ، عندها؛ ينزل بأمر الرب؛ ليكون الوزير والمسهم!!

وقالوا: - إنما هو سكن المدينة الضاجة بالنسوة المتبرّجات، فوجد ضالّته بين إحداهن، فكانت تُطعمه حليب السباع، وتجلسه فوق عرش من ذهب، وتخدمه مثل ملك!!

وقالوا: - إنما هرب بعد أن خذلته كلمات السيد المدبّب الذقن، وأحسّ بعبث أفكار الفقراء، فراح يبحث عن كنز، يسدّ رمق رضاه حتى ضاع في دهاليز التوسّل، وما لبث أن غدا سيداً مطاعاً لمتسوّلي المدن الكبيرة، وهو يحلم ببناء مملكة الفقراء!!.

وقالوا: - إنما أخذه النهر إلى قلبه. وقد ظهرت جثّته طافية، وهي بكامل كفنها عند المشرّعة التي تقطّعت عندها يدا الأخ الناصر، وساعة وجدوها كانت تقرأ سور القرآن، بصوت مملوء بالعنفوان!!

مكتبة الفكر الجديد

وقالوا: - دفنه أهل العير عند لبّ الصحراء بعد أن وجدوه مذبوحاً من الوريد إلى الوريد، ولا يستره غير خرقة بالية وعمامة خضراء .. وما لبث القبر أن صار ضريحاً يُزار!.!

وقالوا: - إنه سافر وبين جوانحه حلم أن يلتقي السلطان عبد الحميد ثانية.. لكنه ما وجد مكان القصور غير كطب سائبة وغرف مهجورة، وحكايات، لا يمكن أن يصدقها عقل!!.

وقالوا ....!! تعوم الجدّة بعذابات صمتها، وأهيم في اختيارات الجد، باحثاً عن الأجمل بين الميتات، كانت المرأة تحاصر طفولتي، والمحقّق يحاصر رجولتي، والسجن المركزي يملأ قلبي قيحاً ووجعاً، توسّلت الصمت بالانفجار بين يدي تراجعي، وضعتني المرأة بين ثدييها، فتسرب إلى أعماقي دفء لذيذ، حركة جسدي، فنهضت أمي واقفة شاهرة ظلمة عباءتها إلى بعيد، وبهدوء، أخذتني إليها دافعة جسدي المخضّب بالدم عبر الكوة التي صارت تتّسع لكلينا، ابتسمت بودّ، وقبّلت جبيني الشاحب كشفق الشمس.

قلت: - أو هكذا هي كل النهايات؟

- مَن قال .... من؟

- القبلة التي أوقفت انبجاس الدم! !

- ليس كل النهايات واحدة .. وأنت تعرف هذا؟!

- إنما أردت تلك النهاية التي كانت تحدّثنا عنها جدتي، ونشوفها في ليل عاشورا! !

أطرقت أمي ارتياحاً، وبهدوء؛ دمعت عيناها، وما لبثتا أن فاضتا بحنين موجع، كان رأسي ينوء بوابل من الأسئلة الغريبة، قالت بفنج لذيذ، طرق مسامعي بخوف:

مكتبة الفكر الجديد

- مالك خائف؟!.. اقترب؟ !

اقترب الجسد من فضة روحها ببطء، فسرت قشعريرة مرة بين جوانحي، قشعريرة أربكت فحولتي المرتجفة، فأخذت ترصّ فوق الجسد الذي صار بلون لهب التنانير، اندفع إلى سبات أنوثتها بهدوء.. بصخب.. بشدة.. برقة.. بانضغاط. ..... انتهت اللحظة الحاسمة.. وبدوي.. كانت صافرة الإنذار تهيل التراب فوق لمة رأسي..

تراب أسود بحجم أطنان القنابل التي كانت تهبط إلى رحم الأرض دون أن تنجب سوى الخراب والقلق والموت.

مكتبة الفكر الجديد

- 5 -

عبرت بي الأيام سريعاً عبر بوابة الرجولة، فوجدت نفسي تغوص في أسئلة، كانت تبدو مثل حكايات طفولتي الغائبة في أوجار الكوانين، استقرت الأيام بين يدي، وصيّرتني كائناً متوثّباً وجلاً مثل ذئب، وجد نفسه صدفة محاصراً بآلاف الأصوات الناشه عليه، كانت/كنت/ أحاول الإفلات كاسراً طوق عزلتي، تأخذني الشوارع، إلى نداءات الغرابة، وألح على الحصان الذي كبر بداخلي على تجاوز محنته، كانت المرأة التي لها لون التفاح تصر على زيارتي اليومية، لكن هروبي كان واجباً، يهتم على تجاوز ذكورتي الموغلة بالآثام، أن عليّ التخلّص من عبودية فقرنا. وعذابات أخوتي الزاحفين، وفوق ظهورهم أكوام من الهمّ، فجأة؛ وجدتُ نفسي تخرب بوابات الطفولة، وتشيد من أنقاض الآثام رجولة حائرة، تدور دون رجاء بالخلاص.. كيف يمكن للخلاص أن يجيء، وعرية النفط تشدّني إلى إسفلت الشوارع، وأريج حدائق المدن وغرائب البوابات المفضية إلى دواخل البيوت، كان كل شيء في داخلي قد تغيّر، كنت أبصر العالم بعينين من وجل وترقّب وهيام، وعمري يتبدّد، دون أن أقدر حتى على لملمة بعض شتاته، يغور عميقاً في دروب الصمت، كانت أمي تراقب تحوّلي.. تراقب صمتي.. تراقب الذلة التي بدأت ترتسم فوق تقاطيع الوجه الذي لوّحته الشموس، وغسلته أمطار الشتاءات المتكرّرة، كانت تحاول مساعدتي، لكني تمرّغت في تراب اليأس، فليس ثمّة تلك الطرق الموصلة إلى أرباح النفط التي لا تسدّ سوى جوع الأخوة، أربط الحصان

مكتبة الفكر الجديد

الذي يسكن داخلي عند محطة التعبئة، وأعود جاراً خلفي الدراهم السبع والوجع ورائحة النفط التي تزكم الأنوف، أدفع الباب، باستهجان، وأندفع باتجاه أبي الذي يرفع رأسه مبتسماً، أضع الدراهم بين يديه دون أن أفوه بشيء، لم يعد للكلام فائدة.. ما الذي يمكن أن أقوله؟! ولماذا؟!!.

في السجن المركزي، يغدو الزمن محصوراً بين الزنزانة والمرافق الصحية والنوم، يلعب النزلاء بأزمنتهم لعبة الغفلة، فليس ثمة غير الاستعداد للخصامات، كانت أقسامنا تحمل صورة الخصوصية، والتكوين الذي يوغل في صحة الفكر، لكنها وما إن تحسّ نبض الحقيقة حتى تكتشف أن كل شيء مبني على أكاذيب وأوهام، تمور الغرف بأسرار حكاياتها، فثمة اتفاق على عدم إعلان الفضائح، لكن الصباح كفيل بأن يجعلك تسمع ما تريد من الأخبار، غسيل من المتناقضات والغرائب، تهدّد جدتي بدني الذي أشعره يذوب في تعب يومه، أغمض عيني.

تضغط جدتي فوق جبيني، ويهدأ لغط الأخوة قليلاً، ويرتفع صوت الأب مؤذّناً للصلاة، تضع أمي صينية الطعام أمامي، صرت كبيراً.. رجلاً يدفع، ولهذا؛ يحقّ لي أن آكل وحدي، وأن يكون لي سهم من بقايا سمكة، وربما وذرة لحم.. رفعت رأسي، وأبصرت، كد ضياعي، وهو يصير خبزاً ومرقاً، مكفّناً بطبقة دهن صفراء، ورأس بصل، الحصان الذي كان أنا، تأسف لعذابه.. ولكنْ؛ ما فائدة أن تتأسّف، وأنت جائع، امتنع عن الطعام، ولسوف ترى مئات من سياط الأسئلة، تنهال فوق سواد رأسك سياطاً، لا تجد لها غير مبرّر الكراهيات والحقد، كان المحقّق يضربني متلذّذاً، أشعر بارتجاف يديه، أشعر أن ثمة قوة، بدأت تزداد ... رويداً، قوة ما تلبث أن تتحول إلى دروب من الأسئلة.

- ما الذي تريد الوصول إليه ابن بائع النفط؟!

- .....!!

مكتبة الفكر الجديد

- أو تريد أن تكون سيداً، غرفة طين، كانت واسعة منقوشة بفرش الصوف، ومحروسة بركام من الدلال، يعطّرها الليل برائحة القهوة.. يبدأ الرنين رويداً.. ببطء، وببطء، يرتفع دخان المحمس، وتشبّ نيران الارتواء، يتعمّد عمّي إلقاء حفنة بن أخضر وسط النار، فيبدأ الانفجار، وتشعّ الريحة، فتشرئبّ الرقاب، وتدور.. تدور متحسّسة الفضاء العاجّ بالانتظار، أتحسّس الصمت والعبودية التي صنعت من أجلكم!!.

- .....!!

- أو تصدق سفالات الساسة؟!.. أو تعتقد أن كل ما تقوله رؤوس الكتاب قابل على أن يكون حقيقة؟!.. منذ أقدم العصور.. نحن السادة، وأنتم العبيد.. أو تريد قلب المعادلة؟! ومَن أعطاك مثل هذا الحق؟!.. عربة النفط.. جنونك الذي لا يمكن.. أن يصدّقه أحد.. سفالاتك.. ما الذي تريد أكثر من بيت، يأويك، وخبز تأكل وقنينة خمر بين يوم وآخر.. السيادة ليست لك.. بل ليست لكم.. إن أصبحتم سادة، فمَن يدير المهن الوضيعة؟!.. مَن يكنس الشوارع؟! ومَن ينقل الأغراض فوق ظهره ؟! ومَن ينظّف ردهات المستشفيات؟!.. وكيف تقدر ربّات البيوت الفارهة على الاستمرار، دونما إصدار أوامر لخادمات الوضاعة؟!.. أو تريد أن يُكمل ابنك دراسته، ويقف ابني عند الإشارة الضوئية؛ ليبيع الجرائد وعلب السجائر؟!.. أو تريد أن تضيع قيم الشرف في أرجاء الأرض، فتغدو أختك مأهولة بروح الورد، وتصير أختي مجرد انتظار باعث على القيء؟!!.

- . . . . . ! ! ((صمت)).

- حتى وإن ظل صمتك أزلاً.. لا يهمّ، نحن نعرف ما تفكّر به.. نعرف أي تبن عطن يحمل هذا الرأس، وأي أسئلة حقيرة يريد الإجابة عنها.. من حقك السؤال. ولكنْ؛ من قال لك إن لكل سؤال جواب؟!..

مكتبة الفكر الجديد

العبيد والفقراء لا أسئلة في رؤوسهم.. هاك ورقة، واكتب اعترافك الصريح.. اكتب ما تريد.. وما تحلم، وأقسم أني أساعدك.. أساعدك قدر الإمكان.. رغم أني أرى حبل المشنقة يلتفّ حول عنقك!! أتحسّس رقبتي.. أو أنظر رغيف الخبز.. أنظر ذلّي ومهانتي، كان أبي يحدّث زوجته عن أعمارنا التي تتبدّد، قالت جدتي:

- ما الذي يشغل رأسك؟

رفعت رأسي ببطء، وتوقفت اللقمة في زردومي، كان الجفاف قد بدأ يأكل عمري، ما الذي يمكن أن أقول ورأسي مشغول بمئات الأسئلة المجنونة، أحدّثها عن المرأة التي تنتظرني كل يوم عند الساعة العاشرة، وما إن تراني حتى تسبح في بحور من الضحكات.. أأقول لها إن عفّتي غدت مجرد كذبة، لا مبرّر لها.. وما فائدة الحديث مع عجوز ماكرة.. قتلت طفولتي، وملأت رأسي، بجيف من الحكايات والجنون؟!.. مَن أعطاها حقّ السؤال؛ لأجيب؟!.. ولماذا يتحتّم عليّ دوماً أن أجيب؟! قال المحقّق وهو يورث سيجارة: ((المحقّقون يشربون السجائر بكثرة.. يشذي أرواحهم عطر الدخان، يجعلهم يهيمون في وديان الاسترقاق، ترتجف أصابعهم، وتتنمل، وما تلبث أن تقبض على العصى؛ لتنهال على أول رأس تراه.. ودائماً.. دائماً ثمة رأس، بحاجة أن يُكسر، بحاجة إلى أن يقوم، ويعلو، ويبتهج)).

- ها، ما الذي قلت.. أو ستكتب؟!!

-. .. ..!!. ((صمت)).

- قلت لك الصمت مفتاح أذاك.. لعبة نعرفها جيداً، ولدينا من الوسائل ما يفتّت أشد بنايات الصمت أحكاماً.

مكتبة الفكر الجديد

- .....!. ((صمت)).

- حسناً، ما دمت لا تريد السير في الطريق الصحيح، فلابد من منعك من المشي في الطريق الخطأ .. هو واجبنا، اكتب ما كنت تحلم به، وأنت تجرّ عربة النفط.. أو أنت تعيش صخب أيامك..؟!!

- .. .. .. ((صمت))!!.

- حتى وإن صمتَّ، فلا بدّ من طريق.. هل تعتقد أننا عاجزون عن الوصول إلى ما نريد .. الدرب إليك سالك، لكننا نحترم فيك الإنسان.. ((صمت ثقيل هذه المرة)).

بالمناسبة؛ أعرف كل ما كانت جدتك تقوله، وأنتم تجلسون عند كانون النار.. لمَ كنت تُعلن ليل نهار، أن عربة النفط التي كنت حصانها هي إرث ساعة السلطان عبد الحميد؟!. . سجّل تهمة ثانية الاعتداء على إرث السلاطين؟!.. أو لم تعرف، وأنت العارف لكل شيء أن الهدايا السلطانية ممنوع بيعها ؟ أو لم تعرف أنها إرث الأمة كلها؟! ... جاحد يعطيكم السلطان ساعة؛ لتكونوا من أصحاب المفاخر، فتجعلون منها عربة نفط، بأيّ حقّ، فعلت هذا. .؟ ! !

.. .. ((صمت))!!

- أعرف أن لك رأس جحش صغير.. ولمَ لا؟!.. ولكنْ؛ لدينا ما يجعل الجحوش الصغيرة تنطق ((صمت))!!

- اكتب لنا أيما شيء.. قل ما تشاء، فإن أنوفنا التي اعتادت أرقى العطور، قادرة على معرفة الخطأ من الصواب، قادرة على أن تميّز بين وهمك وحقيقة ما تريد، اكتب أنك رغم ما تعرفه أن الأحلام يجب أن لا تتجاوز النسوة وقصصهن اللطيفة، كنت تقوم بقيادة الأحلام على أهمية

مكتبة الفكر الجديد

وافرة.. سجّل أنك بقولك ..لا .. لأبيك، وإصرارك على مواصلة التعلّم إنما هدمت ركن الطاعة، في مجتمع مبني على الولاء والطاعات ،ألم تقرأ وصايا الرب، وبالوالدين إحساناً؟!.. أين هو إحسانك مع والدك المسكين؟! .. كافر أنت .. وملحد .

- .. .. ! !((صمت)).

- لا بأس. اسكت طويلاً .. لا أدري أين سمعت أن السكوت دالّة من دالات التأمّل .. اكتب .. محاولة خلط أوراق الدنيا .. محاولة تخريب الذات العامة لقاء سيادة الفعل الخاص.

- ... ... ((صمت))!!.

كانت عينيه تقدحان غضباً، وكان يحاول زجّي وسط زاوية استجابته التي بدت لينة مثل طين صلصال، كنت أعرف أساليب هؤلاء المحقّقين التي تشبه إلى حدّ بعيد أساليب كهنة المعابد .. أجساد ملساء أفعوانية، تنساب مطلقة هواء فحيحها بإتقان ودربة، تجعل أقوى المخلوقات شكيمة، تسقط في تلابيب ريبتهم وأغراضهم التي لا تنتهي قطّ، ما إن تحطّ قدميك عند باب الغرفة الحمراء حتى ترمي إنسانك وراءك، وتحتاط لأسئلة الذئاب التي ستُرمى إليك مثل عظام الجيف، تبعد الغريب منه، وتتابع أغراضه، ثمة أغراض قصية الأبعاد، أغراض تغوص سحيقاً، في بحار اتهاماتها، تجد نفسك من خلالها محاطاً بدائرة من الأخطاء التي ربما لم تكن تعي أسباب بروزها إلى السطح هكذا.

قال: _خذ الأوراق البيض، وهذا القلم، وسأرسل بطلبك غداً.. اكتب ما تفكر به، وأوصيك إن كان عقلك نظيفاً، كنا لك أصدقاء! ورويداً، اختفى صوته وراء حجب البوابات، اندفع الباب الأول، وأزّ

مكتبة الفكر الجديد

الثاني، وصرّ الثالث مطلقاً رياح النفتالين، كانت العصابة الوسخة، تطلق ريحاً زنخة، جعلتني أحاول زحزحتها عن ضوء عيني، لا أدري من أين يأتون بهذه الخرق المنقوعة بزنخ المرق ودسم روائح الكلاب، اصطدم جسدي بالأرض، واستقرّ رأسي مرتطماً ببرودة صلدة، ظلّت حواسي للحظات، لا تعي ما حدث، كانت الأرض تتحرك كمَن أصابها زلزال، ورأسي يعجّ بالاضطراب، ولساني يغور في توسّلات صمته، ثمة لحظة... لحظة واحدة من عمرك كله، تكون عاجز تماماً عن فعل أيما شيء، تشعر أن ليس ثمة ضرورة للمقاومة، كانت أمي تجلس ليس بعيداً عني، وكان أبي يرقبني بعيون من حزن، فيما ظلّت جدتي تلوذ بصمتها. حقاً؛ لقد بنى والدي غرفة طابوق ثانية، وأتم عمي بعد مدة بناءه، كنا سويا. دوماً ثمة ما يجعل الصمت وهج قلوبنا، ما كان رأسي يصدّق أننا قادرون على أن نعيش، ونمارس حيواتنا دونما صمت، ذهب عمي، وذهبت إلى حيث آلاف الإعلانات المدوّية، كنا نبحث عن زمن للقاء.. لكن الحروب ما كانت تسمح بهذا.، كان يترك عند زوجته ورقة فيها من الوصايا أكثر مما فيها من السلامات والتحايا، وكنت أترك له عند أمي أوراق، فيها حكايات عن أشياء، كنت أعتقد أنه لن يعرف عنها شيئاً، جعلتنا الخنادق، وعطن البارود، نفتح عيوننا على ذهول مريع، وعلمتنا فن الإنصات والتمييز، كانت رؤوسنا تتعالى لحظة يبدأ الدوي، وتمتلأ السماء بالانفلاقات، ومشاعل التنوير، وبهدوء؛ تتحول قدراتنا إلى فعل من الخوارق، تشعر أرواحنا بالأذى والأمان، فتنقبض، وتسيح في قلب الاستذكار، أكتب لعمي عن محنة زمني الذي ما عرفت منه سوى رفقة الموت.. وأسأله إن كان قد عرف شيئاً ما عن عمره المتشظّي، إن كانت الحياة قد منحته ما يحمله رأسه، فيردّ بنصف سطر.. لا.. أبداً؛ لن تمنحنا الحياة ما نريد!!.

مكتبة الفكر الجديد

أظل أبصر السطر، أسحله ورائي، حتى وأنا أخطو باتجاه الأرض الحرام، أرقب ليل الحراسات، وعواء الكلاب التي تذأبت، وامتلأت كروشها ببقايا الجثث البشرية، أحدّق في ظلام الخطّ الفاصل بين الموتين، وأحسب متعمّداً اللحظات التي تفصلني، تفصلنا عن الموت، نكوّر أجسادنا المهدودة من التعب، ونظل نترقّب، ولحظة ينطر الفجر، نتصوّر أن مئات الديكة بدأت تصيح، فتمتلأ نفوسنا بحبور، وننهض منسحبين، وثمة شفاه ترتّل ما يمكن أن تحفظه من أدعية الحفظ، كان عالمنا ينحصر بين هاتيك السواتر والهجومات، وها هو ينحصر بين الغرف الحمر.. ولا أدري غداً بماذا يمكن أن ينحصر؟ ثمة الكثير من الجدران تشيّدها أرواحنا، جدران تزداد كثرة، كلما فكر أحدهم برفع أحدها عنوة.. وثمة الكثير.. الكثير التي تجعل من أحلامنا مقابض لسجون أزلية، مَنْ إذاً اقام أول سجن في التاريخ؟ وكيف تسنّى له عزل روح الانتماء، ومن أجل ماذا؟! تزيل يدي جدار الرحم، ولحظة تلفحني ريح الكون، تشعر نفسي ضيقاً، وتصطدم عيناي بظلمة المكان، وما إن أفتحهما حتى يطالعني جدار صدر أمي، وجدار الكاروك الذي أنام فيه، وجدار العصبة التي يلمّون رأسي بها، وجدار الغرفة التي يعيش أهلي في نهارها، وجدار المدرسة، والفصل، وجدار الكتاب، وجدار التقاليد أو.. أو. . .....!!

كان عمي يتابع حركة وحدتنا، ويعرف إن كنتُ سأسهم بالهجوم القادم، أم لا.. وبغتة؛ انقطع عني.. طارت قصصات الورق التي كانت تحملها رياح البارود إلي بعيداً، وساعة حطت قدمي عند بداية شارعنا، عرفت أن عمي.. الحلم الذي كانه عمي.. صار مجرد يافطة سوداء، ظلت معلقة حتى استحال لونها إلى تراب، واستحالت حروفها إلى إهمالات ونسيانات، كنتُ لا أطيق النظر إلى وجه زوجته التي كانت

مكتبة الفكر الجديد

تتحاشى النظر إلي، جلّلها السواد، وانكفأت على أولادها الذين لم يعرفوا بعد أن الحرب صيّرتهم آثاماً وخطايا، وترقب لدرب لن يروه، ممتلئاً بنور الجسد الذي ينتظرون، كنتُ أحاول مدّ يد العون، أراقب مدارس الأولاد، وأهتمّ بشوؤن حياتهم، أو أعرف أن زوجة عمي إنما يعذّبها ليل فراشها البارد، وهي ليست سوى مهرة غير مدرّبة، رمت بها الأقدار أمام ماكنة الحرب، ما إن أحطّ قدمي عند باب دارهم حتى تبشّ واقفة، وثم طيف خفر من ابتسامة أخّاذة، ترتسم فوق الغمّازتين، ابتسامة ما تلبث أن تتّسع، وهي تأخذ بيدي إلى ستر الغرفة الساكنة ساعة إذ، هدوء يجعلني أرفع رأسي إلى صورة عمّي المعلقة فوق الهامات، فأراه يبتسم لي، عمّي كان دائم الابتسام، دائم الضحك، دائم الاختلاق لمواقف كثيراً ما تجعل أخوته يفرقان بضحك متواصل، أغمض عيني محاولاً استحضار بقايا فنائه، لكن الزوجة تهزّني بلطف، وتقول بصوت تشويه المخاوف -- كيف أنتم هناك ؟! !

كانت الإجابة تأكل جمجمتي، فما الذي يمكن ان أقوله عن هناك؟!!!.

أوَ أحدّثها من غربان الجيف التي تزكم الأنوف؟! عن الجثث التي لا يمكن فصلها عن بعض، الأتربة التي تغطّي الرؤوس، عن عواء الذئاب التي تسور الأرض الخرام، عن الرقاب المرتجفة هلعاً تحت حرّ القيظ، كانت تبحلق في لهاث صوتي، وتلحس لسانها باشتهاء، وتسعى مثل قطة مدلّلة لتقديم خدماتها إلي، وتصرّ على أن أرتاح عندهم، وأن أنتظر الأولاد لتناول الغداء، كانت تجتهد في إرضاء رجل محارب، ربما يأخذه الموت مثلما أخذ الآخر من بين يديها، تضع صينية الطعام، وتبدأ بحثي على الأكل مثل ولد مشاكس، تحسّه أمّه جائعاً، تلقّمني بكلتي يديها،

مكتبة الفكر الجديد

ولحظة أتوقّف ترمقني بنظرة شزرة، وتحرّض أبناء عمّي علي، فيعجّون بصياح متوسّل، ما يلبث أن يجعلني أعاود الطعام، كانت أيامنا تمرّ سريعة، وأيامي تذوب مثل قطعة ملح وسط نار متأجّجة، أحسّ روح عمّي تخفق بين جوانحي، فأنقل بصري إلى كتبه المصفوفة بترتيب متسلسل، لا يمكن أن تمتدّ يد أحد غيري إلى هذه الصفوف من الكتب حتى يوم كان عمّي حاضراً يرعاها، كان يطلق لنفسه خيول الضحك، وهو يراني أتلمّس حوافّها أولاً، ويقول _ ما الذي تريده من وراء هذا التلمّس.... الكتاب هو الكتاب؟!

- أصابعي ترتجف عند الكتاب الذي تحتاجه نفسي ؟.

- أوَ يحدث لك هذا حقاً ؟

- تشعر روحي بالاضطراب.. وتتنمل أصابعي، وأحسّ قلبي ينشلع من مكانه!!

- أوَ مجنون أنت..؟!!

- ربما .. ربما، أيها العمّ الطيب!!

- عمّ .. أوَ بقيت للعمومية معنى بعد هذه السنوات.. رافقتك صبياً، وها نحن نقضي سنوات هتب. لمَ تزوجت أنا، ولم تتزوج أنت؟!!

- تزوّجت أنتَ؛ لأن أمك وأخاك الأكبر أرادا لك زوجة.. أما أنا؛ فلا أحد يريد لي هذه الورطة الطيبة.. ربما كانت أمي تراني ولداً ما زال يحبو.. أما أبي؛ فلا يريد أن يقتنع برجولتي حتى بعد أن رأى سمرة جسدي!!

- لا .. نعم، لا أريد ... في الرأس مشوار طويل علي أن أمشيه، لكنها الحرب أوقفت أحلامي عن الانهمار.. أعترف لك أنك جعلتني أعيش تجربة حادة..

مكتبة الفكر الجديد

- أقسم أنه تصوّري ذاته!!

- وما دمنا نشعر بذات التصوّر.. فإني أريد منك شيئاً!!.

- ماذا ؟

- وأنت هناك.. دون مثل هذه المشاعر، صفها بدقّة العارف، حاول أن لا تزوّق كلامك بتواصيف اللغة التي لا تعني شيئاً.. عند الرصاص، تتحوّل اللغة إلى شيء، لا معنى له.. وجود ثانوي قد لا ينفع تحت هول العاصفة!!

- بلى.... بلى، أيها الولد الذي صار يتحدّث بلغة العلماء!!

- أين نحن؟! وهذا، يا عم ... نحن مجرد حطب يابس.. يحاول الإمساك ببقايا الأيام، علّها تسدّ عليه رمق حزنه وخوفه وأساه!!

- أوَ تحدّث والدك بمثل هذه الأفكار؟

- والدي؟!.. أوَ تريده بأن يتّهمني بالجنون.. جدّتي أكثر صلاحية لسماع مثل هذه الأفكار.. الفرق شاسع بينكما.. أحياناً؛ أشعر أنك أخي، لا أخاه.. وأن جدتي أمي، لا أمه!!

- لا فرقَ، أنت أخي أيضاً!!.

- أخوة وهيامات شوارع.. أنت الذي دفعتني إلى كل هذا الحزن.. رميت بين يدي كلمات من نار، وقلت لي اقرأ .!!

- وما الذي يمكن أن نفعله؟!.. لن نقدر على شيء..!!

- لمَ ؟

- لأنها الحرب.. والحرب لا يمكن لأحد أن يسألها لمَ تأخذ أعمار مَنْ نحبّ. ما أتعس إنسان لا يقدر على السؤال..

- أنا أختلف؟!!.

مكتبة الفكر الجديد

- تختلف بماذا؟!.. بالسؤال، بهذا الرأس الذي عمرته الكتب والحياة بمئات الأسئلة.. مَن أنت؟ وإلى ماذا تمضي بك الخطوات؟! .

- إنك تأخذني إلى زوايا، لا أريد سكناها!!

- أنت.. أنت، يا ابن جدتي، أخذتني إلى تلك الزوايا، وتركتني هناك، خائفاً أترقّب، وأبصر ما كنت لا أريد إبصاره.. وبعد أن وجدتك تهجر الزوايا حاولت وها أنا أراك تنفر هارباً!!

- ليس هروباً.. يا ثعلب.. بل هي محنة الخوف.. أوَ تدري ما الذي يُتعب رأسي؟!!

- نعم.. أكذب إن قلت لك لا أدري.. أن تذهب، ولن تعود.. أن تترك وراءك هذه العصافير التي لم تتعلّم الطيران بعد .!!

- لا أدري ما أقول.. كلّ ما قلته كان عليّ أن أقوله أنا؟!!.

- وما الذي منعك، وأنت باقر لبّ المعارف؟!!

- يحسّ العقل أحياناً بالعجز.. يتوقّف عن إدراك معنى السؤال وقوة الإجابة.. حين يكون الفعل بحدّ السكين، لن تقدر العقول على السياحة في رياض الاختيارات!!.

- فكيف إذن، والفعل بحدّ مدفع الهامز ودوي الطائرات وأزيز الرصاص.. كيف كان عقلك يعدو؟

- لن أفعل غير الانتظار.. كنت أحسّ بياضاً عجيباً.. حتى أنت صورتك أحياناً تضيع في غيم البلوى.

- وغيري.. أوَ لم تتذكّر غيري؟!.

مكتبة الفكر الجديد

- هم.. ما كنت بقادر على تصوّر وجوههم. يا لها رفقة طيبة.. القاتل يسكن قبر قتيله؟!!.

- إن حدث هذا.. فليس أجمل منه.. شاهد ما إن تفتح عينيك بعد الموت حتى تراه إلى جانبك.. تتذكّر وتتعجّب حضور مثل هذا الشيء.. هي الحرب إذن، تلاحقك أينما تمضي حتى ساعة تكون قريب من الرب!!.

- ما الذى تفعله عندها.. أو تسكت أو قبرك مسكون بأدوات الحرب.. القبور دار استراحة أبدية.. ولا يمكن لأحد أن يسكنها غير صاحبها الأساس!!

- قد أسكت، وأحتفظ بموتي كذكرى.. أراه كل يوم، وأتذكر أولئك الذين فوق!!.

- يا لها من مهزلة!!

- أوَ قد لا تحدث أبداً!!

- في الحروب، ثمة مفاجآت لا تخطر على بال.. أشياء لا يمكن لعقل سوي أن يصدّقها.. لكنها تحدث، وإن حدثت، دخلت قاموس الاعتياد، وصارت بعد حين مجرد ذكرى عابرة، وربما لا أهمية لها!!

-- وماذا عسانا فاعلين؟

_ عدنا إلى لبّ السؤال، أكبر الأفعال وأعظمها تتوقف عند لحظة الموت.. في رأسي، سؤال غريب، خطر لي اللحظة؟!!

_ قله.. ولنخلص ؟

- صعب.. ترتيب العقل أمام سؤال كهذا؟!!.

مكتبة الفكر الجديد

- دونما ترتيب.. أطلقه مثلما تطلق حمامة من وكرها؟!!.

- أوَ تتصوّر أن الأسئلة حمام يمكن إطلاقه ساعة نشاء؟!!

- بلى.. ثمّ شبه بين الحمامة والأسئلة!!.

- شبه.. كيف؟! !.

- كلاهما يريد اختراق فضاء الحرية.. كلاهما يريد إجابة لهذا الشسع المترامي الأطراف.. كلاهما لا يريد الاستقرار في مكان واحد حتى الختام!.!.

- صورة جميلة أخرى.. أراك تشرب من الشعر رغم ما تحمله من كوارث؟! _ ومَن قال إن الشعر ليس ضوءاً للكارثة.. لا تُنسيني السؤال!!

- غريب أن تحتاط بسؤال لنفسك.. لا، هذا لا يجدي.. أيها العم المبارك.. أتدري بماذا كان يفكر الجليل، لحظة واجه السيف؟!.. أوَ كان يفكر بأنه فقط؟!.. أم أن الرأس المليء بتراتيل أناه كانت تحوقل.. أو استسلم للحظته الحاسمة.. أحسّ أن لاشيء أبهى من هذا.. مفروض عليه أن يغادر مَنْ يحبّ، وهو المعنى بالحب!!

- أوَ كانت عودة أم رحيل. .؟! !.

- مالك، وهذا السؤال الغريب؟!!

- مالي.. أريد لحظة يجيئني الموت.. أحسّ وأفعل مافعله الذبيح المبارك؟ اختيار صعب.. ومعرفة أكثر منها صعوبة! !.

- منذ بدأ طفولتي.. كان صوت الملاية يملأ أذني بالشجن.. ويجعلني أذرف الدموع قبل اختراق أستار المعاني.. كنت أرسم كل شيء

مكتبة الفكر الجديد

فوق بياض عقلي، ولحظة أراه يخرج.. بسود هيبته... تتكوّم الدنيا كلها بين يديّ!!

- ربما .. بحكم ترديدها أزمان طويلة؟!..!.

- أوَ نعرف كل ما تردّده الآن زمان طويلة.. إن للعقل أسراراً دفينة.. صوراً، لا يمكن لغير العارف اختراق كنهها .. أبداً ما تسمعه، لا يملك ذات التطابق.. لأن الجليل الوحيد الذي يمكنه أن يقول ما يطابق فعله!!

- ذاك شيخ غير كلّ الشيوخ! !.

- لن أتصوّره سوى فتى يرفل بالتحديات، ويطلق لاءاته بفخر رجولته! !

-هذا رسم القلوب التي وشمته منذ الأزل!.!

- وهذا ما أريده لنفسي، وشم فوق قلب.. لن يصيبه الزوال.. قلب يتجدّد كلما تجدّدت الأعمار!! _ إن لك أحلاماً غريبة!.!..

- وما فائدة حلم يتطابق والواقع.. كيف يمكن أن نسمّيه حلماً، إذن.. الأحلام افتراض لواقع آخر.. صفة أخرى نسعى إليها، ما إن نغمض مباصرنا! !.

- لكم جعلتك الحرب كبيراً! ! -

ولكم أشاخت الحرب رأسك.. أشعرك أحياناً تجوس في فراغات الرضا . تتطاعن والواقع، وتبحث في جرف أيامك عن أشياء بسيطة .!!.

- وما الذي تريدني أن أفعل؟!.. لابد أن أجوس بهذا.. إن لي زوجة أحبّ، وأولاداً صغار، وحياة يجب أن تُعاش!!.

مكتبة الفكر الجديد

- أ أوصلتْكَ الحرب إلى هذا الحد؟!.

- وأقسم أنك ستصل ذات يوم إلى هذا اليقين! !

لم يقدر لساني على الاستمرار، كان لسانه يملأ رأسي بالمخاوف.. أي يقين هذا الذي يمكن أن نصل إليه، أو تراه يقين السقوط في دائرة الانتظار الغريب؟!! كانت زوجة عمي تعيش اضطرابي، وهي تراني أسيح في بحور من الأفكار والجنون، أخذت بيدي إلى عمق دفء يديها، وربتت بأسى.. كنت أشعر إزاءها بحنو غريب، اقتراب من ضفاف العم الذي غاب. مضى قبل أن يترك لي حتى وصية صغيرة، قلت وأنا أجمع وجعي.- لابد أن أذهب!.!

رمقتي المحقّق بنظرات الاستهجان، كان يعرف بحكم خبرته أنني مريض يهذي، حين فتحت عيني كانت الجدران تمور بصور غريبة، أي معنى لهذا كله؟ والى أين أوصلتنا عذاباتنا؟. كانت السواتر تضيع في لجج الأكاذيب والأرواح تصبح مجرد سلم، يصعد عليه القتلة، ساحت فيوض دموعي، ولقيت بنفسي إلى أنهار الصمت.. كان صمتي يهين وجعي. وهو السيد المسيطر حتى اللحظة القادمة.. اللحظة التي لا أدري كيف ستكون، ولكني موقن أني سأعيشها بكامل تفاصيلها.. لحظة قد تبدو غريبة.. ولكنها على أية حال ستصبح بعد حين تشبه هاتيك اللحظات التي مرّت، والتي كانت غريبة مثيرة للاشمئزاز قبل أن تجيء.

مكتبة الفكر الجديد

- 6 -

بغتة، ودونما مقدمات، ماتت أمي، لمت نفسها، وباعت قبل ليلتين من موتها ماكنة الخياطة، وأوصت أختي أن لا يشرف أبي أبداً على دفنها، قالت _ دفني بسعر ماكنة الخياطة !!. بغتة، رحلت إلى اللاشيء، تاركة خلفها نواحات، لا تنتهي، وبنات اغتسلت وجوههن بحزن دفين، أودعت الحصان الذي كنته عند بوابة محطة التعبئة، جاراً خلفي توسلات، لا تنتهي، كان رأسي يمكنه أن يصدق أيّما شيء سوى أن لا أسمع صوت أمي، وهو يرفّ بين فضاء الحجرتين، لا أسمع صوتها الندي مثل حبة عنب سوداء، أن لا أعيش تحت عطاء عمرها الذي كان يعطي لحياتي معنى، كانت تضع رأسي في حضنتها متأمّلة عذابات روحي، وهي تطير باتجاهات المجهول، تئنّ متوجّعة، ما الذي علمها هذه النواحات النابتة في لبّ الأسئلة، كان صوتها يخترق الجدران؛ ليعبر بعد صمت فضاءات ملوّنة، فضاءات تعمر الأرواح بنجوم وشروقات لشموس حادة الضوء، كانت أمي هتب بنار الخيبة، كان قيامتي، فما الذي أفعله الآن.؟!!. دخلت باحة الحوش. وبقيت أصغي. كان نشيج أختي متقطّعاً، فيما جلس أبي، كان يضع رأسه بين كفّيه ويطرق مراقباً الدودة التي كانت تسحل وراءها غيوماً سوداً، خطّت برتابة خيط طويل، ينتهي عند التّنّور، ظلّت حواسي راكدة، فقد اعتدتُ بكاءات أختي ونواح لسانها، واعتدتُ إطراقة أبي وسهومه الذي يشبه سهوم ميت، لكن الذي لم أعتده غياب أمي.. ضياعها في صمت ارتحالها، لحظة أحسّ والدي

مكتبة الفكر الجديد

حضوري، رفع رأسه، فمددتُ يدي بالدراهم السبع، تناولها مني بحياء، وظل ينظرها لزمن طويل،، كان الوجه الدامع يرقب الدراهم، لكنه ما لبث أن شعر تعباً، فقبض بقوة، وببطء، دسدها في غياهب جيبه، كنت أحدق إليه، وثمة عمر من المخاوف يتبدّد، عمر مقتول بالأسى، فجأة صرخت أختي، تبعتها صرخة ثانية... وثالثة، وما فتأ البيت أن امتلأ بالصراخ، كان عمي ينظر إلي صامتاً، التفت مذعوراً، فخرجت جدتي سابحة في ماء مآقيها، وما إن راتني حتى ارتمت بين يدي، أخذني عمي من بين أحضانها، وهو يحوقل، ونهض أبي واقفاً .. ورويداً، ومثل دجاج مذبوح، امتلأت الباحة بالوجوه الكدرة، اللاطمة، كانت أختي تلوذ بأذيال الحائط، ولحظة اخترقت يدي عمي، تبعتني راكضة، كانت تعرف ما الذي يعنيه الجسد الراحل، كانت أمي تبصرني بظلام وحدتها، وكنت أشعر ضياعاً أبدياً، تلمّست الجسد المضمّخ بالعطر، وانغمرت بشذواته، التي نقلتني إلى بعيد .. ما الذي كانت تفكّر به؟.. وماذا كانت تقول لنفسها،؟ هزّتني أختي بهدوء، وجلست جدتي إلى جانبي، وهنيهة رفعت رأسي، كانت أمي تخترق البوابة.. لتغادر.. تغادر بصمت، لم يفه أحد بشيء، ظلت الأبصار تحدّق مرتجفة، وبسملت الفواه محاولة تبرير ما حدث، كنت الوحيد الذي شدهته الرؤيا، فانغمس في دعاء طويل ،، قلت متسائلاً:_ ما الذي حدث؟!!

دثّرت جدتي جسدي المهزوم أمام الحمى، وقالت: -لا شيء!!.

حاولت تحريك مفاصلي، فاكتشفت أن ثمة ما يحيلها إلى شيء صلب، تفحّصت المكان بوحشة. كان كل ما يحيط بي بلون البياض، لون شفيق، وثمة وراءه أسرة وجثث ساكنة، وخطوات تمرّ مسرعة، ولكنْ؛ إلى أين؟.. لا أدري. سكن جسدي، ومع السكون شعرتُ أن ثمة ألماً بدأ يسري

مكتبة الفكر الجديد

بين جوانحي، كان رأس أمي يتوسّد الأرض، وأشلاؤها موزّعة بين أكوام من الرؤوس، ظلّت لهاتي تطحن الكلام، وتحاول الولوج في دهاليز الرؤيا، كان حلمي يتلوّن بشتات الأحزان، عالم مريب، متذبذب. فجأة، انتفضت أمي واقفة، رمت عنها أكفان الموت، واستقامت مثل شجرة خروع، كان ظهرها قد تقوّس قليلاً، تقوّس من ينوء بأثقال، تفحّصت المكان بعينين منطفئتين، ما لبثتا أن اشتعلتاالمكان قفراً، والأشلاء التي كانت مشمورة قبل هنيهة، صارت مجرد قبض ريح ودوي، أوَ يمكنها التقدم مني؟! هدأ جسدي المائع وسط هذا الصقيع. أشارت أمي إلي، حاولت كسر أربطة وجودي، حاولت الارتماء بين أحضان تلك الهيبة الطيبة، لكنّ أكفاً قاسية خشنة أعادت وثاقي، أعادت حبسي بين أركان البياض الذي بدأ يحمرّ فجأة، كنت أسقط من علو شاهق.. علو مخيف، أحاول استنقاذ نفسي، لأسقط بيد التوسّل، ولكنْ؛ ثمة أياد خفية تسحبني إلى العمق، دوماً ثمة أياد خفية تقرّر ما تريد، وتلقي بما تريد، إلى ريح النسيان. تظل الحيرة أسير ارتباكك، وهلعك، تحاول إيجاد منفذ، لكنك تفشل، تغسلك رياح فشلك، ربما لأن نفسك لا تريد إدانة الروح، ولا تريد الروح إدانة الجسد، ويظل الجسد عاطلاً عن الحب دونما محفّز ودافع يدفعه إلى أمام، أجلستني أمي، فتحت عيني، أو ربما توهّمت أنني فتحتها، فشافت أمي تجلس إلي، تأخذ بأصابعي الباردة مثل ندى الفجر، وهي تبتسم، قلتُ:

- أين أنا ؟

قالت: _ أنت هنا . . معي ؟

قلت: - معك. . ولكنْ؛ أين ؟ ! !

مكتبة الفكر الجديد

قالت: - أوَ تريد معرفة المكان الذي أنا فيه؟!.. أوَ يهمك المكان أكثر مني؟!!

أطرقت رأسي للحظات ((أو هكذا توهّمت))، وظلّت هي تمسّد أهراف أصابعي، حتى شعرت أن ثمة حرارة بطيئة بدأت تسري في أعماقي، ساد الصمت لزمن طويل، كنت أستمع من خلاله لصدى أنفاسنا، وثمة نداءات تأتي من قصي المكان، أمسكت اليد التي أشعرتني بالأمان.. قلتُ: _ أين أنا؟ قالت: _ هنا .. معي!!

قلت: _ معك .. ولكنْ؛ أين ؟ !.!

قالت بصوت تعمّدته ليناً مثل ريحة بخور -- في البيت..؟

جالت عيناي، لتتفحّصا الغرفة التي اكتشفت صدفة أنها ليست من الطين، منذ بعيد هجرت التحديق بهذه الجدران، كان تثير غضبي واستهجاني بعد أن عرفت روحي أسرار الصالونات وأفرشة الندم الوفيرة والأجساد التي كانت تتزيّن من أجلي بملابس شفّافة لينة، مثل إمبراطورة، أقرأ ألوانها، و أركن عربة النفط عند الباب، حاملاً تنكة النفط .. هذا هو السرّ.. أدفع الباب الخارجي بصمت، فيستقبلني ضوء امرأة باسمة.. تتمتم من بين شفتيها بأحسن الأقوال، وتمدّ يدها بعد أن تتفحّص الجدران بحذر.. تمدّ يدها إلى يدي ضاغطة ببرودة صباحات الشتاء.. عند باب صالة الاستقبال تأخذ الصفيحة مني، وتعدو مبتعدة، فأتجه صوب الحمام، كل شيء مُعدّ، بجامة نوم معطّرة، وقينة كولنيا يشعّ شذاها مانحاً جسدي استرخاء لذيذاً، أرمي بنطلوني جانباً، وأندس وسط أنهار الماء، أظل للحظات منصتاً لهذا البهرج اللذيذ خاشعاً لمهابة المكان، كانت روحي تمرق وسط فضاءات النشوة والرجولة، ومثل

مكتبة الفكر الجديد

تساقط حبّات مسبحة، تساقطت طرقات خفيفة فوق قامة الباب، هدأ الصخب، ومن بين أنفاسي المتعطّشة، شهقت حنجرتي: _ ماذا؟

اهتزّ صوت المرأة: _ ألا تطلب شيئاً؟!

ركبت رأسي صفنة مفاجئة، وعام فوق قحفة جمجمتي ضجيج من الأسئلة، ما الذي يمكن أن أطلبه الآن.. وأنا في أدق حالات الارتخاء والسعادة؟!.

- انتظري عند الباب قليلاً... ربما أكون محتاجاً لشيء؟

ضحك الصوت الرائق، واهتزّ الباب ببطء، وما لبث أن انفرج عن قوام يهف بضوء غريب، كنت أحاول الإمساك بعري جسدي الذي أحسّ ارتجافاً خفياً، لم أعتد عرض جسدي أمام إنسان، كنت منذ صغري أرفض أن تحمّمني أمي.. أرفض السباحة بالشط؛ لأنه يحتّم عليّ أن أتعرّى.. لحظة مهينة أن ترى نفسك غاطة وسط مياه، وثمة امرأة من ضوء تبصرك، امرأة أخّاذة، ستكون بعد هنيهة وقت مثل قطة، تموء بين يديك، حاولت التقدم منها، لكن الماء بعدها عني، ناولتني المنشفة، ثمة ألوان من العطور بدأت تتسربل أرجاء الحمام، وداعاً أيها الفقر.. وداعا عربة النفط التي كنت ذات يوم، ساعة تدق في جيب السلطان.. وداعاً مقبرة الهنود التي أكلت أقدامي الحافيتين، وأنا أقرأ أسماء الموتى، وداعاً؛ لكلّ شيء، سوى ذاتي التي تلبّست ذات شهريار القاتل الذي سخرت منه امرأة الحكايات، نفضت نفسي.. وخطوت خارجاً بعد أن أبعدتها قليلاً عن فرجه الباب، كان جسدي قد لامس الجسد الفائر، فشعر قشعريرة واضطراب، كانت خطوات آلامي ترنّ في أذني، خطوات توغل مسرعة في دروب الخطايا، انبطح جسدي فوق الفراش الوثير، فاصطدم خوفي

مكتبة الفكر الجديد

بالسقف الداني بهدوء، كانت المروحة تدور، والجدار يتلوّن، أغمضت عيني، وفتحتهما على اتساعهما، أغمضتهما ثانية، فتململت أصابعي، ودبّ خفر حيي بين أوصالي-- ما الذي حدث؟!!.

لا شيء.. سوى أن عطر المرأة الحلوة، اخترق بدني، بدأت خياشمي ترتجف، وأذني تشعران وجعاً، وسيل من دفق دماء حارة، تلمّست المرأة رأسي بحنو، فأجهضت روحي ظلمة عيني، لا أدري لمَ تذكّرتُ شهرزاد .. أو كانت تمنح نفسها لقاتلها بطواعية أنثى تحب؟!!.

أغمضت عيني، فدار السواد ثانية، كانت حياتي تنتظر وسط ضباب كثيف، وثمة صراخ لمئات الإناث، لمَ كل هذا النواح؟!.. وما الذي يجعل هذا اللون غارقاً في إثم صراخه؟. كان جسدي محمولاً فوق خشبة عريضة، فيما ظلّت يدي تسبحان في فضاء السواد .....!! آه، أيتها الأيام، يا من سربتي، أعمارنا .. آه، أيتها المخاوف التي ما عرف الإنسان صحبتها .. تشعر أماناً، ولكنّ؛ ما تلبث أن تسيطر تحت ضغط الخوف الذي جعلني آخذ عمي، وأسأل.

- كان سؤالي مثل حدّ سيف، جعل أبي يرفع رأسه، ويقترب زاحفاً، وجعل جدتي تطير إلي بأجنحة من فرح، وجعل أختي وأخوتي الصغار يلقون أحزانهم بعيداً، ويهرولون بتجاه حياتي، قال عمي بصوت هادىء ودود :

_ لا تحزن.. إنه أمر الله؟!!

هززتُ رأسي، أ كانت هزة موافقة أم رفض؟!، أجلسني عمي ببطء جاعلاً ظهري يستند إلى الجدار، فغامت الأرض أمام باصري، اهتزت الوجوه، كان عمي يبحث عن لحظة هدوء، لكن البحث حطم جدران معناي، قالت جدتي، وهي ترش وجهي بحفنة ماء بارد :

مكتبة الفكر الجديد

- عندي لك ما يفرحك؟!!

رميت إليها بنظرة حب، وأحاطني أخوتي غير آبهين بنظرات أبي الذي احمرت عينيه، كان ينظرني خائفاً، فثمة ما يجعله حائراً وسط لغط من الهموم المتحفّزة للنقضاض، حدقت جدتي باندهاشي مأخوذة بالورد الذي رأته ينتشر بغتة فوق خديي، كنت أحاول اجتياز مدن الخراب التي حملتها الزمن طويل فوق كاهلي.

- ماذا يا جدتي؟!!.

رمقت جدتي والدي بنظرة حزن، فأطرق، وظل لبرهة يسلك حنجرته، مثل مَن يستعد لخطبة طويلة ضحك سريعاً، فلقد كان والدي يُتقن أيما شيء سوى أن يكون خطيباً، قالت جدتي وهي تعصر يدي كمن تهمس بسر عصي، وجدت نفسها مجبرة على إطلاقه. -عليك أن تترك المدرسة؟!!

رنّ السؤال فوق جمجمتي، أطلق أطناناً من الحديد، كانت المطارق تدوي، تضرب، تعصف، فلم يعد لهذه الحروف من معنى، مدرسة، ثم ماذا؟!... وما الذي أفعله وسط أحاديث المعلمين وسوم الكتب التي تبعث على الهزء بعد أن شافت العيون أشياء ،لا يمكن للمدرسة أن تضعها أمام باصري. ضحك عمي، وضربني فوق صدري برفق، كمن يحاول طرد مواجعي خالقاً مني رجلاً، يستعد إلى الدخول في قلب كارثة جديدة. لايدري إلى ماذا ستقوده، رفعت رأسي مستفهماً، وبحلقت عيني في كدرة الوجوه ء كان الوجه الذي غاب قبل ساعة يظهر بغتة.

مرسوماً فوق تقاطيع وجه أختي اللابسة لسواد أحزانها، بغتة عرفت أنها قريبة الشبه جداً من تلك الأم التي تركتني أجوس في تعبي،

مكتبة الفكر الجديد

ورحلت بعيداً، تاركة في شغاف قلبي ندبة من قيح وصديد، قالت الجدة _ المدرسة المسائية تفيد عمرك!!

قال العم _ أنا أدفع القسط الأول!!

قالت الأخت _ وأنا بقايا القسط!!

وقال أبي _ أما أنا؛ فله ما يشاء.. لقد قصّرت كثيراً بحقك، يا ولدي .!! قالت الجدة _ إنها ارادة الله!!.

قال العم _ عن أيّ إرادة تتحدثين؟!.. أبداً لم يكن الله مسؤولاً عن فقر أحد منا!!

جحظت عيني الجدة، وأطرقت مبسملة، فلقد تجاوز العم حدود معارف القاعدين، قال أبي أمراً!!

_ كفّ عن لغوك هذا.. الربّ هو الذي قرّر، ونفّذ!!

قال عمي بعصبية جعلتني أرمقه بغضب _ هكذا أنتم ليس أمامكم سوى طريق النار.. لمَ لا نلوم أنفسنا نحن الذين تركنا الفقر يسطو حتى النخاع على حيواتنا. سكت العم عنوة، كان قد رمى نفسه في بحور الاضطراب دون أن يدري، أطرق الأب حائراً، كان لا يعرف بماذا يمكنه أن يردّ، وإن ردّ أو يرضى ردّه رأس عمي، انفجرت مخاوف جدتي، وظلّت لزمن طويل تبصر إليه، وهي ملفوفة:

بأغطية الحيرة.. وببطء، نبرت بصوت ودود لامرأة كانت تخاطب فتى غريباً، يطالبها بأشياء خطرة ومخيفة.

_ لكم تشبه بكلامك هذا.. صوت أبيك.. مَن علّمك هذا الكلام؟!.. كان دائم الترديد له.....

مكتبة الفكر الجديد

حتى ملأ رأسي ورؤوس الرجال.. لم أرضعك أنا حليب هذه الأسئلة.. لم أرضعك سوى الحب، فكيف جاء الهذر إليك؟!!.... متابعة الحديث الذي كان يمشي فوق لسان جدتي، مشى عمي متهادياً بارتياح واضح، رفع الأب رأسه، وتزحزح الأخوة لائذين بأذيال الجدة، وحدها أختي أخذت بيدي محاولة الاحتماء بي من الخطر الذي استشعرته» كانت تعرف أن الأيام التي أخذت الأم إلى جوفها، لا يمكن أن تبقي شملنا، كما هو، ظل العم يلعب بحصى رغباته» كان لا يريد معاكسة أمه.. وكان يرغب بإثارة كل تراب الأرض؛ ليحدث عواصف من الاضطراب الذي يريد!!.

قال أبي، وهو يؤرث سيجارة _ كفاك ثرثرة...!!. قال العم، وهو يطرد دخان السيجارة بكلتي يديه.

_ هكذا كان يقول جدي لأبي.. ثرثرة.. كل ما يمكن أن نخرجه عن قانعة هو الثرثرة!!

ماذا؟.. الحديث عن الخبز وطين الشوارع.. أو النساء المفترشات لطرقات الأسواق، وهن يعرضن أرذل البضائع، وأخسها!! بكت جدتي بصوت واهن أثار استغراب روحي التي هجست أنه ليس صوتي.

_ ما به؟

رفع رأسه، وقال -- ماذا؟!!

كنت مخنوقاً بعبرة جدتي التي رمتني بنظرات حب.. إلى أين أوصلته وحدته؟

قالت جدتي بسعادة _ إلى ما يمكن أن توصلكم إليه وحدتكم.. أنتما معاً شبيهان به.. أنت أكثر قرباً وأكثر جنوناً.. ولربما ستكون أكثر ذكورة منه؟

مكتبة الفكر الجديد

ضحك أبي، وأطرقت أختي حياء، وأبصرني عمي بعينين مشتعلتين، فلقد انتبه إلى سرّ رجولتي التي ظلّت عصية على مداركه.

_ أو كان جدي فحلاً، يا جدة؟

كيف يمكن لامرأة مثلها أن تجيب، هي التي لم تره غير سنوات متقطعة الأوصال، كانت لا تعرف غير ريح أنفاسه، وخفق عباءته التي تشبه خفق أجنحة طائر مضطرب، ظلّ عمي ساهماً، وظل أبي يلاعب أخيلة فحولته، ولاذ أخوتي بالصمت، فليس ثمة ما يغنيهم من حوار كهذا بعد أن خيم الموت فوق رؤوسهم المحشوة بتراب الحزن، حاول عمي ردم الهوة التي أحدثها مرضي، أغمضت عيني، ونمت.. نمت عميقاً، فليس ثمة أكثر من الحزن مدعاة للهروب باتجاه النوم، كانت الوجوه التي تحيطني، تلاعب مخيلتي، لكني مالبثت أن رحلت باحثاً عما يُسكت وجعي، كان جدي يأخذ بيدي ((جدي الذي لم أره من قبل)) وجه محاط بهالة من الضوء ولباس أبيض ملفوف بشكل هندسي غريب، قال بصوت يشبه صوت أبي:

_ ما الذي جاء بك؟!!

قلت مدارياً خجلي: _ السر؟ _ سر ماذا هذا الذي جعلك تجيء؟

_ أنت.. سرك أنت؟!!

حدق بي بعينين صافيتن لهما بريق اللؤلؤ، ونظر إلى مكان وجوده، كان ثمة ستر من البردي ،وأصوات متنافرة تعلو وتهبط رويداً، وثمة أرض بلون ازرقاق السماء، كان الوقت يحيى رأسي، تفحّصت السماء، فوجدت آلافاً من النجوم المتلألئة يستقرّ وسطها قمر باستدارة كاملة، فيما كانت الشمس تجلس غير بعيد عنه، وثمة خفر أنثوي يستر جدائلها الفضية، عالم غريب هذا الذي يسكنه جدي، قلت :

مكتبة الفكر الجديد

_ أو هذا الذي هجرتنا من أجله؟

قال: - لكلّ منا حلم يسعى إليه، يا ولدي.!!

قلت: - وأين هو حلمك هذا؟!.. لا شيء أرى سوى أرض زرقاء وماء وسماء غريبة.!

قال: - هذا ما كنت أريد!

قلت: - بل كنت تريد ذهب التل!!

قال: - لا .. عقلك أوهم لك السر؟!!

قلت: - أصدق، إن أنت أصدقتني الرؤيا!!

قال: - كم أنت قريب مني؟!.. وكم أنا بعيد عنك؟!

قلت: - أنت تسكن معي.. منذ مطرت المرأة التي تنتظر هناك رأسي بحكاياتك، وأنا أدفنك في لب قلبي، ما فارقت يوماً شكل رجولتك!!

قال، بصوت حزين :

-أو مازالت تنتظر؟

قلت مداريا حزنه: _ ومَن إذاً قادر على منعها من الانتظار!!

قال: _ هم.. هم كان عليهم مساعدتها؟!.

قلت: _ لا أحد بقادر على كسر انتظار امرأة تحب حتى وإن كانوا فلذة الكبد .!!

قلت: - ليس ثمة أحد سواك؟!!.

مكتبة الفكر الجديد

قال: _ ألهذا جئت؟

قلت: _ بل جئت لأعرف السر الذى جعلك تجيء إلى هنا؟

قال: _ انظر.. دقّق عينيك في الأشياء، وستعرف!!

فتح: _ ماذا يمكنني أن أعرف؟!.. لا شيء سوى صمت وشعور بالوحدة.

قال: _ أو أنت غير راض عن هذا؟!!

قلت: _ ليس ثمة إنسان يعشق وحدته.!

قال: _ ما فائدة واحد مثلي يقول.. ويقول ولا أحد يسمع؟!..

قلت غاضباً: _ لكنك تركتها وحيدة!!

قال باشاً: _ بل تركتها وسط مَن تحبّ: أولاد وبيت وأهل ينشدون رضاها!!

قلت: _ أو تظن أن المرأة ترضى بهذا بديلاً عن الحب؟!.. أو قالت لك معارفك بهذا؟!!

قال: _ الرجل - يا ولدي - بغتة يشعر أنه صار سلعة زائدة.. لا ضرورة لها .. بغتة يتلبّسه هذا الرأي!!

فيصبّ حزنه فوق غطاء أوهامه، ويستتر وراء حجب من الحجج؛ لكيما يبتعد . ثم ماذا.....؟!!

بعد أن يتجاوز الإنسان منّا الخمسين يصبح ليس ثمة ضرورة للحب.. والأبوة .....لا ينشد الإنسان وهو عند بوابة هذا العمر سوى السلام، أو ....!!

مكتبة الفكر الجديد

قلت معلناً احتجاجي: _ وأنت لم تجد سلامك هناك، فجئت هنا؟!!

قال: _ لا .. بل لم أجد سلامي أبداً.. وحدتي وضعتني عند مفترق طرق.. خطّان.. اكتشفت صدفة أنهما لايوصلان إلى سوى حقيقة واحدة ... العزلة ...!!

_ العزلة ..... الإنسان يكره عزلته!!

قال: _ هذا وصف طيب ودقيق.. العزلة الإنسان يكره عزلته.. بلى أكره عزلتي، ولكني مجبر على ممارستها، مجبر على أن أُبقي نفسي لنفسي.. ما الذي كان يحدث لو أني جلست هناك، وانتظرت؟!

قلت: _ لا شيء..!!

قال: _ بل لابد وأن يحدث شيء ما! قلت: _ ماذا؟

قال: _ أبسط ما يمكن أن يحدث أن الإنسان يتعفّن.. إن لم يجد ما يقول... أو مَن لا يسمع إليه .... يتعفّن لابد وأن يصير مثل دودة قذرة.. كلا الطريقين يوصل إلى نهاية واحدة!!

قلت: _ وما فائدة أن تبقى هنا؟!.. أليس هذا عفناً؟!!

قال: _ بلى، ولكنه عفن الاختيار.. ولسوف أجعلك ترى.. وتقرأ.. وتعرف؟ قلت: _ أو ثمة غير هذا الذي عرفت ورأيت!.

قال: _ أو تعتقد أن رجلاً مثلي لم يترك أثراً يدل عليه إذن ما فائدة الأفكار التي يحمل؟!.. ما فائدة أن يكون إنساناً؟!.. هذا هو القول الذي جاء بي إلى هنا.

مكتبة الفكر الجديد

انسحب الضوء من بين يدي الجد، وبدت صور الأشياء الزرق تنطفئ، كان وجهه قد أربد، وظهر القمر فوق تقاطيعه الحادة الملامح.

تجعدات لفتت نظري إليه، كان ثمة شبه بين الرجل الواقف وأبي الذي تركته، لا أدري أين أخذ الجد بيدي، وخطى بخطوات ملكية، كنت أسمع صدى وقعها بين الأرجاء» كان يستند إلى عصا من الأبنوس الصفر التي أخذت شكل حصان متحفّز، قلت متسائلاً:

_ إلى أين ترانا ذاهبون؟

قال وهو يدفعني أمامه إلى عمق بوابة انفرجت فجأة، اهتز رأسي هلعاً، وبدأ جسدي يرتجف، فثمة ما جعلني أعصر جمجمتي موقناً أني رأيت مثل هذه البوابة من قبل، حديد لا صف وامتداد خفي إلى ما لا نهاية، أين تراني رأيته؟!.. قال الجد، وهو يشير إلى الجسد المسجّى.

- انظر!!

قلت والخوف يسيطر عليّ، محيلاً روحي إلى غبار، ما لبث أن تناثر مالئاً الأرجاء. _ هذا أنا.. نعم. هذا أنا؟

ضحك الجسد، وأشار بعصا الأمبوس، فوقف الفتى متصفصفاً، وعينيه تبلبصان، كان يبحث عن ومض وسط الظلمة التي تسيطر على أعماقه، حاولت التقدم إليه، واحتضانه، فلقد كنت أشعر أنه بعضي، أو هو أنا على أدقّ اعتبار، حرك الجد عصاه ثانية، فقال الفتى، وهو يلتصق بي مثل شعلة ضوء:

_ أخفت؟!!

تمتمت شفتاي: _ نعم!!.

مكتبة الفكر الجديد

قال الفتى وهو يبعد الجد بحب: _ وما فائدة أن تجيء؟!! تمتمت شفتاي: _ يتعبني أن أظل دون معرفة السر؟!!

قال الفتى: _ ما فائدة أن تعرف سراً مضى؟!.. ستكون لك أسرارك ذات يوم!!. تمتمت شفتاي: _ لكنه السعد الذي سيعطي لحياتي معنى!.

ضحك الجد، فقال الفتى: _ لا معنى للسر.. سوى أنه سر!

تمتمت شفتاي بغيظ: _ أنت تريد إعاقة أملي!!

قال الفتى: _ أنا .. مَن أوحى لك بهذا؟.

تمتمت شفتاي: _ إن عندي ما يميّز الإمارات والمعارف؟

قال الفتى: _ خطؤك يوازي الموت.. ذات يوم ستشعر أن معارفك قبض ريح!! تمتمت شفتاي: _ ولمَ؟!... ولكن السر...!

قاطعنا الجد مبتسماً: _ إنكما تختصمان على شيء، ليس لكما فيه شيء!! قلنا بذات الصوت: _ كيف؟

قال الجد: _ إنكما ستعرفان كنه السّرّ.. لابد من هذا!!

اقتعد الفتى الأرض، وتبعته، وما لبث أن شعر جسدي بتعب تلبس حواسي أولاً، ظل الجد واقفاً لبرهة وقت كانت شفتاه تهمسان بتراتيل موجعة، لكنه وبهدوء العارف جلس قبالتنا، وبدأت يداه تنبشان الأرض. مد الفتى يده محاولاً ملامسته، لكنه منعه رافعاً يديه إلى علو، قلت:

_ هنا!!

مكتبة الفكر الجديد

قال لاهثاً: _ هنا!!.

قلت: _ إذاً علي أن أبدأ!!

قال: _ دربك ... لن يوصلك إلى هنا الآن؟

قلت: _ متى إذن!!

قال: _ سيجيء.. سيجيء.!

التصقت عيني بالحفرة التي بدأت تتّسع، كان في عمقها صندوق أشار إليه الجد قائلاً: _ احفظ ما ترى، فلابد أنك مقبل ذات يوم!!

رمى الفتى بنفسه لي عمق الحفرة، فشبّت نيران الاشتعال، وما فتئت السماء أن امتلأت. اضطرب وحلّ ظلام كثيف، كانت عصا الجد تهتز بحركات غريبة، وكان يبتسم، تجلّله هالات من الهيبة والاستحسان، قال وهو يقشع الظلمة بكلتي يديه:

_ إن أنت بحثت.. لا بد وأن تجد!!؟

_ ولكنها هناك، وأخافها تحترق!!.

-- أبداً.. أبداً لن يمسّها السوء، مادمت تريد الوصول إليها!! هبّت ريح، وبدأت رويداً، تتشظّى، كان عمي يحتضن رأساً، تنوح باضطراب، وعالمي يدور في خضم نيران من المخاوف،.. قلت دون أن أحاول فتح عيني:

-- أو حقاً كان!!.

كان السؤال مبهماً غريباً مثل لحظتي التي رأيت، فليس ثمة فتى ينتظر، ووجع يتناثر، وعيون.. عيون تحدّق به متوسّلة، بعد أن سيطر ضياء الموت عليها، فجعلها لا ترى غير الحزن الذي تعرش في الأعماق..... طويلاً...

مكتبة الفكر الجديد

قمر حزين..... يتلاشى

الآن، وقد وقفت قدمي عند الباب الذي كنت أحلم بالبقاء وسط عوالمه التي كانت تشيع في أعماقي المباهج وأحلام عالم ظلت عيناي تراقبانه بخيفة، وأنا أجرّ عربة النفط التي مسحت برنينها أزقة المدن المأهولة بشذا القرنفل، كانت خطواتي ترتبك ما إن أحط قدمي عند أول مدخل زقاق، أصغي بحزن إلى وقع الأقدام فوق الإسفلت الذي يبدو مفسولاً بندى الصباح، ورذاذ الحدائق التي تستر الجدران الخارجية، أدفع نفسي عميقاً، فتمتلئ أعماقي بروائح لها طعم الفضة فوق لساني الذي يشكو جفافاً، كانت مدينتنا المأهولة بالطين تمتلىء بروائح المزابل وروث الخيل وثغاء الأغنام ونداءات بائعي الملح والمجانين، ثمة صخب لا يمكن أن ينتهي، تظل الأمهات صاحبات للصراخ، ويظل الأولاد يلعبون وسط برك الفوضى الآسنة، فيما تتزوي البنات عند زوايا الغرف القصية، وثمة بين أيديهن خرق بالية، صنعتها الأيادي الراجفة وجلاً لبنات قذرات، كانت الأفواه تتخاصم حول تلك (المدامات)، ما إن تكتمل نشأتهن!!

والآن، وقد حطت قدماي عند هذا الباب، ما الذي يمكن أن أفعله؟!!

كان الصباح بالنسبة لي لا يشبه أيما صباح آخر، أخذت كتبي إلى صدري، ولدقائق ظللت أبصر برودتهن، وهي تسري بين جوانحي، ومثل مَن وجد نفسه يفكّر بجريمة قذرة أخفيتها في عمق الصندوق بين صفيحة النفط الفارغة وزوّادة خبزي وملابس المدرسة، كانت أختي

مكتبة الفكر الجديد

الكبيرة قد هيّأت كل شيء، وثمة ما يتعب عينيها، ستظل أختي هكذا مأخوذة بالنظر إلى الأولاد، وهم يختطفون كتبهم، إن في القلب شوقاً للمعرفة، شوقاً كانت مخاوف أبي تمنعنا من الإعلان عنه.

ها أنت تقرر ما كان.. فإلى ماذا توصلك هذه اللحظة؟! وإلى ماذا تريد الوصول؟! كلك عاطل، كلك يسبح بآثام كلك،

كان صباحك ليس كل الصباحات!!

وها هو مساؤك لا يشبه مساءاتك الفاتنة.. فثمة ما جعل حياتك الآن ترفل بمعنى أن تكون إنساناً، كان صباحك مفعم بالانتظار.. ملأت العربة بتردد، وانطلقت قدميك، وساعة وصلت البيت الذي يأوي المرأة التي تحب، طرقت الباب بهدوء، وحملت الصفيحة الفارغة عمداً بعد أن جالت عينيك عند طرف الزقاق، كان الصمت قد سيطر على هيبة المكان، لا شيء غير شذا القداح والصمت، انفرج الباب بهدوء، وخطت قدماك خطوات عارفة، وعند باب صالة الاستقبال طرقت.. طرقت تنتظر، كان الوقت يموت بين يدي، فأحس أن عمري يتلاشى، وأنا أحدق في علو جدران السجن المركزي المصبوغه بتراب الذل، أحدق بالغرف المكتظّة بالأكاذيب والسخافات والأوهام والأساطير، كنت ساعة جئت السجن، أتصور أنني سأعيش عالماً، لا تضطرب فيه الأفكار، عاد بي السّجّان، ولحظة أوقفني ورفيقي، كان رفيقي ابن خالي.. شاب طيب ما كان يعرف أن السياسة يمكن أن تأخذ منه ربع حياته.. كان يعشق الصمت، يعشق الترقّب، لذا؛ كان بعد أن استقرت الأيام، أن هرب باتجاه الاختبار الصعب، كان قد اختار النوم، وهو أحسن فعل يختاره سجين، أوقفنا السجان عند خط طويل من الظلمة، وبعد هنيهة، علت الأصوات، وانهمرت الأجساد باتجاه الضوء، أجساد وسخة متعبة

مكتبة الفكر الجديد

الخطى، ما أن رأتنا حتى انهالت تطلب منا سجائراً ونقوداً، مرة كنت أزور صديق لي سكن عنوة مستشفى المجانين.. كان قد اختار هو الآخر الحل الذي يراه مناسباً للهروب من حواره الفلسفي كما كان يقول.. ما إن رأت العيون خطواتنا حتى كانت تنغمر بروح الرجاء طالبة سيجارة.. سيجارة .....!!

الآن عرفت السر الذي كنت أسأل عنه!!

الآن عرفت، لم يفكر السجناء والمجانين والعشاق، بالسيجارة أكثر مما ينكرون بأنفسهم؟! تفحّصت الوجوه تفحصاً دقيقاً، فهذا هو ديدني، قال ابن خالي: أونقدر أن نعيش وسط هذا الضجيج؟!! قلت: لا!!

قال: وما العمل إذن ؟

قلت: لا طريق أمامنا سوى الانتظار!!

ضحك السجّان، أبداً، لم أر سجّاناً يضحك.. حتى بعد سنوات طويلة من الانتظار هناك، كان السجن يلفظ أصواتاً قاتمة ثقيلة، لكنها لا تمتّ إلى الضحك بصلة، الغرابة أن تصدّق أن سجّاناً يضحك، أو أن سجّاناً يتقرّب إليك دون أن يريد منك فائدة، كنا بالنسبة لهم مناجم ذهب.. توصلهم إلى بوابات الغنى والارتياح. أخذ يدي برفق، فتبعني ابن خالي، قلت: إلى أين؟! .... ألسنا نعيش مع هؤلاء!!

قال: رأيت دهشتك .. لا .. هؤ لاء محكوم عليهم بقطع اليد !!

قلت- : مأخوذاً بهول الحكم: ماذا ؟

قال- : مثلما سمعت .. قطع اليد !!

تضطرب الصور بين عيني، فما الذي يمكن أن يفعله الإنسان؛ لكي لا يصل إلى هنا، إلى هذا الجحيم الذي سيعرض كل مَن تحبسهم إلى المهانة والكراهيات.

مكتبة الفكر الجديد

بدأ الطرق خفيفاً، .. وما فتئ الباب أن انفرج، كانت الشمس قد لبست ثوب رقتها، وجاءت تستقبل ظهيرتي المضمّخة بالنفط والشبق والتردد، أخذت المرأة بيدي، وأدخلتني، أخذ السجّان بيدي، وأدخلني إلى عالم من الأفكار والوجوه والتوسلات، عالم لم يألفه أحد، وسيظل مثل ثور هائج، أخذتني البوابة الكبيرة إلى وسط الضجيج، ولحظة رن الجرس استقبلتني العيون بعدم رضا، وربما بشماتة، أجلسني أحدهم فوق فراشه، وقدم لي شاياً، منذ دخلت الغرف الحمر، وأنا لم أتذوق مثل هذا الشاي، كانت قامتي تسمح بأن أجلس في الصفوف الأولى، أجلستني المرأة بعد أن ألقت بصفيحة النفط بعيداً، وهي تضحك، قالت -- : يا لك من ماكر.!!

فرأيت إليها، أنثاي التي أعطت كل حياتها من أجل الحفاظ عليّ، لم أسألها يوماً لم تعيش وحيدة برغم كل هذا الدفق من الضوء والحب والجمال ؟ ولم تفه هي بشيء. ظلت علاقتنا هكذا، يحيطها صمت الاختيار، كنت أحدثها عن جدتي، وزوجة أبي، وأخوتي، وكانت تعرفهم، تعرفهم جيداً، كانت أنثاي ترفل بالسعادة، فلمَ أريد تدمير سعادتها بقصص فارغة عن أشياء لا يمكن لأحد إصلاحها؟! للحظة ستبدأ الخطوة الأولى باتجاه الضفة الأخرى، قلت: عندي لك خبر!!

رفعت رأسها، وناولتني كوب حليب، هي المرة الأولى التي أبصر عينيها اللتين تشبهان عيني قطّ متحفّز، جلست إلى جانبي، قلت هامساً: قررت العودة إلى المدرسة!!

شهقت بخوف واضطراب: ماذا؟

قلت محاولاً محو خوفها وإزالة أنقاض الاضطراب -- لا تخافي.. سأعود إلى المدارس المسائية!! أشرق الوجه، وانقشعت الغيوم التي كانت

مكتبة الفكر الجديد

تُسربله، وانفرجت الشفاه عن ابتسامة أخّاذة، ظلّت تبحث بهدوء عن يدي، وظللتُ أبحث عن دفء شعرها، الذي كان يسقط فوق الأكتاف مثل ليل هادئ، كلانا كان يجد ملاذاً، كان يجد أن الطريق التي أوصلته إلى الآخر إنما هي الطريق الأكثر هدوءاً، والأكثر أماناً، كانت تحدثني عن كل أيامها سوى تلك التي خلقت منها امرأة وحيدة تترقّب خطواتي، ما الذي جعلها تحبّ فتى غرّاً بسيطاً مثلي، أهمس:

.. والآن، يا شهرزاد .. ماذا لديك من الحكايا؟

تضحك بجذل، وتجلس عند قدمي. لقد اعتدت مثل هذه الأفكار، لحظة تضحك حواء، وهي عارية، ترتج أركان المكان، ولا ضرورة لشيء سوى ضرورة الحب ولعبة ممارسته، تقول:

.. سيدي .. أو للحكايات معنى في مثل هذا الوقت؟!!

أقول وأنا أضغط بلطف فوق حلمتي نهديها: إن المعاني تبقى مادمنا نريد؟!! تقول، وهي تحس بأنوثتها تطفر إلى فوق الشفتين: وما الذي يريده سيدي شهريار!! أنثر الليل فوق جبينها: لأغطي العينين، وأجسّ مكمن جنونها، وأقول:

.. كم أنت شهية، أيتها الملكة ؟!

فتقول، وهي تقبل أطراف أصابعي بلطف-: وكم أنت رائع، أيها الصبي الملك؟!!

تفور مكامني، ويبدأ الغضب باجتياح جسدي، كنت أشعر أن لابد من لحظة الانفجار، لكني أتعمّد الاتفاف حولها، لحظة كان إلزاماً علينا الولوج إلى لبّ إثارتها، بدأ جسدها يشتعل بنور الحب، كلانا كان يعرف أن تلك اللحظة ربما تكون الأخيرة، فلابد من الارتواء!!

مكتبة الفكر الجديد

كانت شفتي غرفة السجن تضغط على روحي، ما إن يحل الليل، وأستمع إلى رنين المفاتيح، وهي تلج الأبواب، أحسّ أن ليس ثمة دنيا غير التي نعيش، دنيا ملؤها القلق والترقّب والأفعال التي تريد التقرّب من الله، كانت الغرف تعذّب الفراقات، وتضج بالأدعية التي تتوسل الفرج، وثمة مَن يتوسل فرجه بطرق أشد كراهية لأنفسهم وأكثر سقوطاً، كانت خطواتهم تهرول باتجاه سجّانيهم، لتضع بين أيديهم ما حملته أكفّ الأهل من نقود وملابس ومأكولات، تضعها برضى تام؛ لأنها تشعر قربها من الدعة والأمان، فتنام مطمئنّة هادئة، كان السجن بالنسبة لكثير منا مناسبة للتخلص من ضغط الجوع، ويتم الانتماء إلى مجتمع، صار فيه الغش والكذب سيداً لكل شيء، منذ زمن، وأنا أترقب، ومنذ زمن، كان الفتى الذي كنته يترقّب، ومنذ زمن، كانت المرأة التي أحبّ تترقّب، تحت ضغط الأم، توقّفت قحفة الرأس، واشرأب العقل، وانبثقت الأفكار، تجرّ وراءها أسئلة، لا يمكن إيجاد منافذ إجاباتها، أسئلة، جعلتني أرفع عيني باتجاه أنوثتها الغارقة بلهفة الانتظار، وأراقب جيشان الروح، كانت عينها تحلمان بوهج الكلمات التي أطلقها اللسان، كلمات ظلّت لزمن، تستجمع إرادتها، من أجل الإيغال في طلب الخلاص، امتدت يدي وأخذت شعرها إلي، فأنت متوجعة، ومثل وجع، سقطت كفّي فجأة فوق خدّها، فاستدارت، وما لبث جسدها الذي غدا بلون الفحم أن ابتعد باحثاً عن ملاذ، يأوي إليه. كان عالمنا ينهار، لحظئذ، وكانت رغم ما تتعرّض له من مهانة، تحاول الإمساك ببقاياه، الأسئلة تمطر المرأة، تعيد السؤال الذي ظل مثلي منذ تلك الساعة التي امتلأ قلبي بها وجعاً، بكت المرأة، وبات الفراش بارداً حتى التأم الجرح، وغادرت اللوعة الروح، ظل كلانا ينظر إلى الآخر دون مقدرة على اقتحام روح الجواب.

مكتبة الفكر الجديد

ماذا إن كانت تريد اللعب بحياتي، وجعلي مجرد قوّاد، يسعى لإرضاء مومس، تطعمه من أرزاق أيامها .. ماذا أيها الجنوبي الغارق بالحزن، لو وجدت نفسك تجلس عند الباب، وثمة مَن يجيء، يؤدي التحية .. ويدخل؛ ليعود خارجاً، وهو يرمقك باستهزاء؟!!

كانت الحرب صيّرتنا ذوات دون معنى، أعطتنا بنادق وعتاد، وقالت .. لتكن أعماركم رهن هذا الأزيز، لتكن سنواتكم مليئة بالانتظار، من أجل الوصول إلى المحطة التالية!! كانت المرأة تريد قلباً ليناً؛ لتأوي إليه بعد أن ملأت المرارة كبدها، بعد أن كانت أيامها تنطفئ عند أسوار الانتظار، كان عليك أيها الجنوبي المدعي لمعرفة السر، أن لا تقتل هذه الأحلام التي تريد لك الرقي، أن تأخذ بيدها؛ لتصعدان معاً، ثمة خوف، لا وجود له، خوف لن يقدر عقلك على تجاوز أسيجته هو الذي جعلك مثل عمود يابس جافّ، صلد، لا يعي أن تعرض امرأة بكامل أنوثتها بين يديك، امرأة تشبه شجرة ورد، ما الذي فعلت، ما الذي جعلك تذبح كل هذه الأزهار، وترميها إلى مزابل الفرات تكسيك وتعطيك الدراهم السبع؛ لتوقف دورانك المحموم بين الطرقات، أيام وأنت تجرّ العربة الفارغة باتجاه البيت ،وتعود إلى المحطة مضمّخاً بعطور الرجولة القاتمة، أيام وأنت تمارس لعبة السلطان الذي نحتته جدتك في أعماق جمجمتك الخشنة مثل صابونة رقي، كانت نهنهة المرأة تأتيك متقطّعة، ولحظة رفعت عينيك إليها، اصطدمت باخضرار العينين الماطرتين، أشرت إليها بالاقتراب، لكنها ومثل قطة أطلقت مواء صافياً، كانت تمارس وإياك لعبة التمنّع؛ لتثير في أعماقك توسّلات الفحولة، كانت الحرب تمارس مثل هذه اللعبة، تدفعنا إلى أمام، فنظن أنها النهاية، الخاتمة التي تحوّل أعمارنا إلى ضياع، لكننا ما نلبث أن نعاود من جديد، يتبدّد الرصاص، تصبغ الأرض شكلها برذاذ الشظايا الفارغ،

مكتبة الفكر الجديد

لكنها تعاود الانتصار، لحظة تحتضن الدم، كان معلّمنا الأول شيخاً وقوراً، يتطاير اللعاب من بين شفتيه لحظة يهدينا حكايات، لا وجود لها بين طيات الكتب التي نملك، يضع جسده المنهك فوق أول رحلة، وينظر إلى الوجوه التي يعرف عنها أدقّ تفاصيلها، حتى وهو مغمض العينين، ويشير بالصمت، فنصمت، ويحط طائر السعد مراقباً إلى حين، فتؤدي بنا تلك الشفاه المصبوغة بلون الدخان، يشعل سيجارة غازي بعد أن يضرب العلبة المربّعة ضربتين عارفتين، ويبسمل بأسماء كثيرة، ويقول لامّاً نفسه إلى نفسه --: ستأخذكم سنواتكم إلى غير ما أخذتنا سنواتنا .. ربما ستعرفون أشياء أجلّ وأهمّ، ممّا نعرف، هيّئوا عقولكم لزمن سريع الإنجاز، فلا بد لهذا العالم من منقذ .. ولكنْ؛ متى يجيء؟ وكيف؟ .. هذا ما لا أعرف، احفظوا هذا عني، وابقوا أنفسكم رهن هذه الحقيقة، إن الدنيا ليست كما يقول أجدادنا واقفة على قرن ثور .. وليست لها علاقة بشيء سوى نفسها ..!!

كان عمّي يحدثني عن أشياء، تشبه هذه، ما الذي يربط هذا المعلم الطيب والمخيف بحكايات جدي التي أورثها العمّ الذي ضاع في صخب الحرب، أطلقت روحي تنهّداً، ونطّت عيني وجعاً، ما إن تذكّرته، كانت دنياه تموت لحظة يرى أحلامه تتطاير بين يديه مثل غزلان هلعة، ما الذي يقوله المدرّس الآن .. هذا الشاب القريب من أعمارنا، وله ذات السحر الذي كان عليه معلّمنا القديم؟! لا أدري لمَ كانت روحي تسعى باتجاه مثل هذه المقارنات.

كانت هذه الحالة تحيّر رأسي، ولم أجد لها جواباً حتى الآن، تشرق الشمس، فتطير في فضاء الساحة التي تشبه السوق مئات من القصص والأكاذيب والادعاءات الفارغة والأوهام ولواعج القلوب المدهونة بالحزن

مكتبة الفكر الجديد

والرهانات على تواريخ بعيدة، لن يثبت عقل السجين على شيء رغم أنه جاء إلى السجن، من أجل مبدأ، كان يقاتل من أجله، كان مدرّسنا الشاب يحاول إبعاد أذهاننا عن دائرة الاطمئنان، لكنه يريد منا عدم الابتعاد كثيراً، فثمة خيط يشدّنا، بعد حين إلى ليل الحرب والخنادق والحراسات التي تخالها النفس لن تنتهي، ليس ثمة ومض ضوء، يجعلك ترفل بقناعة الانتهاء، كانت زوجة عمي تحسب لحضوري حساباً مترقّبة عند باب الدار، ترسل ولدها؛ ليترقّب الطريق، وما إن يراني حتى تهرول قدماه إلى القلب مالئاً الأرجاء، بصراخ يجعل جدتي تقفز مثل بطة عرجاء، وتخرج أختي مهرولة، ورويداً تمتلئ باحة الحوش بالقبلات، أرمي حقيبتي جانباً، وأدلف مسرعاً؛ لأزيل غبار الحرب، كنت أحس جسدي مغموراً برائحة البارود، وثمة ريح غريبة تصاحبني، لكنها ما تلبث أن تختفي، تمتلئ روحي بالانتعاش، ويجعلني الماء أبلبط صارخاً بصوت هستيري، جعلتنا الحروب نعتاد لغة الصراخ، كنت مجبراً على أن أعيش حياتي بوضوح، تحاول اجتياز عالمك صوب عالم آخر، لكنك كثيراً ما تفشل؛ لأن ثمة الكثير من العوارض والعيون التي ترقبك؛ لتتّهمك بعد حين بالجنون، تنظرني زوجة عمي، وأنا متورّد الوجه، ما كانت تقدر على رؤية وجهي معفّراً بتراب الوجع الذي سكن قلب زوجها، وها هو يسكن قلبي، وببطء طيب، تحتضن جسدي شافة عطر رجولتي التي كبرت بين عمر السواتر وذهاب الأرواح، أظل للحظة أغرق في عطر أمومتها، لكني أعاود اليقظة، فأشم ريح الوحدة والجوع والفراقات التي لم تجد لها طريقاً للخلاص، كنت أعرف ما تأكله أيامها من أوردة روحها المليئة بتوسلات الليل، تصب أختي طعاماً، فتجلس قبالتي؛ لتهمر فوق رأسي سيلاً من الأسئلة والاستفسارات، أظل صمتاً أراقب هذا الفيض من الأحاسيس، أحرّك فكّي، فأشعر وجعاً، ينثر مدرّس التاريخ حكاياه

مكتبة الفكر الجديد

فوق رؤوسنا ارتياحاً، وينثر المحقّق حكاياته دونما تروّ، فيضحك سري، ليس ثمة ما هو مألوف، وأنت تعيش وسط هذا العالم المضطرب، العالم الذي بدأ يأخذ أرواحنا صوب الجوع والمرض والسقوطات الإنسانية، كانت زوجة عمي تنتظر لحظة انتهائي: لتقدم لي صينية الشاي الذي تتمدّد غسله برائحة الهيل، تبصر جدتي الأجساد المحيطة بي، فتبتسم بإشراق حيي، يجعلني أزحف إليها، أضع رأسي وسط حضنها المشع وداً، وأغمض عيني، أغمض تعبي، أغمض الأيام التي مرت، وهي تتلفّت مرعوبة، تمسّد رأسي بحنو.

تقول جدتي:- ما الذي أصاب رأسك؟!!

دون أن أرفع رأسي، أملأ عيني من ضوء عينيها، فلقد كان سؤالها يوغل في أعماق حياتي التي ملأتها الفواجع والإصابات، كيف يمكن لي الإحاطة بهذا السؤال والإجابة بدقة.. ما الذي جعلها تقف في مقدمة الذاكرة الآن .. بعد كل هذه الأيام المفعمة بالنسيان ؟! ماذا يمكن أن يحدث إن أنا طرقت الباب، بكامل فتوتي ؟! أوتراها تعرفني.. تعرف ذاك الذي غسله النفط؛ لتحرقه الحروب، تعرف الفتى الذي درّبته على قيام أجمل؟!!

ما كانت لدي الرغبه بالرد، وما كان عقلي مستوعباً ما حدث، أو كنت أحلم، وما الربط بن أحلام الرأس وتمتمة الشفاه، كانت زوجة عمي تقف عند التنور، وهي تنظر اللهب بعينين تشبهان عيني هدهد وجل، لحظه تصادمت نظراتنا، غمزتني بخفاء، وأشارت إلى قلبها إشاره خفيه سريعة، لكنها جعلتني أبتسم، وأطرق حياء، فهي كثيرا ما تمازحني علناً بأشياء صعبة، تجعلني ألوذ مثل هرّ إلى نفسي إلي تشتعل بالاضطراب، تحدد معالم وجودها، وبغتة ترمي إليّ لعبة الفضيحة، فأسكت، كانت

مكتبة الفكر الجديد

تعرف رغباتي ما إن تراني ساهماً، عند الباب، وبصوت سريع النبرات، قالت:

- اخرج، لترى الدنيا .. لا يمكن أن تجيء من جدران؛ لتجلس عند جدران!!

ما الذي أوحى إليها بهذا الخروج ؟! ضحكت جدتي، فلقد كانت تعرف عادتي الطفولية هذه، عادة أورثني إياها جدي، كما كانت تقول، حبّ الأشياء لا يمكن أن يكون سوى بوابة للجنون. تمتدّ يدي دونما إرادة مني ما إن ترى الطين، أشمه مثلما أشم جسد امرأة مضمّخة بأحسن العطور، ليس ثمة ما يجعلني هائماً جذلاً طوال اليوم غير رائحة الطين وتراب الأمطار العابق بشذوات الأرض، وابتسامات الفرح فوق وجوه العجائز الملفّعات بالسواد، دفنت رأسي بالمنشفة، فاندفع صوت المحقّق إلى أذني صاخباً حاداً، حاولت طرده، صعب أن تصدّق أقاويل أفواه، دفعت بك إلى هذا الانحطاط، كنت أخترق جاهداً شغاف ذاكرتي؛ لأرسم للأشياء أشياءها، ظلّت روحي حائرة لأكثر من أربعة أيام أمام شكل الطماطة، حاولت نبش عمري كله، لكن أصوات الاستغاثات كانت تملأ آذاننا، فتبدأ الأرواح بالذوبان، رويداً أتلمس أنفي، فينزف القلب وجعاً، أتلمّس قدمي، فتنزف مؤخرتي، أتلمّس الرأس، فينزف الجسد كلّه، عن ماذا؟ ولمَ سيكون الاعتذار، وكل شيء قد تمّ، والايام التي ستأخذني إلى السجن المركزي معدودات؟، لابد وأن أتعفّن هناك، ولا بد وأن تموع أفكار الخارج من أجل أن يزرعوا في عمق عقلك أفكاراً جديدة، وسفالات الجوع، التي تدور.. وتدور.. وتدور حتى تجد نفسك لا تبحث عن سوى ريح القذارات، فكت جدتي عمامة رأسها المائلة إلى الحزن، وأخرجت ورقة، ما لبثت أن ناولتها لي، كانت عشرة دنانير،

مكتبة الفكر الجديد

تلقّفتها بحبور، فلقد وجدت نفسي بحاجة إلى يوم واحد من التيهان يوم أمارس به عبثي، وليس ثمة أجدر من هذه الورقة على إتمام هذه الرغبة، تقدمت مني زوجة عمي، وأعطتني ورقة أخرى، تمنّعت كاذباً من تناولها، لكنها أصرت، ودعتني إلى العشاء بعد عودتي، كانت تعرف أنني ربما لن أعود حتى فجر اليوم الآخر، ربما تأخذني قدمي إلى مكان، أجد فيه غضب المعاني التي تضطرم في أعماقي، كنت بحاجة إلى صراخ ومعارك من كلام وهمسات حب، ورفع أنقاض القهر عن كاهلي، تأمّلت المبلغ الذي بين يدي، وحسبته سريعاً، كم يوم كان على أن أجرّ العربة، وأجوب الطرقات، من أجل توفير هذا المبلغ الكبير خمسة عشر ديناراً، فلتمت أيام الدراهم السبع إذن، ولكن سيداً للعبث، ولو ليوم واحد، يوم تنفّست الارتياح، وبسرعة، ارتديت ملابسي التي كانت تعجّ برائحة الاسفنيك رغم كيّها، منذ كم وأنا أفارق هذه الألوان العاجّة بالحياة ؟! منذ كم وتراب الكاكي يحفر في أجسادنا ندباً وقيحاً وآثاماً، أخذتنا الحروب زارزير بريئة، وها هي على وشك أن تعود بنا، ونحن قتلة محبّون لمرأى الدم، وأنين المتوجّعين، أخذتنا محمّلين بالغناء، وها هي تعود بنا محمّلين بالنواحات! .

أخذتنا نرفل بالأحلام والسعادات، نرى وجوه الحبيبات مثل أقمار، وها هي تعود بنا نرفل بالفشل والكراهيات والشعور البيض!!

أخذتنا مأهولين بالصدق والآمال، وها هي تضعنا عند طرقات الأكاذيب والخرافات والانتظار!!

أخذتنا، ونحن نتمتم بشفاه الشعراء المجانين، وها هي تعود بنا مملوئين بأناشيد تحفر الروح على ممارسة القتل!! أخذتنا الحروب، وربما تركتنا، ونحن حطام ونقاط، وفراغات.

مكتبة الفكر الجديد

كانت الأوراق تلعب مثل عصافير بين يدي، أوراق متقنة الصنع، تشعّ من بين حوافّها رائحة الأيام، ماذا لو صيّرتني الدنيا ديناراً، ماذا عساي فاعلاً؟! أو كنت أصرخ احتجاجاً إن وجدت نفسي محبوساً بين أركان الجيوب؟!.

أو كنت أعلن أني لن أفعل سوى ما يجعلني أتفاخر بأني دينار صالح للاستعمال؟!...

مصيبة الدنانير أنها تجد أنفسها ملزمة على احترام كل ما يحيط الإنسان من سفالات، ملزمة على تحقيق أدنى الرغبات وأعمقها غدراً في دروب الانحطاط والدعة والرذيلة!!.

ماذا لو وجدت نفسك ديناراً بيد قاتل مأجور، أو مومس قبضتك توأ بعد أن وضعت نفسها فراشاً لجسد قذر تافه؟!

أو كنت تعلن الرفض، أو كنت تقدر أن تقول لاءك بعنف حضورك الساعية وراءه أجلّ الأعمار وأكثرها طيبة ؟! أو كنت تمزّق نفسك قطعاً، وترمي ببقاياك وسط أول بركة ماء آسن لتتلاشى، وتصير عدماً؟! ربما ... آه؛ أيتها الدنانير التي لن يستمرّ فخرك طويلاً، ما دمنا نسعى باتجاه التلاشي، خطت نفسي خارجاً .. كانت دروس اليوم الأول مفعمة بالحب، ثم أصدقاء جدد، استغربوا حين أخبرتهم أني أشتغل حصاناً لعربة نفط، تجوب الطرقات، ضحك البعض، واستغرق البعض في خضم تفكير عميق، كانت أرواحنا تتقارب، لكن الرؤوس ترفض كل هذه الاقترابات، ما الذي يمكن أن يجمعنا غير المدرسة والفصل وحبّ الدرس، ثم ماذا بعد كل هذه المسافات التي قد تنتهي ذات يوم؟ أخذني صاحبي الذي تعجّب وصف نفسي الدقيق جانباً، وسألني:

مكتبة الفكر الجديد

- أتقرأ ؟!

قلت مازحاً متعمداً إثارة استغرابه: _ ولمَ إذن جئت إلى المدرسة؟!.. منذ طفولتي وأنا أقرأ، وأكتب!! قال باسماً، وهو يعرف أن مقاصدي كانت ترمي إلى بعيد .. أقصد هل تقرأ كتباً خارجية؟!. !

صمت رأسي، وبدأت شفتاي تختلجان بأجوبة، قد لا تسدّ حلم رأسه، الذي كان يسعى للوصول إلى هدف يبنيه، قلت مختصراً الطريق بيني وبينه _ قل ما تريد . . فأنا أعرف غرضك!!

ملأ الارتباك ملامح وجهه الدقيق التكوين، وظل لزمن، خلته طويلاً، يسبح في موجات من العرق، كانت عيناه تلمعان ببريق، جعلني آخذ بكلتي يديه، وأهزّهما بلطف مازح، ظلّ يحدّق بي حائراً باختيار البداية، البداية التي ربما مارسها منذ فكر بالتقدم، قلت: _ أرجو أن نخترق الصمت؛ لنختصر الطريق!!

قال وثمة تلعثم بين فكّيه - ماذا تعني؟

قلت محاولاً السيطرة على أفكاره التي كانت جانحة.. نعم. أنا أقرأ.. إن لي عماً، يساعدني على القراءة!! قال مبتسماً _ أوَ تقرأ كل شيء!!

قلت: – عمّي يحلم بأشياء، لا يمكن تحقيقها، يملأ رأسي بأحلام غريبة، ويعشق بلداناً، يقول إن لا محطّ لقدمي الفقر فيها، كل شيء هناك ملك الناس. انفجر صاحبي ضاحكاً، فلقد أوصلته بمكر ذئب إلى المصيدة التي كان يريد نصبها لي، أحس بوجع الشرك الذي طويته حول رقبته، فحدّق في وجهي محاولاً فهم مطامحي التي بدأت تتغيّر، فليس ثمّة ما هو أسهل من أن يتحوّل الإنسان إلى ذئب، ذئب مستفزّ، يسعى بالانقضاض على أول فريسة تصادفه. بغضب، ارتسمت فوق تقاطيع

مكتبة الفكر الجديد

وجهه حفرمرعبة، وثمة يأس بدأ يتسربله، كان الصمت يرخي سدوله فوق الفصول، علينا أن نختار خطواتنا التي ستشمرنا إلى خارج الأسوار، آه، أيتها الأسوار العالية، مثل آلام قلوبنا، مهما استطعنا على الاندماج في لبّ المأساة، لكن الحواجز تظل مبنية، ونظل أسرى خطواتنا المحصورة بين الانتظار... والانتظار، تمتلأ باحة السجن المركزي بالضجيج، وحين تلتفت الرقاب تجد أن ليس سوى حنجرة، بدأت تأخذ مدى الارتياح؛ لتحطّ به عند بوابات الحزن، تعضّ الشفاه القلوب، وتدوس العيون بكاءات الليالي الفائتة، وفجأة؛ تتقافز المنايا، وتلهو الحناجر بإيفاءات الحب الساحلة للعيون، ثم مصائب دفينة، تغسل الآثام حتى الثمالة، مثل سيل تورق الخطى خطوات مرتبكة، وتصير الباحات إدماناً للضجر، ورغم ما تمسكه الأكفّ من تحدّ، فلابد للروح من أن تعود، إلى هناك ملتاثة، تتبعها خطوات الاشتياق، آه، أيها الليل المعبّأ بالفضول، الملوّث بالضجر، المبني وسط زحام الغرف المتدلّية الرقاب، كان سقف الليالي يذبل الحكايات، يجعلها مجرد شيء، يرتسم فوق تجاعيد الوجه الصامت بين الأسوار، تجد كل شيء يتحرك سوى العاطفة، فإنها تموت .. تموت ببطء، وما تلبث الحكايات أن تتحوّل إلى طحالب، تعرش حول الذاكرة، فتبدأ بتسوّل المعاني، أو تسيح في دروب الاكتظاظ دون أن تعرف ما الذي يعني كل هذا؟!!

ما الذي يعني أن تضيع عمرك، من أجل كلمة حب!!

ما الذي يعني أنك تتحسّس، من أجل صدق في الحب وانتماء لرؤيا؟!!

وماذا سيبقى منك؟! .. ولمن ستكون هذه الأشلاء المتبقّية؟ ما الذي ينفع؟ ولم هذا الدوي، ما دمت تنتظر مَن يطرف الباب؛ ليقول لك –

مكتبة الفكر الجديد

هيا .. فلقد حان الوقت؟! .. وإلى أين يمكن أن تمضي، وأنت ترفل بالخسارات؟! .. ومَن تراه قادراً على أن يعوّضك لحظة أسى عشتها بين كل هذا الانحدار والضجيج والكره ؟! لن تقدر حتى على تحريك جناحيك، فلقد انكمشت الأسرار، ورحلت، وصرت مثل ورقة بيضاء ملفوفة بأحلام وردية، كان الصمت يغسل تألّقنا، ونحن نتسلّق باتجاه السماء، نطوف باحثين عن وحدة أمالنا، لكن الموت .. الموت يدرك أعماقك، فتذبل، ورويداً، تخطو بنا الخطوات إلى نور الضجيج، يقول صاحبي:

- ما الذي قلت؟!!

- عن ماذا؟!!

- عن الأمر الذي حدثتك عنه!!

- لكننا ما تحدّثنا عن شيء!!

- لكنك تعرف .. تعرف ما الذي جعلني ألتفت إليك!!

- حتى وإن كنت أعرف ..!!

- وما الذي تريد إذاً ؟

- سأقول لك .. ما فائدة أن تدمر أعمارنا إزاء أحلام قد لا تتحدث عن شيء أبداً؟! ما فائدة أن نحلم، ونحن محاطون بجرائم تعذّب أعمارنا؟!.. أو نحن قادرون على ممارسة التغيير بعد أن عطّل العالم ذواتنا ...؟!!

صمت صاحبي، وبدأ جسده الضئيل يتحرّك بعصبية، ربما كان بغور في سكينة أسئلتي، لكنه ما لبث أن عاد متتبّعاً تشوّش أفكاري،

مكتبة الفكر الجديد

امتلأت عيناي بالدموع، وحاولت النهوض، كانت باحة السجن تمور بضرب من الخبالات التي ما تلبث أن تتحوّل إلى حمائم شوق، تحيط مواجعنا سنوات من الهموم، أغمض عيني محاولاً الانحناء وسط عالم من الصياحات، كل شيء يتوقّف سوى أعمارنا، فهي تسير مسرعة باتجاه النهاية، وقفت عند باب الدار، كان ثمة صمت، يلفّ الطريق، وشذا الدرب بدأ أمام عيني مثل تاريخ بعيد، كان عليّ أن أجيء بالعربة، أن أستدعي تاريخي البعيد، وأعود حصاناً من ضجر، مَن يعيد لي تلك الخطوات بعد أن دمّرتنا الحروب؟!!.

انفرجت ضلفتا الباب الخارجي، فطالعني وجه أنثى شابّة، لم تكن هي، تلعثم لساني، وغابت الكلمات عميقاً في غياهب الصمت، كنتُ أحسّ حنجرتي، وهي تجفّ مثل بئر مهجور، ظل كلانا ينظر إلى الآخر دون أن يفوه بشيء، فأنا لم أعتد سواها في البيت، فمن أين جاءت ريح الأنوثة الشابّة هذه، ربما كانت أنثاي تتجدّد .. ربما كانت تعرف بأني آت، فنزعت جلد كبرها؛ لتعود شابّة، كما كانت، ابتسمت لخواطري، فأشرق وجه الأنثى عن ابتسامة رائعة، لها طعم السمسمية، قلت بصوت خفيض: _ مرحباً!!

قال صوتها بنغمة هزار: _ أهلاً وسهلاً!!

أشعرني صوتها فجأة بحيوية، أو ما لبثت الذاكرة أن متدت في أعماقي، إلى حيث كان الفتى الحصان يغسل وجهه، ثم ينطلق مسرعاً؛ ليكون شهريار أيامه الباقيات، يستنشق عطرها بعمق، ويداعب شعرها محاولاً ابتكار أزمنة جديدة للحبّ، تقول وهي تأخذ بيدي الخشنتين:

- أو أنت راض؟!!

مكتبة الفكر الجديد

أصمت طويلاً، لم يكن سوى أنفاسنا، وهي تختلج، يشعر رأسي بدوار، فيتضرّج وجهي بحمرة الرضا، أمدّ فمي إليها، فأطبع قبلة طويلة، قلت:

- أو عندك حكاية؟!!

تخفض رأسها، وثمّ إحساس ملتهب، يساور جسدها، تقول :

- كم تعشق الحكايات؟!.. أو ما يكفيك أنا؟!.

تشعر نفسي بحرارة كالسّمّ، فليس ثمة أجمل من حبّ توشحة حكايات عن حب، حكايات جديدة تأخذ مسارها عبر حياتنا التي بدأت تشعر بالعتق. تقول المرأة التي تقف قبالتي حائرة:

- تفضل!!

ارتدت خطواتي إلى الوراء، ثمّة هدوء يلفّ الممرّ، كانت خطوات الفتى الحصان تلاحق خطواتي، تربك رجولتي التي كانت تستنشق عطر فتوتها، وهي تمرّ من أمام الحديقة التي ظلّت كما هي لسنوات طويلة، كانت أنثاي تتمدّد فوق ذاك الفراش نفسه الذي كان يمرغل أجسادنا بعطر إنسانيتنا، ظللتُ صافناً لزمن، لا أدري كم طال، فتحرّك الجسد، تحرّك محاولاً تجاوز ألمه، اندفع الفتى الذي بداخلي إلى أمام محتضناً الجسد البارد مثل لحظة موت، كانت تُبصرني بعينين غائمتين، ما لبثتا أن انفرجتا عن ضوء دقيق الإشراق، تورد الوجه، وعلت الشفتين ابتسامة ودّ، وباضطراب، قالت:

- خلتك لن تجيء!!

- ولكني أتيت!!

مكتبة الفكر الجديد

هزت رأسها بفرح، فتناثر الليل الذي ملأته نجوم الفضة، وهدأت الأنفاس قليلاً، كانت حنجرتي تتيبّس، وعبثي يلتصق والوجع، وآثامي تصير جرائم ودم، أخذت باليدين المرتجفتين إلى يدي، وران الصمت طويلاً، لم يكن باستطاعة الألسن أن تقول ما دامت القلوب تحلّق في سماوات رغباتها .

قالت: – كيف أنت ؟

قلت: – كما ترين.. رجل يحارب بانتظار لحظة النهاية!!

قالت: – لا تتحدث هكذا.. ما زلت كما أنت، ولداً يشاكس رجولته!!

قلت: – رجولتي.. لم تعد كما كانت؟

قالت: – ماذا تقصد؟

قلت: – لا شيء.. لا عليك مني.. وقولي لي ما الذي أصاب القلب الذي يعشق!!

رفعت رأسها متأمّلة عيني، كانت تحاول لملمة الماضي، والتعرّف على مصدر الصوت الغريب الذي أحسّت ألفته، كان صوت الفتى هو الذي يتحدّث، صوت الحصان الذي لا أدري كيف عادت به السنوات، قلت دون أن أنتظر جوابها :

– هيا ... انهضي.. وكفاك مرضاً، أيتها الحلوة!!

حرّكت جسدها، فأحسست أن ثمة شيئاً ما بدأ يتكسّر تحتها، مددت يدي، وأعنت الجسد على الوقوف، كان حطام جسد، لكني تعمّدت العودة به إلى آبار ماضية، علي أنجح في ترميم ما هدمته

مكتبة الفكر الجديد

سنوات الحرب، خطونا معاً، مثلما كنا نفعل من قبل باتجاه الحمام، كانت المرأة الحلوة كالعسلية، تنتظر هناك، ولحظة رأتنا هبّت واقفة، وتقدمت صوبنا، فأشرت إليها بالتراجع، أدخلت الخطوات إلى الحمام، وتراجعت، لكن اليد المرتجفة سحبتني إلى الداخل برجاء، ولحظة وقفت بإزائها، قالت الشفاه: _ أو تريد تركي وحيدة؟!!

قلت مدارياً وضعها: _ لا .. ولكني أردتك تستعدّين مثل عروس!!

قالت: _ وهذا ما أريد .. لن أراك بمثلما أراك الآن.

قلت: - عليك أن تعيشي أيامك، كما كنت، ما الذي حدث؛ لتسقطي في براكين آساك؟!!

قالت: - لا شيء غير حزن بعادك عني!!.

قلت: - حسناً، وها أنا أجيء. . ولا أعتقد بأني سأغادر هذا الوكر أبداً، فهل هذا يرضي شهرزاد؟ !

قالت: - منذ كم من السنوات وصوتك غائب عني؟!.. لمَ هجرتني، وأنت تعرف كم أحبك؟ !

قلت: – لا مجال لحساب الخطأ الآن ..!!

قالت: – حسناً .. لا عليك ..!!.

أغمضت عيني، وانسحبت بهدوء، أغلقت المرأة الباب ورائي، كنت أعرف أيّ وهن تعيش، أشرت إلى الحلوة العسلية، فجأتني مثل فراشة، ثم ،عطر أعرفه من قبل، عطر كثيراً ما اصطدم بخياشمي، قلت:

- مَن أنت ؟

مكتبة الفكر الجديد

قالت، وهي تبتسم برضا: – بل مَن أنت ؟

قلت: – ربما ستقول لك السيدة مَن أنا، إن أنت سألتها !!.

حدقت مباصري في ضوء مباصرها، كانت سنواتي تعود بالحصان الذي عاد فتياً يطرق أبواب عذوبته إلى عمق الأيام، قلت: _ أيّ شبه غريب هذا؟

قالت، وهي تقترب مني بحذر: _ مع مَن ؟

رفعت رأسي، وأشرت بطرف سبابتي إلى باب الحمام، كانت السيدة لحظتئذ قد عادت، وهي ترفل بروح من الشباب، لم تصدّق عيناي أنها نفس المرأة التي كانت مثل كومة صخر قبل هنيهة، كان الحصان قد وصل إلى آخر شوط من أشواط السباق، يلهث مأخوذاً بفتنة الموت التي غطّتها أصباغ الآمال، قلت متمدداً الصراخ:

- ما أجمل شهرزاد !!.

ضحكت السيدة، أخذتني، وأجلستني إلى جانبها، كانت البنت الحلوة كالعسلية، ترانا بعين القلق، أشارت السيدة بخفي رأسها، فتحركت البنت باتجاه المطبخ، وثمة تردّد في خطواتها، تردّد جعلني أتمنّى لو سمحت لي بالارتماء بين أحضان هذه العسلية التي كانت تضجّ بالاشتهاء، أحسّت السيدة قلقي، فقرصت أذني لائمة، وبصمت، طبعت فوق شفتي قبلة سريعة وجلة، قبلة، أيقظت الفتى الجنوبي الذي دوّخته الحروب، فنام زعلاً، فأخذها إليه، قالت هامسة:

- لا تتعجّل .. أنت كما أنت؟!!.

- شوقي يدفعني إليك؟!!.

مكتبة الفكر الجديد

- ما الذي ذكّرك بي؟!!

- منذ أيام، وأنا أفكر بك ..!!-- طوال هذه السنوات كدت أنساك .. وفجأة، رأيتك، .. تطرق الباب، وتدخل معفّراً برائحة التراب والبارود .

- لكني جئت على أي حال!!

- نعم .. ربما هذه المرة الأولى التي يتحقّق بها حلم، يخصّ أملاً، ظلّ دفيناً طوال العمر ؟

- أقسم ما نسيك قلبي لحظة!!

- أعرف .. أعرف أن رأسك كان يتعمّد نسياني.. هكذا نحن تشغلنا الحياة عن قلوبنا حتى لا نشعر بشيء؟!! _ ها أنت تعرفين كل شيء!!

- وما فائدة السنوات، إن كنت لا أعرف؟!.. هل تظن أن ايامي بعد غيابك كانت سهلة ووادعة..!! --أعرف هذا.. أعرفه جيداً..!!

عادت البنت العسلية، وهي تجر أمامها عربة صغيرة محمّلة بأطعمة شتى، وثمة في العمق تماماً قنينة صفراء، ظلت عيوني تحدق في اهتزازها حتى جاءت إلى مقربتي، قلت مشدوهاً :

- ما هذا ؟

قالت البنت مبتسمة: – كما ترى، شراب ؟

قالت السيدة ضاحكة مثل بنت مبتسمة كالعسلية: – لا تتغابى، لا أحد يصدّق أن رجلاً مثلك سلك كل هذه الدروب دون أن يتعلّم عادة النبلاء!!

مكتبة الفكر الجديد

قلت وأنا آخذ القنينة بين يدي متأملاً لونها الذهبي: – بل هي عادة الفقراء .. تصوري أن أول مَن صنع الخمرة هم فقراء الأرض، وما لبث أهل الجاه أن استأثروا بها .

– ما زلت تكره أهل الجاه هؤلاء ؟

– أهل الجاه .. الذين ما أبقوا على شيء ..!!

– أو تريد تدمير لحظة لقائنا بأفكارك الغريبة هذه؟!!

– ما كنت لأكون لولا هذه الأفكار .. بعد أن غادرتك، صار لكل شيء حساب في حياتي!!

– والآن!!

– الآن .. الآن، يا سيدتي، لا يمكن إلا أن أتقمّص روح ذاك البدوي التائه في قلب الصحراء .. اليوم خمر، وغداً أمر .. ولكنْ: أيّ أمر سيكون غداً أكثر من مواجهة الموت ..

ناولتني البنت أول كأس، فأشرت إليها بالجلوس، كانت عيني تحطّان عمداً عند جسدها الذي يشبه جسد حمامة بيضاء ،وكانت تراقبني بعيون مشتعلة، رفعت السيدة كأسها، وبصمت دلقته، فانتظرت حتى انتهت لأمارس دور الضال بين أبناء الملوك، كانت روح الفتى قد استحضرت كل آثام الملك البعيد، فبدأ يتدلّل، توسّدت السيدة كتفي الأيمن، وهي تداعب بقايا شفتي التي اقتلعتها الحرب، أشرت إلى البنت بأن تتوسّد الكتف الآخر، تمنّعت أول الأمر، فنظرتها بشزر، وغمزتها مزحزحاً جسدها الذي يشبه تل رمل.

قالت البنت التي أصبحت تشبه الكاكاو: – هو أنت إذاً ؟

مكتبة الفكر الجديد

قلت وأنا أداعب أطراف أصابعها: – أنا مَن ؟

قالت وهي تضع يدها فوق فخذي: - عمتي حدّثتني عنك كثيراً.. حتى إني عرفتك ما إن رأيتك.

قلت وأنا أناولها كأساً، تعمّدت ملأها حدّ الحافّة: -- ماذا كانت تقول عني؟

فتحت السيدة عينيها بتعب، فلقد جعلها الشراب الحادّ المذاق تفارق وجعها، وترتمي عند قدمي الاسترخاء، أخذت رأسها بين يدي، وداعبت شعرها الذي وخطه البياض، وقلت بهمس صبي مدلّل: _ هيا، نامي.. فليلنا طويل ؟

هدأت أنفاسها رويداً، فأشرت إلى البنت بأن ترمي فوق الجسد المقرور غطاء، كنت مثل ثعلب يريد الاختلاء بفريسته، لكن الموت يحاوط حضوره، كلما حاول، بخفّة، نهضت البنت، وبهدوء، رمت الغطاء فوق الجسد، وبصبر، أوسدت الرأس حافّة الأريكة، _ لكنك جئت من أجلها !!

قلت وأنا أقربها مني: – والآن، ها نحن وحدنا !!

ضحكت البنت بصوت خافت، قلت: - ربما جئت من أجلها، ولكني وجدتك!.

قالت مبتسمة، وهي تملأ كأسي: - ثعلب أنت، مثلما كانت تصفك!!

محاولاً توسّل عبوديتها، قلت: – كنتُ.. لكن الحرب صيّرتني كائناً مسخاً، لا يدري ما يريد؟

- أو حقاً لا تدري ما تريد ؟!!

مكتبة الفكر الجديد

مَن منا يدري ما يريد . . في زمن الحرب، يا حلوتي، تختلط الإرادات.

- أيّ بلوى تعيش إذاً!! ..

- البلوى، يا مليكتي بالوجع الذي نحمل فوق الأكتاف !

- ما كنت أصدق أنك بهذا الانكسار .. كانت تحدّثني عن الفتى الجامح!!

رنّ الجرس في جوف الرأس، فلقد كانت المرأة العسلية تعرف كيف تخترق شوارع القلق للوصول إلى ما تريد .

تمتلئ روح العسل برذاذ الأنوثة، ومثل مهرة جامحة تلتصق بي شاعرة أن المسافات التي كانت تفصل روحينا غدت مجرد ذكرى بعيدة، تململت السيدة، وببطء شارد، فتحت عينيها، وللحظة، ظلّت تجول في ضوء حضورنا، وضعت فمي عند أذنها، وهمست: _ أحبك!!.

فاشرأبت الرقبة التي كانت تشبه رقبة غزال ذات يوم، وعلت العينين اللوزيتين غمامة حزن، أمسكت باليد التي كانت تلهث وراء الاضطراب، فهدأت قليلاً، واستكان الجسد باحثاً عن موطىء دفء، تعرف أن ثمة هوة سحيقة تفصل بيننا، هوة بنتها السنوات، لكننا نحاول تجاهلها، انحنيت فوق الجسد الراعف بالرغبة، وطبعت فوق الجبين قبلة، تعمّدتها طيّبة المذاق، كانت البنت العسلية الوجه تطرق حياء، فلقد أعطت لنفسها حرية أن تستحوذ علي، لكنها وجدت ثمة حجر، لابد أن تتخلّص منه خلسة، مددت يدي، وقرصتها، فرفعت عينيها إلي، وابتسمت بخفر صبايا مدن الطين، ران الصمت للحظات، فانتظمت أنفاس السيدة، وغفت، كنت أريدها نائمة أزلاً، فلقد اخترت شهرزاداً

مكتبة الفكر الجديد

أخرى أكثر عنفواناً وأنوثة، وأدقّ ألقاً، أخذت رأس البنت إلي، فتراجعت قليلاً، ونظرتني مثل قطّة متحفّزة، ظلّت كفاي تسبحان في فضاء الفراغ، لكني وببطء العارف، أشرت إليها، فجاءت مثل عروس بحر.

كنت أقف خائفاً أمام سؤال مثل هذا .

قلت: – مالك خائفة ؟

هزّت رأسها باستهجان، وناولتني كأساً، كان يشبه شمساً غاربة، أعاود غربتي، فلقد غدت السيدة التي تتمدّد إلى جواري مجرد لوح مطروح، كانت أنفاسها تركض في عمق العتمة، وتعاود الانفلاق، فتبتسم الحلوة العسلية، وتداعب شفتي، كانت تشبه تلك التي فارقتها منذ سنوات، قالت البنت العسلية، وهي تحتضن جسدي بجموح مهرة عربية.. أتتزوجني؟!!

انطش السؤال فوق رأسي، وبدأت مئات الطائرات ترمي قنابلها .

– ليس الآن.. أو تنظرين لهذه؟

هزّت رأسها بيأس، وقالت: _ لن تبقى طويلاً!!

قلت مداريا الموقف لكي لا أخسر أنثاي التي أشعر بها تنشوي فوق نار الارتياح.

– عندها سأكون لك.. هذا وعد!!

مكتبة الفكر الجديد

الجهير فاكهة التوجّس

أدخلني خطوي عبر بوابة تكتظّ بالغرائب، خطو ما لبث أن ملأ فنائي بالرضا، ها هي المحطات توصلني إلى ما أريد دونما عناء رغم ما كنت أبصره مكتظاً في عيني أبي من غضب وكراهية، كان يريد للولد الذي أجبره على أن يكون حصاناً، فنفر، أن يعاود رجوعه، أن يكون ما يريد، ما يملأ قلبه بالفخر بين جمع العصاري الذين لا هم لهم سوى التدخين والتحديق في المماشي البعيدة، والهيام في قضاءات النسوة اللواتي أصبحن مجرد وهم ضاع بين مئات الأوهام المارّة عند جرف الحياة، كان من خلال عينيه يرجوني بأن أعاود عقلي، ويضغط على قلب جدتي، علّها تقدر على إقناعي بالعدول عما أردت، لم يكن عالمي قد استقرّ بعد، كنت أمسك رأس بدايتي محاولاً اعلان تمردي، فثمة ما يجعل الرأس يحترق بأوهامه، وما يجعلني أريد الإمساك بكل شيء، بقبضة كفّ واحدة، يجفل الحصان الذي في أعماقي، فلقد شاخ، وهزمت قوامه، ولم يعد يتأمّل فيرى من تلك الجولات الساعية في إعمار الصمت عقداً أجر العربة فارغة، أركنها عند باب السيدة، وأدخل مسرعاً دون تفحّص لفراغات الشوارع، لم يعد الأمر يهمّني كثيراً، كان صباح السيدة يمسك قلبي حبوراً وعطر جسدها النفّاد يغسل روحي من درن الأحزان، أو ما عاد رأسي يتحمّل تلك الفوضى التي أعيشها بين جدران الحوش المملوء حدّ التخمة بالأجساد، كبر الأولاد، وغدت أختي التي لم تتجاوز الثامنة عشر بعد عجوزاً، تشبه جدّتي إلى حدّ مخيف، كانت زوجة أبي تخلق من هذا الكائن المسالم عدواً، لابد وأن تصطدم به، لكنها ما لبثت أن تتراجع، فثمّة عجوز أخرى، لا يمكن اختراق هيبتها

مكتبة الفكر الجديد

وجلالها، أحدّق في الخطر الذي تعب مبكراً، لم أجد ثمة قدرة على قول شيء، لم أعد أتحدث في البيت كثيراً، كان الغرور والكبرياء يطويان عقلي بكتل من الأسئلة، أرنو إلى كل ما يحيطني بزعل واضح، وأرفس جنوبيتي وحزني مانحاً عقلي أجنحة عميقة، من أجل أن ترحل بي إلى ما أريد، ينظرني عمي باسماً، ويناولني سيجارة، كنا ندخّن خلسة، ونذبح رقاب ذهب البيرة بعد منتصف الليل، علمني هذا العم الذي ذبحته الحروب أن لا مناص من ممارسة كل شيء، من أجل معرفة كل شيء، لا أدري كيف يعد المائدة؟!. . ولا أدري كيف كان ينقل كل هذه الفضائح المصحوبة بالرنين؟!، ولا أدري لم كان يريد اختراق هذه الجدران المسوّرة بآيات الرّبّ وأدعية صلوات الفجر؟! قالت جدتي، وهي تحدقني بشدة.

.. مالك، وهذا الطريق ؟!!

ضغط عمي على يدي بهدوء، محاولاً خش غضبي، كان هو الذي رسم لي مثل هذا الدرب، أشعل مئات من المصابيح، ودفعني إلى أمام، جدتي مغرمة بالاحتفاظ حتى بثياب طفولتنا، كانت تحدق بأجسادنا التي صارت مثل فسائل نخلا » تضحك مشيرة إلى ثوب مشقوق الريق بين يديها . تقول: سأحتفظ بهذا لأولادكم!!

فنذوب مثل فصوص حلم في أحطّم الاختيارات، كانت عقولنا تهيم في رحم النسوة ومكامن أسرارهن، يقول عمي بهمس :

- لا بد وأن تكوّر أنثاي بلون جمار النخل!!

أفتح فمي مستغرباً، فلم أر من قبل المرآة بهذا الشكل، أحاول حصر ذاكرتي بشكل جمار النخل، لكنه يقطع بسيف خباثته حبال قلقي، ويقول مواصلاً: - أنثاي أريدها مثل دخان. . تحسّه دون أن يثقل

مكتبة الفكر الجديد

عليك. . يشعرك بالانتماء والحميمة، أريدها تعرف عني غضبي ونزواتي، ولا تعترض إن وجدتني أصرخ وسط غرفة النوم.

- ولم تصرخ. . ما دمت تستطيع تفتيت غضبك!!

- أو مازلت لم تفهم الدرس جيداً. . الصراخ ضرورة عظمى _ أفكارك هذه ستدمّر حياتنا!!

- وهل عندنا حياة حقاً؟!. . أو تسمّى هذه الغرفة حياة؟! .. أو تسمّي غبشة العمالة وعراك نسوة البيوت المكتظّة بالمنسيين حياة لا لي ماذا ستكمن عليه، إن لم تجدني ؟!!

- قلت متمتماً: - لا شيء. . غير حصان يدور بعربة نفط!!

قال بحزن أثار مهجتي: _ ماذا أكون أنا، إن لم أجدك. . لا شيء. . كلانا حملت أكتافه وجع الآخر، هذا هو القدر الذي يحزنني ..

قلت مقاطعاً: .. ربما متى يتحقق هذا ذات يوم ؟

قال، وهو يأخذ برأسي صارخاً بجنون: ... وربما لن يتحقّق أيّ شيء .. الهواء يظل هواء، والغبار يظل غباراً!!

- أراك تمشي خلف ظلم الأيام!!

- نعم. . وأريدك أن تمشي خلف ضيائها؛ لكي تكتمل اللعبة. . ما لا أراه تراه أنت. . ما لا تراه أراه أنا .. دعنا نتّفق!!

- على ماذا ؟

- نلعب لعبة فاوست والشيطان!!

- كيف ؟

مكتبة الفكر الجديد

- لتكن شيطانك الفادي، ولتكن ربي الناصح وعبدي المطيع. . أكن لك دروباً من الخطايا وأثام، ولتكن أنت الجرس الذي لابد أن أصغي إلى رنينه ساعة الإحساس بالخطر!!

- لن تقدر. . صعب أن ترى نفسك شيطاناً، لابد من موجبات لهذا. . الإنسان أصيل لفعل الخير والعيش بدعة وأمان، والشياطين لا همّ لهم سوى تدمير هذه الدعة وهذا السلام!!

صرخ عمي، وهو يدور حول نفسه بفرح: _ من أين لك هذه الأفكار!!

لا أدري. . ولكني وجدتها هكذا. . وجدتها، وربما لن أجد سواها، ما دمت أرافق الشيطان هدأت النفس التي مارت بالاضطراب، وهمدت الأفكار رويداً. كان يرنو إلى علو السقف، ويطلق آهات الارتياح، أعرف عمي جيداً، أعرفه مجنوناً، يسقى إلى إغضاب ذاته، قالت جدتي:

- لمَ أنت صامت ؟

قلت: — ماذا ؟

قالت: - مَن دلّك على هذا الطريق؟!!

أشرتُ إليه إلى شيطاني الذي كان يتأمّلني بارتياح، كنا قد أتممنا كل شيء، ولم نعد ننتظر سوى خطوة البدء، جعلت أبي يشتعل غضباً، وجعلت أختي تلوذ بأذيال خيبتها دون أن تقول شيئاً، كانت رائحة الحرام تحوم حول البيت، وكانت جدتي تحاول منع هذا الطائي الشرس من تدمير مملكتها الطيبة الساكنة بين يدي.

- اللّه، قالت: - آه، منه .. اختر أي طريق آخر سواه!!

مكتبة الفكر الجديد

قلت متوسلاً رضاها لأمي، أعرف أي المفاتيح تحمل _ جدتي لا شيء يلمني سوى طين الدرب!! قال عمي، وهو يحاول حسم الأمر: _ لن يكون ممثلاً تحذ الاي ولكنه سيدرس التمثيل!! قالت مستغربة: _ وماذا سيكون إذاً ؟!

قال عمي، وهو يقبّل يدها بودّ: – أمي .. فلتخط أولاً باتجاه المعرفة .. وبعدها سيجيء الكثير ! ظلت مطرقة رأسها، تهزّ رأسها، وهي تتأمّل أطراف أصابعها، ثمة ما يملأ روحها بالغضب، وما يجعلها تصارع موجاً عاتياً، من أجل رضاي، كانت تعرف بفطرة روحها أننا أتممنا كل شيء، ولم يعد فائدة من الرفض أو المقاومة، كان عمي يغمرني بالحزن، يجعلني أهيم مثل مجنون في طرقات المدينة، وكنت أتبعه مثل جرو ضائع، نجوب الحانات، ونكتشف أسرار عتمته، ونرى لعب الأكاذيب، نختار امرأة ما .. ونبدأ بممارسة فن الكشف .. يقول إنها تفكر بحبيب لها، فأعلن احتجاجي، وأقول: _ لا . إنها تفكر بوحدتها، وهي على فراش الليل!!

يقول: – ربما لا .. ولكني أرى أن تعبها زائد عن حدّه.

نظرته باستغراب، فلم أعتد منه مثل هذه الأقاويل، أعرف أنه يريد للحياة أن تتغيّر، فكيف يمكن للتغيّر أن يتم، وهو يحاول تعطيل نصف محرّك الماكنة، قلت مستفهماً: – ما الذي أسمع أيها الماجن السابح بالأكاذيب!!

قال: ماذا تقصد ؟

– نغمة لا تتلاءم وما تفكر به ..!!

مكتبة الفكر الجديد

قال: – الفلاح الذي بداخلي صرخ فجأة .. أبداً، لن نقدر على التخلص من هذا الفلاح، مهما كانت أفكارنا منيرة ومشعّة .. قل لي أو تسمح بأن تخرج أختك مع صديق لها دونما اعتراض ؟!

– لا .. ضابط اجتماعي، لا يمكن تجاوزه!!

قال: – ولمَ تسمح لنفسك بتجاوز مثل هذا الضابط؟! .. تعاشر امرأة أكبر منك، وتستغل طيبتها .. بل تبيع لها رجولتك لقاء ما يجعلك تعيش حياة عبث وفرح ورضا .. أين الصدق في هذا ؟! أو لم أقل لك إن الفلاح الذي ورثناه لا يريد أن يترك أرض الروح الذي زرعها منذ القدم؟!!

قال:. . أتدري ما الذي يحدث أن أرضى الواقع؟! وجود الإنسان عندها متعطّل الكثير من الفعاليات الجميلة الزاهية. . تصور أن الإنسان سيعيش دونما احلام.

– هذا تصوّر من طرف واحد. . لابد وأن للواقع المفترض ذاك أحطمه وتجاربه وتفاعلاته.

صرخ محتجاً بصوت مسرحي أربكني – كلّها باطلة .. أكاذيب فكر، وستجد حلمك يحقّقه الواقع، ما الذي تريد أكثر من هذا؟!

– لا بد وأن أحلامي ستنتج أشياء مثيرة وجديدة!!

قال: – عندها؛ سأفكر بحلم آخر، يدفع عجلتي إلى أمام .. حلم يغيّر حلمي القديم، بل ويدمّر أركان ثوابته!!

قال: – وليس أعظم من هذا لذة وطيب فعل ..!!

مكتبة الفكر الجديد

تعطلت أعماقي، كان الرأس يغلي، والأسئلة تحاول الانفلات إلى الشاطئ الذي سيدمّر عبودية السنوات، ويجعلني سيداً لوجودي، كان زمني لا يفكر بغير أناي التي تجاوزت حدود الأنا العادية، خطت أفكاري صوب الخشبة التي اخترت أن أمارس لعبة حيواتها، حيوات تصارع: لتمنح الوجود روحاً للاستمرار، جلست مبهوراً أمام تلك الأحاسيس التي كان يفجّرها مدرّسنا الرصين مثل طابوقة إسمنت، أبداً كان يحفر فينا أسئلة، تثور أحاسيس الجمال في أعماقنا، يجعلنا نترقّب الحياة، وكأننا نراها أول مرة، كانت أيام الحرب تتجدّد هكذا .. أبداً، لن نتشابه أيامها، وجلة تراقب وجلك، وحذرة تراقب حذرك، وكلاهما تراقبان مطر الشظايا والقنابل ومشاعل التنوير، كانت سماوات الأرواح تموت ببطء؛ لتعاود ظهورها من بين كفّي القول الذي يحاول افتراسها .

فما الذي سنتعلّمه في السجن المركزي سوى الضجيج والأكاذيب، وادعاءات الزيف، بين أحضان هذه الجدران الملحاء تجد أن الكل يكره الكلّ كلّه، عالم غريب يخلط قدر الإعجاب بمقادير الترقّب، محاولاً اكتشاف كنه الانتظار – إلى ماذا تريد هذه الأجساد الوصول؟!!

فلا تجد غير أحلام واهية مثل خيط أحلام شيّدتها عقول محترفة لفنّ اللغو والكراهيات.

فما الذي سيعلّمنا السجن المركزي غير الاحتفاظ بعذابات الروح، وهي ترنو إلى ساعات خلاصها ؟!

أوقفني عمي عند منتصف المسافة، ومضى، غادر دون حتى كلمة وداع، حمل حقيبته المملوءة بالكتب، وذهبا إلى عمق الموت، كانت حياته مجرد وهم، فما الذي ستكونه حياتي؟!!.

مكتبة الفكر الجديد

قالت السيدة، وهي تراني أرمي جسدي فوق أول كرسي صادفني عند منتصف الطريق.

- ماذا بك؟!.

رفعت إليها رأسي ببطء، فطالعني وجهها الباش فرحاً، كنت كمن أراها لأول مرة بعد كل هذه السنوات من العشرة والحب قلت

- لقد اخترت أخيراً!!

- ماذا اخترت ؟

- أن أكون ممثلاً هي المهنة الوحيدة التي أجيدها!!

- حسناً، وماذا في الأمر؟!!

- ماذا في الأمر؟! .. أشياء كثيرة .. أبي وجدتي وكل أقاربي .. أن تكون شرطياً، نعم. ولكنّ؛ أن تكون ممثلاً، فهذا يعني تسقط في برك الرذيلة والخروج عن درب اللّه!!

انفجرت ضاحكة، وناولتني سيجارة أرتها على عجل، ونفثت دخانها كمن يحاول طرد متابعة بعيداً، قالت، وهي تضع يدها فوق رأسي:

- مسكين أنت، لم تسقط بعد في برك الرذيلة، ولم تخرج عن درب اللّه!!.

قلت بعصبية، جعلتها تمسك بكلتي يدي – طبعاً .

قالت بمكر امرأة عارفة كيف تروّض حصانها الذي جمح فجأة :

- لا عليك، هو اختيارك وحدك .. وما دام الأمر يرضيك، فلا أعتقد أن أحداً فرض عليك!!.

مكتبة الفكر الجديد

لكن أبي سيطردني من جنته.

وإن حدث هذا، فما الذي سيتغيّر؟

- ما الذي سيتغيّر .. عالمي كلّه سينقلب رأساً على عقب .. سأجد نفسي ألوذ بجدران الطرقات ؟؟

- مَن قال هذا ؟

- واقعي الذي أعيش.. ما يصفه عقلي؟؟

- أنت مجرد مجنون يركض خلف أول ومضة ضوء.

- إن طردك والدك، فهذا بيتك!!.

ارتجف جسدي، والقلب الذي كان يئنّ توجعاً بداء يصرخ، يصرخ بما لا يدري، ربما كانت الثمرة التي تدلّت بين يدي غير ناضجة بعد.

تقول جدتي: – منذ صغرك، وأنت لا تفكّر بغير نفسك!!

تقول أختي: – أورثتني الغضب، فقد أخذ ابني كل خصالك هو يريد ويريد، ولا أدري إلى أين توصله مطالبه!!

يقول أستاذنا :- المطالب أمنيات عاجزة .. اعتمد مبدأ التجزئة – خذ .. واصمت .. بعدها؛ قل: أريد .. وخذ حتى لو كان نصف رغيف؛ لأنك لا بد وأن تسترق عطف الآخر، فيعطيك نصفاً آخر .

تقول جدتي: – أفسدك هذا العمّ الفاسد العاطل عن النهوض بنفسه!!

يقول :-

ربما لا .. ولكني أرى أن تعبها زائد عن حدّه.

مكتبة الفكر الجديد

نظرته باستغراب، فلم أعتد منه مثل هذه الأقاويل، أعرف أنه يريد للحياة أن تتغيّر، فكيف يمكن للتغيّر أن يتمّ، وهو يحاول تعطيل نصف محرّك الماكنة، قلت مستفهماً :

ما الذي أسمع، أيها الماجن السابح بالأكاذيب؟!!

قال: ماذا تقصد؟

نغمة لا تتلاءم وما تفكّر به..!!

قال: الفلاح الذي بداخلي صرخ فجأة .. أبداً لن نقدر على التخلّص من هذا الفلاح، مهما كانت أفكارنا منيرة ومشعّة.. قل لي: أو تسمح بأن تخرج أختك مع صديق لها دونما اعتراض؟

لا .. ضابط اجتماعي، لا يمكن تجاوزه!!

قال: ولمَ تسمح لنفسك بتجاوز هذا الضابط؟! .. تعاشر امرأة أكبر منك، وتستغل طيبتها، بل تبيع لها رجولتك لقاء ما يجعلك تعيش حياة عبث وفرح ورضا .. أين الصدق في هذا؟! أو لم أقل لك إن الفلاح الذي ورثناه لا يريد أن يترك أرض الروح التي زرعها منذ القدم؟!!

قال: .. أتدري ما الذي يحدث أن أرضى الواقع وجود الإنسان عندها ستتعطل الكثير من الفعاليات الجميلة الزاهية؟! .. تصور ان الإنسان سيعيش دونما أحلام.

هذا تصور من طرف واحد .. لابد وأن للواقع المفترض ذاك أحلامه وتجاربه وتفاعلاته .

صرخ محتجاً بصوت مسرحي أربكني – كلها باطلة.. أكاذيب، فكّر، وستجد حلمك يحقّقه الواقع، ما الذي يريد أكثر من هذا؟!.

مكتبة الفكر الجديد

لابد وأن أحلامي ستنتج أشياء مثيرة وجديدة!!

قال: أقسم لك أنها ستنتج غباراً.. روث أكاذيب.

قلت: عندها؛ سأفكر بحلم آخر، يدفع عجلتي إلى الأمام .. حلم يغيّر حلمي القديم بل، ويدمّر أركان ثوابته!!

قال: وليس أعظم من هذا لذة وطيب فعل ..!!

تعطّلت أعماقي، كان الرأس يغلي، والأسئلة تحاول الانفلات إلى الشاطئ الذي سيدمّر عبودية السنوات، ويجعلني سيداً لوجودي، كان زمني لا يفكّر بغير أناي التي تجاوزت حدود الأنا العادية، خطت أفكاري صوت الخشبة التي اخترت أن أمارس لعبة حيواتها، حيوات تتصارع لتمنح الوجود روحاً للاستمرار، جلست مبهوراً أمام تلك الأحاسيس التي كان يفجّرها مدرّسنا الرصين مثل طابوقة إسمنت، أبداً كان يحفر فينا أسئلة تثور أحاسيس الجمال في أعماقنا، يجعلنا نترقّب الحياة، وكأننا نراها أول مرة، كانت أيام الحرب تتجدد هكذا .. أبداً لن تتشابه أيامها، وجلة تراقب وجلك، وحذرة ترقب حذرك، وكلاكما تراقبان مطر الشظايا والقنابل مشاعل التنوير، كانت السماوات والأرواح تموت ببطء؛ لتعاود ظهورها من بين كفّي القول الذي يحاول افتراسها.

فما الذي سنتعلّمه في السجن المركزي سوى الضجيج والأكاذيب، وادعاءات الزيف، بين أحضان هذه الجدران الملحاء تجد أن الكل يكره الكل، بقدر ما يحب الكل كله، عالم غريب، يخلط قدر الأعجاب بمقادير الترقّب، تسأل محاولاً كنه الانتظار – إلى ماذا تريد هذه الأجساد الوصول؟!.

فلا تجد غير أحلام واهية مثل خيط أحلام، شيّدتها عقول محترفة لفن اللغو والكراهيات. فما الذي سيعلّمنا السجن المركزي غير الاحتفاظ بعذابات الروح، وهي ترنو إلى ساعة خلاصها؟!

مكتبة الفكر الجديد

نظرت إليها متعجباً، كانت تقول في غياب عمي هذا، وكانت ترى فيه الحامل لحكار الجد الذي مضى بعد أن ترك وراءه حكايات، تشبه طحين التمن وساعة دقاقه يقال إنها ساعة جيب السلطان عبد الحميد، ترك خلفه إرثاً من المجانين والباحثين عن الغرابة، فما الذي جعلها تفوه بغير ما تؤمن ليلة نامت في فراش بارد، وهي تنقلب متحسّسة آثار الجد الذي كان يصهل الليلة الفائتة، حاولت تجدون حدود معاريفي، فقرفصت إلى جانبها مثل بزون شبعان، وبدأت أتأمّل امتداد الوشم الداخل حتى مفترق الصّرّة، كانت تعرف أن وراء ختلتي انفجار لابد وأن يدوي، قلت بعد أن طمأنت حياتها وهدهدت مخاوفها مثل طفل رفيع.

قبل أن يغادر أو لم يكن لك شيئاً!!

تجاهلت سؤالي، ظلّت العينان مسمّرتان إلى باب، ولحظة دخل عمّي، شهقت وفر الجدّ مندفعاً إلى أمام، ولكنه ما لبث أن تراجع حاسراً بسيطرة خيبة الأمل، ما كانت جدتي، ما كان ثعلبها الماكر، يصدّق أن الجد الذي مضى لن يعود، قالت:

اترك هذا، لا تنبش قبوراً فارغة !.!

قلت، وأنا أداعب أرنبة أنفها، لكني أريد معرفة الليلة الأخيرة التي قضاها معك!!

رنت إلي، وتبسّمت إلى العمّ الذي جلس صامتاً، وثمّ زعل واضح، يرفل فوق شفتيه، كان يعرف أني ماجلست إلى خريف الأيام هذه إلا من أجل الجري خلف سرّ، يومض ضوء حكاية الغرفة، قالت وهي تتنحنح وتزحزح جسدها المتكوّر مثل لفّة خيوط إلى مسند الحائط:

_ ما كان معي ليلة غادر .. عاد عند الفجر، وهو يتمتم بكلمات لها وقع حجر فوق الرفى وسيظل يملأ عينيه بجسدي الممدود مثل لوح،

مكتبة الفكر الجديد

كنت أتوجس منه خيفة، اعتدت مروياته الصغيرة مثلما اعتدت حضوره المفاجيء .. قال وهو يلاعب ضفيرتي المحيطة بدقائق الرقبة مثل عربيد أسود .

- أو يحزنك، يا امرأة، ما يمكن أن أقوم به!!

انتفض بدني، واستقامت روحي التي شعرت أن ثمة مطر مدو سيجعلها تنزف لسنوات طويلة، كنت أعرف أن رحيله سيكون أبدياً، أخذت رأسه إلى صدري، وقلت محاولة طمأنة روحه .

- روحك تحترق، فلمَ هذا الاحتراق؟! .. من أجل ماذا تترك قلبك يتوهّج ؟!

غاص السؤال في لبّ ألمه، وفجأة هدرت عيناه بدموع حارة، ما لبثت أن سالت فوق الصدر؛ لتغسل مواجعي، كنت أعرف كم هو صعب أن يبكي رجل مثله، أركبته أيام مراكب مفاخرها فوق صدر امرأة يحب؟!! امسح وجه الحوش برضا ، وأمسك قبض تراب بعصبية، كنت أدري أن المسافة بين الغضب والارتياح هي ومضة حب، يمكنه أن يدمّر كل شيء، ويمكنه أيضاً الارتفاع بالأجساد إلى مستوى هامات النخل، كان رأسي يطير فوق هامات وبساتين، فيبحث عن لحظة لقاء حاسمة، تجعله يتفلّش بين يدي، ويذوب مثل قطعة صابون، يأخذ إصبعي إلى قلب الخربة، ويظل ناظراً إلى انسحاق الطين تحت ضغط الارتجاف، يقول هنا .. عند القلب أجد ضالتي:

- ماذا هناك؟

_ ربما لا شيء، وربما أشياء كثيرة .. تلّ من تراث الأجداد .. سلاسل من ذهب وزوارق من نحاس وفضة وفخار.

مكتبة الفكر الجديد

- لكنه بعيد، ونحن ما بحاجة إلى ذهب.

نحن .. ما أريد شيئاً لنفسي، يا بنت.

- لمن تريدها، إذن؟

أعود بها، فأبني هذا الخراب، اجعل الناس ها يودعون جوعهم وفقرهم إلى الأبد .. اشترى أرضاً، وأحيطها بسور عال:

.. أو تريد أن يصير الناس سواسية؟!

- ولمَ؟! ... مسكينة أنت وساذجة .. هذا ما أريد، يا بنت .. إلغاء فوارق الفقر، بل الفقر نفسه. نظرني بحزن، ودفع كفّه إلى عمق الطين، وما لبث أن ملطخ وجهي، وهو يضحك قائلاً:

- أنا لن أتزوج .. لا أريد امرأة، تجعل خطواتي تتعثّر؟

- وما الذي تريده، إذن ؟

- قلت لك حلمي هو الذي أريد .. حلمي الذي لا بد وأن أصله ذات يوم.

نظرته باستهجان، منذ صباي، تعلّمت كيف أضغط فوق مواجع نفسه، فأجعله ينبق بغضب، وما يلبث أن يعلن استسلامه ملفوفاً بكتمانات وأسرار، يظل يراودها لزمن طويل، ظلّت مخاوفه ترفس صدري، وكان قلبي يحيط بانهياره، أرادت الصراخ، أردت لملمة مواجعي ومناداته، لكني كنت أعرف أن صوتي سيضيع في لجج.

أغمضت جدتي عينيها، ونامت روحها محاولة الإمساك ببقايا أنوثتها التي غادرت فراش الفرح مبكراً، أخذت بودّ رأسها إلى صدري، فجفلت متنهنهة، وببطء، طبعت قبلة فوق طرف عماماتها التي انغمرت

مكتبة الفكر الجديد

بفضة الليل، تنحنح عمي، وظللنا نهيم في محارب البحث، ما كنت بقادر على لمّ رؤياها، وما كنت بقادر على الصمت الذي كان لحظتئذ، كائن يشبه تنّيناً، يقطع أوصال معارفنا، أخذ عمي بيدي، وبمكر نسائي أثار دهشتي، قال:

- دع كل شيء .. فلدي ما هو مهم !

اشرأبّت رقبتي، وبدأت أعماقي تشعر قلقاً غريباً، فقد كانت عيناه تومضان بضوء ساخن، لا يوحي بغير الضياع، كنت أعرف أنه يحاول دائماً شدّي إلى عوالمه المتجددة، عوالمه التي جعلتني أهفو إلى الالتصاق به مثل قرادة. قلت وأنا أتبع خطواته التي بدأت تقضم فراغ الزقاق: - ماذا بك ؟

قال كمن يكشف سرا: - أنا ملاحق ؟

قلت مرتجفاً: - ملاحق .. ما الذي فعلت ؟

قال وهو يتنفّس هواء رئتيه عميقاً، ويحدّق بخطواتنا بشيء من الارتباك:

- ما الذي فعلت؟! .. لا شيء سوى أني قمت بتوزيع بعض المنشورات.

طفرت آلامي إلى حنجرتي، فشعرتها تجفّ، حاولت تجاوز مخاوفي، لكنّ؛ ثمة مَن كان يشدّني إلى سحيق قلقه، أعرف أن عمي لا يمكن أن يتراجع أمام إلحاحي، ولا يمكن أن تحدّه مخاوف الملاحقات عن تجاوز حدود الممكن التي ما كان يصدق وجودها، لا أدري كيف وجدت جدي يفطر إلى جانبي ؟

مكتبة الفكر الجديد

- وما العمل ؟

ضرب قفاي بحركة مباغتة، وهمّ بالنهوض، لكني سحبته إلى عفونة الرصيف وسواد الطين، ثم مسارب من وحول تمر أمامنا، وحول كنت أراها باستغراب مثل مَن يرى ميتاً عند قارعة الطريق دون أن يكترث لوجوده أحد، يقول عمي، وهو يقرص أذني:

- وماذا تريدني أن أفعل .. سنواتنا واحدة .. وجوعنا واحد، ولكنك لا تريد فهم هذا الجواب.

- أفهم ماذا .. أننا نغادر أحلامنا؛ لنسقط في أتون نيران، نعرف جيداً أنها لا تبقى على شيء .. دعنا فنحن إلا نعرف من نحن، وما الذي نريد من أنفسنا؛ لنصل إلى ما يريد الجميع .. ما تحمل من أفكار يبدو شاذاً أمام رغبات جدتي!!

- أو جدتك قياس الرغبات، يا .....؟!!.

- إذا كنت لا تقنع التاريخ بما تريد أن تفعل، فلا يمكن أن تقنع حاضرك، أما المستقبل، فسيبدو مثل غيمة صيف كاذبة، تصدقها دون إيمان مطلق!!.

- ما دخل التاريخ بما يُسقى إليه .. لا تلتفت إلى وراء، فلم يكن هذا الوراء سوى مجموعة أخيلة وأكاذيب.

- وستكون أنت ذات يوم مجموعة أخيلة وأكاذيب .. لو آمنا بما نقول، لكنا نقف على ركام من الأكاذيب، ولكان جدك أكذوبة، ولغدت التواريخ محض هراء، لا يمكن الإفادة منه!!

- قد نعم ... وقد لا، بقدر ما يلتصق وجودك بالواقع، يكون وجودك بين أحضان ما تسمّيه التاريخ!!.

مكتبة الفكر الجديد

- وأي الوقائع تريد تسجيلها؟! .. الحروب مثلاً، والتاريخ مليء بغبارها .. الخيانات التي ذبحت المبادىء، اقرأ، وسترى ثمة ما يلصب القلب - التاريخ دائرة، لا انتهاء لها، مركزها الحكاية والإنسان!!

- أيّ حكاية! وأيّ إنسان!!

- الحكاية حتى وإن كانت وهماً هي حكاية .. والإنسان لا يمكن نسجه من خيال فقط، كما تعرف!!

- ونحن لابد وأن نسعى إلى تدمير هذا الوهم وهذا الخيال!!

- ما أبسطه!! .. أنت تحلم فقط، وتخاف أن يسجّل التاريخ خوفك هذا .. وأن تستيقظ ذات ليلة، فتجد أن حلمك أكذوبة، قتلتها الخيانات الصغيرة ..

- خيانات ماذا؟!!

- خيانات المبادىء العصية على التطبيق .. خيانات الأفكار التي ما إن تصل إلى مفاصل الواقع حتى تتحول إلى جرف مهترئ .. خيانات الحالمين أنفسهم، أولئك الذين يجدون أن ثمة فرقاً شاسعاً بين المبدأ وتطبيقه .. عندها؛ ولا بد أن تمارس خيانة ما!!

- ويلك! .. تضعني عند حافّة الانهيار!!

- ولمَ لا نسمّيه حافّة الوضوح؟! .. قل لي كم هو الفرق بين الفكر الذي تحمل وخطوات التطبيق التي ترافقه ؟

- ولمَ تسمّي هذه خيانة؟!!

- وماذا يمكن تسميته؟! .. تصحيح .. لا بأس .. انحراف عن درب المسير، إن كانت التسمية تهمّك إلى هذا الحد!!

مكتبة الفكر الجديد

- التسمية .. تحدّد المعنى!!

- تحدّد المعنى الذي هو في محصلته ابتعاد عن الهدف المرجو - ابتعاد عن فكرة الحلم .. وربما الاتجاه صوب حلم آخر .. حلم قد يختلف كلاً عن الحلم الذي كنت عنده عمرك كله!!

انتفضت روح عمي، فلم يعد يتحمّل لعب الألفاظ هذا، كان قد قرر الرضا عن خطواته بين شوارع وأزقة، قد لا تؤدي به إلى غير التلاشي، كانت فكرة أن يموت عمي، هكذا فجأة تؤرّق مخيلتي، وتجعلني أرتجف مثل كلب مبلول، فأبصره متوسلاً بأن يهجر هذه الدروب التي لا يمكن أن توصله إلى غير البلوى والشتات، أرفع بصري قليلاً، بهدوء كدر، وأرى إليه، إلى وجهه الذي تحجّر خلف زجاج الصورة، وهو يهمس بصمت شفتيه، قالت بغير ما ارتياح:

- لقد تأخرت!!

أجلست جسدي بصمت، ومددت ساقي مثل مَن يتهيأ لصراخ، قلت: ..

- لا أدري، لقد وجدت نفسي تائهاً!!

قالت وهي تضع صينية الطعام أمامي، كانت تنتظر، تقف عند الباب، وتبحلق في بصيص الضوء، ولحظة تسمع الخطوات تخترق القمة، ترفع رأسها، لكنها ما تلبث أن تشعر بالأسف والحزن، كانت الخطوات تمضي، وهي تجلس عند ألم انتظارها، وأنا أعيش عتمة ضياعي.

- عمرك كله تعيش هذا التيه، فما الذي وجدت؟!!

أشرت إلى الرجل المعلق أمامي، الذي كان صاحبي وعمي، وأطلقت بصوت تعمّدته ممطوطاً متراخياً غريب الإيقاع.

مكتبة الفكر الجديد

- سليه، إن كنت تستطيعين .. هو الذي وضع خطواتي عند بوابة هذه الشرود .. فتحت عيني، فوجدته أمامي، أخذ بيدي دون أن يقول له أحد لا .. ومعاً .. حتى وصلتا إلى نقطة الموت، ذهب، وأبقاني أنتظر .. أدنت الصينية مني، ورنت إلى العم الملصق فوق جدران الانتظار، كانت تعبر قلق مخاوفها بعد أن غمرت جسدها بأضرية الحب والآمال، واعتمدت على خطوات الإنسان الذي كانت تراه مثل فرحة عابرة، أبعدت الصينية قليلاً، فليس ثمة ما يجعلني أرغب بالطعام، كان رأسي يحترق، وعمري يتبدد، ولا بد من لحظة هدوء، كنت أرغب بممازحة أولاد العم، لكنهم أيسوا من عودتي، فقاموا يحفّهم الخوف والاضطراب، أمرتني مثل عسكري محترف أن آكل، ضحكت روحي لمثل هذا التصور» أن تكون وجة عمي، معلمة الأولاد المشتعلة بالحزن عريفاً، يصدر الأوامر عند سواتر تصرخ، فتضجّ وجوات الجنود بالهمسات، يا له من عريف! .. وما أغرب أن ينام وحيداً، وهو يحلم بالدفء، قالت: _ كلاكما أضاع الكثير من أيامه .. فلمَ لا تحاول الحفاظ على ماتبقّى ؟ آلمني السؤال، جعلني مثل كلب ينبح سواد الليل، كانت رغبتي إلى القيء، تشتد ، لكني أعرف أن بطني فارغة، وأن معدتي تتألم من وجع الكلام الذي يلمس صدق وجودها، نظرت إلى الوجه مباشرة، لم أعتد مثل هذا التحدي، فمنذ زمن التلاشي الذي أخذ عمي بين جوانحه، وأنا أتحاشى النظر إلى الوجه المليء بالحزن، أحاول الإبقاء على صفاء محبتنا، إلى الحلقة التي فقدت بين طيات أطنان من الأترية والشظايا والبارود، قالت :

- كل .. واهدأ قليلاً!!

قلت: – لا أريد .. لابد وأن أذهب!!

مكتبة الفكر الجديد

قالت: – إلى أين ؟

قلت: – ربما تكون جدتي تنتظر .. أريد أن أنام في حضنها!!

قالت: – ما زلت تحسّ نفسك صغيراً!! قلت: –ومَن إذاً لا يودّ العودة إلى صباه .. أمنحك ما ترغبين، إن أنت أعدتي إلي هدوء صباي، وأسئلة الرأس الحالمة أعيدي حصاني الذي نسيته عند البيوت العالية الأسوار، أعيدي إلي روح الولد الذي لم تدمّره الآثام بعد، وخذي ما تشائين مني الآن ..!!

قالت هامسة: – أوحقاً تريد هذا!!

قلت: – حقاً .. وحقاً .. وحقاً .. أوتدرين ما الذي يربطني بجدتي هذه .. حلم مات بين خفايا جدي، ورحل دون أن يعرف عمي سرّه، وها أنذا أتفنن، من أجل لحظة الوصول إليه!!

قالت: – أعرفه .. صاحبك حدثتي عنه .. ملأ رأسي بوساوس الاختفاء العجيب .. وكنت أنام، وأنا أستمع إلى رنين سلاسل الذهب ودوي الطبول .. ونداءات الاستغاثة التي تطلقها أفواه التل الساكن قلب الهور!!

قلت: – ربما ستكون رحلة النهاية، بالنسبة إلي!!

قالت: _ ما الذي يمكن الحصول عليه .. لا شيء غير حلم، قد تراه مجرد كذبة، ضاعت عندها الأعمار!!

قلت: – يا لها مأساة! إن كان كلامك هذا حقيقة – أيّ شر تضعين أمامي؟! .. أصل، فلا أجد سوى وهم، زرعه جدي في رؤوس أبنائه وأحفاده .. أيّ وجود سيكون لي بعدها!!

مكتبة الفكر الجديد

قالت: - وهذا ما جعل جدك يقف خطوة، ولن يعود!!.

مثل دورة حفرت كلماتها عميقاً في صخر ذاكرتي، كان جدي يبحث عن سبل مبادئه، ولا أظن أنه أوقف خطواته عند طريق صمته الذي أدت به الأيام إليه،، فثمة ما يحتّم عليه بالرجوع، ولكن زوجة العم أوجرت كانون مخاوفي، ورمت بي إلى وسط ضياع ... ماذا إن ذهبت إلى هناك؟!، ما الذي سأجده غير صدى نداءات قديمة وجثث طافية فوق سطح الماء، وطيور أخافتها الحرب، فهجرت السماء، وحبست أجنحتها بين صفير القصب، ماذا لو لم أجد سوى وهم، أأعاود الرجوع خائباً، مطلقاً ضياعي وانكساري، أم تراني أربط نفسي بسلسلة ذهب، وأغوص عميقاً في كدرة الماء، محاولاً البحث عن خلاصات لأعماق السحيقة، أيّ خيبة أمل ستقتل نور انتظاري، وأيّ فوضى ستحيط بي، ظلّت جمجمتي تغلي مثل دورق تيزاب، وظلّت زوجة عمي تلاعب دمية وحدتها، فثمة ما يجعلها تهيم في براري ضياعي، أبعدت يدي الصينية بعنف، وتمدد الجسدي، فلقد شعرت بتعب مفاجئ، وبحاجة إلى النوم، أغمضت عيني، فدفعت المرأة وسادة ريش تحت رأسي، لم أشأ خلع ملابسي، فلقد اعتدت مثل هذا النوم الذي لا راحة فيه، هناك تغمرنا السواتر بالحزن، فننام، ونحن منكفئين إلى ذواتنا، نرمي أجسادنا عند أول فراش، ونغمض مباصرنا؛ لكي لا نحسّ بوحشة الليل وآثام مباهجة، تحرّك جسدي قليلاً، وبدأت أوصالي تدفع اضطرابات الدم إلى علو الجمجمة، فثمة شيء بدأ يحترق، كانت زوجة عمي تداعب زغب شعر رأسي بحنو، وتهمس لنفسها بكلمات مبهمة، جعلتها تطلق عصافير الحزن رويداً؛ لتملأ فضاء الغرفة بالانهيارات المرعبة، فتحت عيني ببطء، كانت أصابعها تستقر بين مفترق رقبتي والصدر، تبسّم الوجه، وتوردّت الخدود، ولاذت التقاطيع بمودتها ، قالت: - لمَ استيقظت؟!

مكتبة الفكر الجديد

زفر قلبي تعبه، ورنوت إلى بياض وجهها الملفوف بسواد الحزن: - لا اسري!!

أخذت رأسي بتؤدة إلى حجرها، وهمست: _ نم .. دعني، أعيدك إلى طفولتك!!.

قلت، وأنا أحس بتثاقل جسدي: - لن يقدر أحد على هذا ؟

قالت وهي تضغط فوق حنجرتي بهدوء: - بل أقدر. أنت لا تعرف مَن أكون!! قلت: - بل أعرف .. أعرف، لكني أخاف!!

- ولمَ الخوف؟! .. لمَ لا تهمّك وحدتي وانتظاري مثلما تهمّك أحزانه؟! .. من الأولى بالاهتمام الذكريات التي لا طائل من ورائها .. أم الحاضر الذي يريد أن يعيش.. لمَ تتعمّد تجاهلي؟!!

- إلى أين تريدين الذهاب بي ؟

- إلى حيث تشاء أنت .. فقط؛ تجاوزْ حزنَكَ ... وقلْ نعم، ولسوف ترى أيّ معنى سيكون لوجودي ووجودك!!

- نعم. من أجل ماذا؟

- من أجلي .. من أجل أن ...!!

قلت مقاطعاً: _ صعب أن أنسى .. وصعب أن نستمرّ!!

ران الصمت، وظلّت هي تداعب طرف ضفيرتها التي نبقت من وراء غطاء رأسها مثل حية رقطاء، كنت أحس آلامها، ولكني لا أعرف كيف أسهم في إنقاذ هذا الخراب، مدت يدها، وأخذت بيدي التي كانت تستقر مثل يد ميت فوق صدري، بدأت تداعب الأصابع التعبة، فتكسر ورم أحزانها، هدأ دوران رأسي، ورويداً، امتلأ القلب بصدى نداءات

مكتبة الفكر الجديد

قديمة، كانت اليد المرتعشة تزحف رويداً باتجاه غابة الصدر التي أشرقت ببعض الشجيرات البيض، تداعب خفوتها، فمتلأ الروح بالأمان والحزن، حاولت التخلّص من كل ما يحيطني من آثام، أنت المرأة لحظة أحست حرارة الجسد، ففتحت عيني، وخزت أطراف أصابعها إلى فمي، كان الضوء يسطع بين العينين، وثمة برق، يملأ الأرجاء.

قالت: _ ماذا تقول؟!!

قالت: _ لا أدري؟!!

قالت: _ دعنا نعيش غواية أنفسنا!!

قلت: _ لن أقدر ..!!

قالت: _ أوتريد اعترافاً صريحاً .. كل هذه الدلالات، ولم تفهم؟..!!

قلت: _ اسكتي، يا امرأة .. فلا أريد الاندفاع باتجاه الهاوية؟!!

قالت: _ هاوية ماذا؟ .. وأنا .. أنا أحبك!!

رفعت رأسي إلى عمق عذابي، كانت ظلمة الغرفة قد تبددت فجأة ،وغدت السماء بلون النار، فثمة ما يجعلنا نسقط في برك الخراب دون أن نعي، علمتني سيدة البيت التي سرقت فحولة صباي مثل هذه الألاعيب، وعلمتنا الحياة أن الجواد لا يمكن أن يكون جواداً دون حمحمة جامحة، وفرس ترضي غروره، تبسّمت المرأة، واقتربت مني قليلاً، كانت تخرج أنوثتها المعطّلة بشيء من التردد والخوف والقلق. قلت:

-ربما نرتكب إثماً !

مكتبة الفكر الجديد

قالت وهي تقبّل خدي بسرعة برق: - ومتى كانت الآثام تهمّك؟!! .. فقط: قل نعم. وستجد كل شيء كما تريد!! أخذت ليل رأسها إلي، وببطء، نثرته فوق فضاء الغرفة، فتطايرت أشلاء الانتظار، أحسّت المرأة انتصاراً.

ودون تردد، نهضت قائلة: _ سأعود ..!!

نظرت الخطوات، وهي تتجاوز حضوري مسرعة، تململ الحصان الذي في داخلي، وكره الفتى الجنوبي إيقاظه بعد كل هذه السنين، كنت أشعر أن عمي قد صار مجرد عاصفة بعيدة، غباراً، لا يعني شيئاً البتة، ما لبثت المرأة أن عادت، كانت ترفل بأنوثة أخرى، أو مئات من باقات الورد تحيط جسدها الذي برز من خلف سترها الشفيف، أشرت ببطء إلى الصورة المسمّرة أمامي، قالت: - ماذا ؟

قلت: - ارفعيها!! ضحكت بملء نواجذها، وبهدوء، رحل عمي من فوق سنوات انتظاره، مغادراً العتمة إلى نسيان، ربما سيكون أبدياً، قلت: _ ما أجملك ! قالت، وهي تبدأ بفكّ أزرار قميصي: _ حسناً، إنك عرفت هذا الآن!!

قلت بحزن:

-قدرنا أن نعرف أحلامنا متأخراً!!

قالت وهي ترمي القميص عند طرف الفراش:

-أوَ كنت حلماً لك؟!!

قلت وأنا أنظر حركة أصابعها التي بدأت تجوس فوق صدري:

- ما فائدة اعتراف كهذا ؟

مكتبة الفكر الجديد

قالت وهي تداعب شفتي مبتسمة:

-لا تبق سرك دفيناً .. فأنا أعرف بعض ما تقوله العيون!!

تحرك قلق رأسي مثل مَن سكب نفط فوق خشب جاف، قامت نيران البوح، كنت أحاول نبش الماضي، تلك اللحظات الميتة التي كانت لحظئذ تأز بأوار، جعلني أرمي بنفسي وسط انهيارات أزمنتي الغابرة، كان عمي يقف عند باب الحوش، وما إن رآني أزحف باتجاهه حتى زحف باتجاه الموت .. زحف وثمة شعاع من الفرح يملأ قلبه، قال، وهو يحتضنني مقبّلاً خدي :

-كم تأخرت؟ ... أين كنت ؟

قلت وأنا أنظر ساعة معصمي: _ لم أتأخر. هذا هو وقتي!!

قال:-- كان الوقت ثقيلاً .. ذبحني الانتظار.

قلت وأنا أرمي كتبي إلى أرض الغرفة وآخذ بيده إلى الخارج. وقفت أختي غير بعيد عنا، وهنية رأتنا نعاود الخروج، أطلقت آهة ارتياح، كنت أعرف ما تحمله من زعل اتجاهي، أعرف كم دمّرت من الأحلام داخل نفس هذه البنت التي وجدت نفسها أماً لسبعة أولاد قبل أن تعرف ما الذي تعنية كلمة أم، كانت تتحرك منظمة أعمارنا، وكنا نتجاهل وجودها، فلقد اخترنا السقوط في الآثام، وقد اختارت هي البقاء عند ضفاف الصمت، قلت بصوت خفيض:

- ما بك؟ .. أراك مثل حصان محترق الأطراف؟!!

رمقني بنظرات عتب، وإرث سيجارة، وبعد أن تابع خطوط الدخان وهي تتبدد في روح الفضاء، قال:

مكتبة الفكر الجديد

أحسّ برغبة عارمة إلى أن أشرب !

قلت متعجباً: -وهل هذا أمر يتطلّب العجلة ؟!

- لا .. ولكني لن أقدر على إعلان ما أريد قبل أن أسقط في خضمّ برك فقدان الذاكرة، لدي قرار، أعتمد فيه على كل كلمة منك!!

- مني .. أوَ ستترك طريق الأوهام؟!!

قال غاضباً: -لا تسمّ مبادئي أوهاماً .. ما تؤمن به هو الوهم!!

قلت ضاحكاً: لأنك لن تجد ما تلاحقني به!!

قال: - بل لدي اعتراض على كل ما تؤمن به!!..

- ولمَ لم تفعل ما دمت قادراً؟

-- لأني إن فعلت هذا دمّرت نفسي .. أعشق أفكارنا، وهي تتصارع .. نحن رغم ما يربط حياتنا من جرائم وآثام، نقف على طرفي نقيض!!

كانت خطواته تدفعني إلى قلب الحانة التي كانت تسبح بليل من الدخان والهمسات التي تسيل مثل لعاب، أجلسني عند زاوية معتمة، وأشار إلى النادل الذي هب يحمل بين يديه قناني البيرة السابحة بالبرد، قلت: لقد رتبت ضيافتي جيداً!!

- احترامك واجب لهذا اليوم، على أقل تقدير!!.

وضع النادل كتل البرد فوق المائدة، وحياني مبتسماً، ولحظة أكلته العتمة، دلق عمي كأسه بتوتر وعصبية ظاهرة، ثمة تغيير بدأ يحيط أفعال الفتى الذي أراه بعيني الورد، قلت وأنا أحاول احتواء عصبيته:

مكتبة الفكر الجديد

- إنك مثل مَن يقرر عبور بحر فوق ظهر قشّة!!

حرك رأسه وهو يحدق في وجهي الذي تعمّدته مكفهراً، وما لبث أن أخذ بيدي، مثل مَن يتوسل لحظة نجاة:

-أكذب، إن قلت لك أنا غير هذا .. ليس بحراً، بل محيطاً، سأكون بعده كائناً آخر!!

- أوجز .. ودعني أفهم ما تريد!!

- يا ولد .. لولاك ما عرفت كيف سأكون ؟

_ كفّ عن هذا التملق الكاذب .. فأنت ما تلبث مهاجمتي بعد أن تصل إلى مبتغاك!! ابتسم بألفة ولد أعرفه، فلقد خبرت قلقه، وعرفت معنى أن يغرق في زمن الاضطراب، قال بصوت خجل يشبه صوت أنثى خانقة:

- أنا أحبّ .. وأريد الزواج!!.

غسلت وجهه بضوء عيني، كان يتابع وقع كلماته فوق سطح عالمي الذي سقط في ركام هذه المماشي السريعة، قلت:

-تحب .. نعم .. ولكن الزواج!!

-هذا هو شرطها، لا حب دونما زواج ..!!

- امرأة ماكرة، عرفت كيف تمسك برقبتك !

- بلى .. ليس رقبتي فقط، بل جعلتني حصاناً لعربتها!!

- ما دامت بهذه العظمة .. فقل لي مَن تكون ؟!

- لا تضحك مني، أرجوك، إن عرفت مَن تكون ؟

مكتبة الفكر الجديد

- ولمَ الضحك؟! نحن نناقش أمراً هاماً!!

- نناقش لا .. أريد قراراً، لقد مضى عهد الحوارات التي لا تؤدي إلى غير الغضب!!

- حسناً .. قل لي مَن هي صاحبة العربة التي جعلتك حصاناً ؟

ارتبكت حواسه، وظل يبحث عن درب يفضي به إلى إعلانه، قال بهمس:

- أنت تعرفها!!

قلت مقهقها:

- يالـه مـن اكتشـاف .. طبعـاً أعرفهـا .. فقـط؛ دلّـني علـى أول السطر.

رفع قينـة البيرة إلى فمـه وبدأ يدلق دون أن يسـحب نفساً، كان يقف عند ضفاف خطرة، ضفاف لا يريد تجاوزها؛ لكي لا يدمر خلفه كل شيء - لا تتردد .. فلا معنى كل هذا التردد!!

وضـع القنينـة الفارغـة بعصـبية وأرث سـيجارة، وبعـد أن اطمـئن لهدوء قلقي، قال بفتور.

- ابنة الحاج كاظم!!

شهقت روحي، وبقيت أرى إليه مشدوهاً، فلقد سقطت الرصاصة التي أطلق في ورم القلب، وساحت دماء الاضطراب اندغمت أحلامي وظلمة المكان، وهامت نفسي في دروب مهجتي، كنت أرى إلى البنت وهي تكبر رويداً وأتابع أخبارها ليل نهار، فما الذي وضعها أمام هذا الخراب الذي اسمه عمي؟!! ظلت نظراتنا خرساء، عاطلة عن ممارسة ضيائها،

مكتبة الفكر الجديد

كانت أختي تعرف احتراقات نفسي إزاء البنت التي وجدتها تكبر فجأة، همست لها: -- إني أريدها، فسرت الأمر، وابتهجت غمازتاها، قالت: - لا بأس عليك. . رضيت أن تكون لك!!.

أنشدت جمجمتي إلى أغانيها، ووجدت أن ثمة رغبات بدأت تنبق مثل جسد غريق، كنت أريد الغناء. . أريد البكاء، أريد الركض رافلاً في شطآن طين الأزقة، أريد الصمت، أريد الارتماء بين أحضان أمي التي غادرتني، أريد تجاوز أعراف الجدران التي تفصل بين روحينا والهمس في آذان الود.

- أحبك ..!!

اندفنت نفسي بين أنقاض الخوف، فدلقت كأسي بصمت، وقلت:

- أيهن ؟

نظرني بغضب، وداف عقب سيجارته فوق جسد المنضدة بأصابع مرتجفة، قال:

- أيهن .. هي واحدة، لا غيرها!!

قلت وأنا أداري وجهي خلف ذهب الشراب التي مطق فمي بمذاقه المر:

- تقصد خيرية!!

كيف أخبره بأن الحب ساح مثل دهن، حتى ملأ أوردتي التي تريد قطعها بعد أن شعرت أماناً، وتوردت بمئات الأحلام، أأقول له، إني ما نمت يوماً، إن لم تكن هي بجانبي. . أو أسكت وأدع القطارات تمرّ، لتدوس برتابتها فوق قمر العمر، أو يمكن أن أبارك وقلبي ينزف دماً، قلت متمتماً من بين شفتين مرتجفتين: _ مبروك!!.

مكتبة الفكر الجديد

نهض، وما لبث أن تركني، ومضى، كنت أعرف سر هذا الفرح الدفين، هذه الاندفاعة التي تقلقني، قالت زوجة عمي، وهي تجلس عند حافة الفراش: _ كنت أتحاشى النظر اليك حتى لا تصطدم مواجعنا!!

- ولمَ قلتِ نعم، إذن؟!!

- أنا التي يجب أن تسأل مثل هذا السؤال.. لمَ لم تخبره الحقيقة؟!.. لمَ مارست فعل البطولة الكاذب معه؟؟.. ما كان ليقول نعم، لو أنك قلت له عن السر الذي يربطنا!!

- ما كنت أقدر.. ما كنت أريد تهديم عمر بدأ يتشيّد - لولا هذه النعم التي سمعها مني، لظل طوال حياته عابثاً، لا شيء يربطه بالأرض سوى الأحلام والحانات!!

- وأنا .. أنا ما فكرت بي ؟

- أفكر .. أو لا أفكر.. أقسم لك ما إن قلت له مباركاً، حتى تلاشت صورتك من بين جوانحي صرتِ مجرد هاجس مرّ سريعاً .. ما كنت أصدق خيانته أبداً!!

وضعت يدها فوق رأسي، وببطء، أنزلت الأصابع حتى استقرت عند حافة البطن، قالت وهي تلقي ثيابها جانباً، وتظهر أمام عيني كجسد من حزن وخديعة:

- والآن؛ دعنا نمارس أول أشواط الخيانات .. ففي جعبتي الكثير منها!!

نظرتها بانكسار، وقبل أن أفوه بشيء، أطبقت فمها فوق فمي، وثم جبل من نار بدأ يشوي جسدي الذي بدا ساكناً تعباً مهدوماً مثل جسد قتيل.

مكتبة الفكر الجديد

بعيداً عنكِ، قصبي شعاع قمر

أيقظت أحزاني خرابات الحب، فغدت أيامي مهرة جائعة، تعدو باتجاه مفاتن رضاها، لكنها ومثل ورد الحدائق ما تلبث أن تسقط جافة ملومة من حرّ القيظ، تبحث عن قطرة ندى، تترقّب أوج الليل، ولكنْ: دونما جدوى، لفت العزلة الأرواح، وانكمشت الأجساد فوق الأفرشة التي غدت تشبه قبوراً خاوية، تمحو العيون نور أبصارها، فتصيح في عتمة الاختيارات، تنتظر، ومثل مَن يسقط إلى عمق بلواه، تسقط الأحلام متشظّية نازفة، أيقظت أحزاني خرابات الخوف، فلم أعد قادراً على الوقوف عند غضب زمني، كانت أعماقي تشتعل بالرفض، باحثة عن ومضة ضوء، يسهم في وضعها عند بدء الطريق الذي أريد وقد تشعبت مسالكه، ماذا عساك تنتظر، بعد أن خرجت تحمل فوق ظهرك أثاماً وموتاً ؟! وها أنت وحدك، شمرتك السواتر إلى فوضى الطرقات، ما جدوى كل تلك الطرقات، إن لم توصل إلى مراد الروح؟! ما جدوى أن تلقي رشاشك الذي رافقك عمراً عند أول مشاجب الانتهاء، وتعود دونما شيء ؟! أيّ صحبة هذه !

تأخذك خمارات الليل إلى صمت الدخان، وقلق الترقب الذي زرعته في أعماق ليالي الأرض الحرام، وبهدوء .. تنبش قبور آثامك، تلك الأطمار التي ظلّت منسية إزاء رهبة الموت، تفيض مآقيك سكراً، ويعوج اللسان، ورويداً تتثاقل خطوات النسيان، تحس نفسك محاصراً، ذائباً في رغوة الرغبات، يقول العم المرشوش بالحزن:

مكتبة الفكر الجديد

- خائن أنت!!.

تنقطّع أوصال اللسان، ويصير الرأس كومة أكاذيب، أو يجدي أن تقول لا؟!.. تقول الجدة.

- عبثك قتل رجولتك!! تغمر جسدك كله بالحزن ؟ ترتجف الأوصال، وتهتز الرؤيا، تتعلق بقش بقاياك، لكنك ما تلبث أن تسقط إلى لب صراخك، تقول الأم.

- ما أردتك هكذا؟!!

تطفر من محاجر القلب دموع من اضطراب، تحاول الإمساك بليل هذه المرأة التي غادرت مبكراً، وتحملت عناء الخوف؛ لتجيء إليك لائمة، أو تملك قدرة الرد؟! وماذا عساك تقول، أو تكذب، تقول السيدة // ها أنت تتذكر السيدة.. اذهب، واطرق الباب، إن استطعت، ارجع إلى حصان عربة النفط وصمت الشوارع الفاحة بالرازقي، وإلى أحضان الجدران الوردية المملوءة بالصور والأضوية، ارجع إلى دفء فتوتك التي رسمت أول خطوات عبثك، قف هناك، وتأمّل .. ماذا ترى؟! ..

- ما فائدة أن تبقى، وأنت مجرد لهاث مجنون؟!!

تقول البنت الحلوة كالعسلية:

- كم أنت جبان .. كان كلامك يشيد قصوراً من ذهب!!

تكور كفيك فوق رأسك، وتفر إلى عمر أنكر وجودك، كانت البنت الحلوة العسلية تعرف من أين تقود حصانك الجامح، تضع قدميك عند نار أنوثتها، ولحظة تشعل ثقاب أمانيك تنسل مبتعدة، فتتوسل رضاها، تتقيأ أكاذيب جمجمتك، فتهزّ رأسها فرحاً، وتعدو إلى أبعد ما تستطيع،

مكتبة الفكر الجديد

تلحق مخاوفك صلادتها، ولبرهة تسقط تيجان عفتك عند قدمي مكرهاً، تأخذ الرأس إليك، فتبتعد الشفتان، تتسلق جبال العدو، فيبتعد القلب، ترتجّ السماوات، تلهث، وفجأة يسيطر على وجودك الدمار. يقول المحقّق:

- لا تصدّق أن الخطى التي جاءتنا تغادر بسهولة!!.

تطرق أبواب محنتك، فأنت تعرف أن الخطوات التي اختارتك، إنما أرادت جس نوابض رجولتك، كانت لحظات الامتحان الأصعب بين الامتحانات، تنظر إليه مبتسماً. تقول الأخت :

- ما أنحس أيام عمرك ..!!

فتبكي، الوجع الذي صار نهراً، لا يمكن إيقاف سيوله، تحبس ضجرك ورعونتك بين أحضان أمومتها، كانت تحفظ أسرارك سراً سراً، وأبداً ما سمعتها تهمس حتى لنفسها بتلك الأسرار، كانت تعرف أي قذارات أنت، ولكنها تصب الماء جاهدة فوق عفونتك، علها تغسل موتك البطيء، فما الذي فعلته من أجلها؟! تركتها تعوم وحدها، بين بيت الأب المضطرب الأركان، وبيت زوجها الذي يكره حتى النظر إلى نفسه، وحدها كانت ترمّم رجولتك، لكنك كنت تمارس خياناتك؛ لتقتل كل رجاء في خلاصك، قالت زوجة العم.

- لمَ كلّ هذا الضجيج؟!.. لمَ تريد ذبح مباهجنا؟!!.

تسكن الروح، ومثل طائر تعب تتوسّد الصدر، تداعب ضفيرتها التي صارت بلون جمرة، أراها تدبّ برغبات شديدة الابتهاج، أغوص في عمق ترددي، وما تلبث رجولتي أن تصهل؛ لأموت بعد حين في أمكنة الاضطراب، يقول أبي:

- استعبدك جسدك، وستظل هكذا أبداً!!

مكتبة الفكر الجديد

أمرغل الجسد في وحول المأساة، وألوي رأس كراهيتي، أشعر أن ثمة ما يأخذني إلى داخل أسوار الرغبات، بغتة، تلوب روحي، وتنفر، فأجدها تطرق دروب الرذيلة، ترتمي عند قدمي الأنوثة حتى وإن كانت عتيقة، لا تمنح سوى البكاء، كان على والدي أن لا يقف هناك، كان عليه أن يصرخ: - إنه ولدي، ولا شيء يستحوذ عليه!!، تلوذ أمي بالصمت، ويحمحم هو، تموء، فيضغط الجسد، وتنفجر الأوردة، يصيح بجنون، فتطبق أصابعها فوق حلقه، لم أرث غير هذا اللهاث الماجن، وتلك اللحظات الغريبة التي لا تعي منها سوى كلمة جافة، ما تلبث أن تجعلك ترتمي بعيداً، أرفع رأسي رويداً، فأكتشف أسرار محنتي، فليس ثمة غير ذهب يتدلّى ويسيح وومضات من ضوء تحاول إنارة الدروب.

صدفة، وتحت وهج الاشتعال، انهزمت قدمي باتجاه الشوارع التي أنكرتني، كان ظل الحرب قد مضى منذ ليال، وبدأت الصوامت تتلو بفرح غناءات الرجاء، حاولت الإمساك بشدة انطلاقي، فثم ماض دفنته السواتر، وضيّقته سنوات طوال، عند رأس الزقاق شمّ الأنف رائحة الأنثى، التي آوت طفولتي، ووضعت الفتى الجنوبي عند مفترق طرق، اندفعت العربة إليَّ، أحسست أننا يجب أن نعود إلى الوراء فجأة، بدأ الرنين الرتيب يحل محل الدوي، والنداءات المانحة محل نداءات الموت، والأصوات العابقة بالضحك مكان الحكايات المتوسّلة لدبق الحياة، خطت نفسي خطواتها الأولى، فقال الفتى الجنوبي خجلاً :

- لمَ لا نعود؟ .. فلم تعد بي رغبات آجلة ..!!

- قلت وأنا أدفعه أمامي: - ليس غير ليلة واحدة!!

مكتبة الفكر الجديد

قال وهو يتراجع مرتجفاً: - منذ أول الخطوات وأنت تهمس عن الليلة الأولى والأخيرة .. لمَ ذبحت خجلي؟!.. ما فائدة هذا الذي فعلت؟!.. ماذا لو أبقيتني، وأبقيتك؟!

قلت، وأنا أساعده في سحب العربة إلى أمام - لا تتكاسل، لست وحدك مَن يشعر بالندم!!

قال وهو يرفع رأسه إلى علو ويشم بحبور عطر أيامه: - أوَ تشعر بالندم حقاً؟!!

قلت، وأنا أحدق في وحشة الزقاق، لم تكن تشبه تلك الوحشة التي رافقتني السنوات ماضية، كانت مسكونة بالخوف والترقب، ثم خطوات بعيدة، وصوت مركبة يمرق سريعاً، وتوسلات جميلة، تأتي من خلف باب نصف موارب، ضحك الفتى الجنوبي، وأطلق العنان لنفسه، فكثيراً ما رأى خلف تلك الأبواب أشياء، كانت تقتل فيه فرحة، يدخل بخطوات مثقلة، فلا يلتفت إليه أحد، تتهامس الشفاه، وتتطلق الأصوات، ويمرق هو إلى لبّ الدار، يظل ينصت لخرير التوسّل، فيحسّ أن ثمة بلوى، لابد وأن تحطّ فوق لمّة الرأس، بحذر يتلصّص، فلقد اعتاد النظر من خلف مئات الأستار، لم يعد يهمّه، غير اكتشاف كنه السؤال: - ما الذي يحدث؟!! .

ببطء يرى، وببطء يسحبه الفتى الخجل، ويتواريان معاً وراء فضيحة الارتجاج.

- لماذا لا يشعر بالندم؟! .. وكيف يمكن لرجل مثلي أن يعيش دونما إحساس بالفضيحة والندم؟! ..

قال الفتى الجنوبي، وهو يقف حائراً عند الباب: - لمَ هذا السؤال؟ .. دومك تبحث عن أشياء تافهة!!

مكتبة الفكر الجديد

قلت، وأنا أتأمل ظلام البيت وسكون حياته - ربما كان جدي .. هذا الذي ابتكر مثل هذه اللعبة الطيبة .. تشعر بالندم وتتوسّل روحك أن لا تخطئ، فتقول لك: ولمَ لا؟! .

يقول الفتى الجنوبي: - إن لك قدرة على تبرير كلّ خطاياك!!

قلت، وأنا أحاول قتله - وأنت رغم كل هذه السنوات ما زلت تشرب من ماء خنوعك ورضاك ماذا تريد، ولمَ لا تحاول تجاوز خرابات الطين والغرفة التي تكتظّ باللهاث والروائح النتنة؟! .. لمَ لا تريد نسيان عبث بنات الجيران وغزلهن المثير للاشمئزاز؟! .. لمَ ما زالت ماكنة الخياطة ماثلة أمام عينيك رغم ما عشت؟! .. قال الفتى وهو يضرب الجرس بود : _ لكني لا أريد هذا!!.

- ومَن تكون لتريد؟!.. قدرنا يا صاحبي أن نخترق محبتنا؛ لتتجب أرواحنا آثاماً من فخار //.

ظلّت روحي تنصت، مراقبة صوت الجرس الذي عاود الرنين، كان الفتى الجنوبي يضغط، وكنت أهتزّ مثل جذع شجرة أصابها الخريف، أغمض عيني، وأفتحهما متوسلاً الزمن بأن ينفرج الضوء، أو تجيء الخطوات أيما خطوات، أريد إنساناً، أتحدث إليه فقط، حتى ولو كان هذا الإنسان ميتاً، تماسك الفتى الجنوبي، وأشرق محياه بابتسامة رائقة، كان يغرس عينيه في اشتعالات الضوء، انفرج الباب قليلاً، مَن؟!!

صرخنا معاً : - أنا؟!!

ضربت الفتى الجنوبي، فتراجع، تراجع مقرفصاً عند حافة العربة، ووقفت أنا، يعتقني ريح الارتخاء، ندمت لأني طردته بعيداً، وأحسست انتشاء؛ لأني أريد أن أكون وحدي، أعاود الاغتسال بماء الماضي الذي

مكتبة الفكر الجديد

عذّب حاضري، وأحال مستقبلي إلى رماد، تراجعت خطواتي، فأمسكت بمقبض الباب، ردّ الصوت بندى أنوثته، وهو يتقدم بحذر.

- مَن أنت ؟

يبست حنجرتي، وبدأت قدماي تفوصان في وحل الارتجاف، كانت الأنثى تحدق بي مستغربة، ليس ثمة ما يربطها باليدين اللتين أعرف، سوى هذا الصوت ورائحة المسك التي تتقدم الخطوات، انفرج الباب قليلاً، فظهر الجسد المتّشح بالسواد، ولحظة تعرّف علي، تراجع مذعوراً، خطت مخاوفي إلى قلب العتمة، فأحسست أن الفتى الجنوبي بدأ يخطو ورائي، أدرت رقبتي، ودفعت الباب بعنف، فصر غاضباً، وأن الفتى وهو يقف إلى جانبي مبتسماً، قالت التي صوتها يشبه ندى الفجر:

- مَن جاء بك ؟ !

قلت محاولاً إيقاف وجعي، وأنا أشير إلى قلبي – هذا!!.

لم تبتسم كعادتها حين تسمع مثل هذه الأكاذيب، كانت تصفعني على رقبتي، وتقول:

- يا له من لسان ذرب!!.

فأصعد سماوات أحلامي، وأرتد، أصعد، وأرتد، ولحظة أشعر أن روحي استكانت واطمأنت لغسل الأكاذيب، أقول:

- لمَ أنت رائعة؟! .. لا يمكن لرأسي أن ينساك، ولا يمكن لقلبي أن يخفق دون وجودك ؟ !.

راودتني المرأة المتشحة بالسواد، وهي تأخذ بيدي، فلقد شعرت أن وحدتي تقاتل صبري، وأن عمري بدأ يقترب من لحظة انطلاق الطوفان،

مكتبة الفكر الجديد

كانت تحاول الإمساك بما بقي مني، اندفع جسدي إلى قلب الممرّ، وما لبث الفتى الجنوبي أن فتح الباب أمامي، ودخل مسرعاً يتفحّص أرجاء المكان، كانت الغرابة قد غطّت بردائها كل ما يحيط بزمني ذاك، فلم يعد ثمة أسد يحتضن حملاً، ولم تعد الجدران مأهولة بالبياض، وعند الجدار المقابل كانت السيدة التي منحتني عمر عبثي، وأخذت مني فتاي الجنوبي، قد التصقت ناظرة إلى خطّ من الأوهام التي تمتد إلى حيث غرفة النوم، انهمرت الأيام مثل سيول ماء ما ان فتح الولد الخجل غرفة النوم، واندفع، رفع الفتى الجنوبي الصورة، ونظّف زجاجها، فأمرته ناهرة: – أعدها!!

نظرني بكراهة، فثمة ما يجعلني أنفر منه، وما يجعله يكرهني، منذ سنوات طويلة، وهو يحاول السيطرة عليّ، وتمشية خطوي حسبما يريد، ومنذ تلك السنوات، وأنا أحطم أحلامه، أمرغلها في عفونة الحانات وتأوهات الأكاذيب، أجعله يركع عند قدمي متوسلاً ما إن أحرق جوفي في نار أول كأس من العرق، أجعله خادماً لأرذل أفعالي وأكثرها خسة ومقتاً، ولكنه ما يلبث أن يسيطر علي، يحفر أعماقه، فتثور، وبصمت يوجّه رأسي الباحث عن ومضة خلاص، يضعني عند أول الدرب، ويمضي، فأبقى متعثراً تتمتم شفتاي بأحزان مخاوفها . أجلستني البنت ((التي لم تعد تشبه العسلية))، وبهدوء نفضت عني عفونة ملابسي، لم أعد بحاجة إلى ذلك الشهريار الذي كنته ذات يوم، تراجعت قليلاً، فلقد اكتشفت فجأة أني مصبوغ بروائح الكراهيات، ولم أعد ذاك الذي كان يملأ روحها بالأكاذيب والأمنيات.

أمسكت المرأة بي، فأعلن الفتى الجنوبي احتجاجه، وانفجر جرح قلبه القديم، حاول تجميع بقاياي، وفتح مسالك الحنجرة، فلابد من عودة

مكتبة الفكر الجديد

لفضاءات الذكورة وإغراق هذا الجسد الحزين بأمطار من الأكاذيب. قلت، وأنا أخذ بكلتي اليدين إلى يدي، فلقد انفجر البركان فجأة، ولا يمكن للفتى الجنوبي الطيب مثل وردة أن يوقف نزيفه: – أحبك.

ابتسمت المرأة، وبيد عارفة، مسّدت شعر الرأس الذي غدا بلون نجمة الصبح، قالت:

– ما الذي فعلته بك الأيام؟!!

قال الفتى الجنوبي: – كما ترين بقايا سواتر وجثث!!

قلت: – بل بقايا حياة تريد الاستمرار!!

حدقت بي طويلاً محاولة سبر غور إجابتي، كانت تعرف كيف تهزّ نخلة وجودي؛ ليساقط اعتراف الكلمات ببطء، تريد لملمة الفتى النابه، وطرد ذاك الذي دمّرته كلمات الطيش، رفعت رأسي إليها، فرأيت وجه عمي يبتسم بكراهية، أغمضت عيني، فأحسست أن ثمة يد باردة تجوس فوق فتحة الصدر، تراجعت قليلاً، وأمسكت بروح الضوء، رأيتها تقترب، كانت زوجة العم تداعب شاربي، فتقدمت محاولاً طرد الفتى الجنوبي الذي استحوذ على رجولتي، قالت البنت العسلية المذاق: – كيف تذكرت؟!!

قلت: – لا أدري .. ثمة شيء كان يرفس وجعي، وصدفة تذكرت البيت!!

قالت: – ولم تجعل إلا الصدفة تسيطر عليك ..!!

قالت زوجة العم وهي تأخذني إلى صدرها :– هكذا هو .. كائن لا يستقرّ إلا لحظة ينزف وجعه!!

مكتبة الفكر الجديد

قالت البنت وهي تسحبني إلى صدرها : – دعيه .. لا أحد يروّض قلقه سواي .. سنوات عرفته خلالها .. عرفت أن وجعه لا تسدّه سوى أصابع الإتقان!!

قالت زوجة العم، وهي تعصر صدري إلى صدرها : - أيّ معنى لأنوثة عابرة.. أنا منحته زمناً من محبة ورضا!!

قالت البنت، وهي توسّد رأسي ذراعها : - بل كان العمر الذي جمعته بعد أن ضاع في هبوب الرياح!! صرخ الجسد : – أنا .....!!

أطبق الفتى كفّيه فوق حلقي، محاولاً قتل بقايا غضبي، كانت المرأة تحاول جاهدة إبعادنا عن بعض، فيما ظلت زوجة العم تنتظر انتصار الفتى الجنوبي، سحبت المرأة العسلية إليها، فاندفعت الأخرى مزحزحة وجودها، كنت أخاف أن تشتعل في هدوء وجودي حرب أنوثية لا تنتهي، مهما استطال الزمن، هدأ جسدي، وهدأت الروح، وهدأت النسوة، وبصمت، مددتني المرأة فوق فراشها العابق بعطر البرتقال، لم أعد أميّز بين وجودي، وأيما وجود آخر، كانت نفسي تعتقد أنها تشكّل مركز الكون الذي هوانا، تلمّست يدي حافّة السرير، فاكتشفت برودة المكان، كانت الأنثى تجلس بعيداً، وثمة قلق يتشرّب الوجه، أشرت إليها بطرف إصبعي، فزحزت كرسيها باتجاهي دون أن تنهض جسدها، قلت هامساً بصوت أملاه عليَّ شيطان رغباتي، لم يكن صوتي، ولم أكن أنا، .. اقتربي، فأنت تبدين مثل وجه غاب في مطر!!

أخذت بيدي المرتجفة، وقالت: – وأنت لم تنحدر .. لمَ لا توقف هذا الارتعاش!!

مكتبة الفكر الجديد

حاولت الجلوس، لكنها أعادتني إلى الاضطجاع بشيء من العنف، قلت: - ما الذي يفعله طائر خرجت الريح عشه ورماه المطر عند مفترق الطرقات؟!!.

قالت محاولة طرد بقايا ضجرها: - يبحث عن عشّ آخر .. عن خطوة أخرى تجدّد وجوده!!

من خلل ضباب عيني، قلت: - وهذا ما يتعبني .. جاء بي إليك شدة الحنين .. الرؤيا التي كانت تمتلك عمري كله، وأنا أجلس هنا بين يديك .. منذ غادرت هذا البيت وهذي الجراح تمزّق روحي ..

قالت بحزن شلع قلبي: - أيّ شوق يحسّه فراش بارد وجسد موجوع!!.

قلت متنهداً: – دعيني أشمّ رداء أنوثتك.

هزّت رأسها، وفجأة غطّى المطر صفاء العينين، ومن بين أصوات البرق وركض الخطوات، كان صوت البنت العليلة القلب يهتف: - لن تقدر .. فلقد مات كل شيء!!.

شبت روحي واندثرت أنقاضها بين كتل من الوجع والتراب، أغمضت نفسي وجعها، ونامت، لحظة تحتضن النفس أوجاعها، وتنام، تصير الأيام أشياء ثقيلة تكسر الظهر، ولا طائل من وجودها ضاغطة فوق الأكتاف، مَن يبعد نفسي عن نفسي ... كنت لحظة يقف مدرّسنا أمام السبورة، ويرسم كلمات الدرس، أحدق في بياض المعنى، يقول:

- ليس ثمة أمل من شيء .. حياتنا انهزام متكرّر!!

مكتبة الفكر الجديد

أمسح جبهتي، وأندغم، والفتى الذي أعلن تمرده من أجل خيانة أنثى الرجل، رفعت يدي، فأنتبه المدرّس، وظل للحظات صافناً في وجهي، لم يعتد من قبل رؤية حماسي، واندفاعي، كان يراني مجرد طالب يريد أن يمضي سنوات دراسته، ويتحول إلى مهنة أكثر سفالة من مهنة الكلمات، قال :

- ماذا ؟

انسرد حلقي بكتل من الألفاظ، وظهرت أفكاري الغريبة مثل ضوء فانوس، كانت الدهشة قد أصابت الرؤوس، فمَن إذاً يقدر على رسم صورة أخرى لأحداث، من العلم كله بوجودها وتناولتها مئات الأحاديث والشروحات، استند الأستاذ إلى السبورة برضا، وظلّ ينصت. قلت: لنجد من الفكرة موضوعاً للانقلاب .. لنبعد شبح النبوءة.

قال المدرّس وهو يتقدم مني - لكل فكرة محيط انبثاق .. والزوايا التي يختارها الكاتب تخصّه وحده، تأخذ مداها بين الناس، عندها تصبح حقيقة واقعة .. ويحق لواحد آخر أن ينظر إليها كيفما يشاء حتى وإن دمّر أحداث النظرة الأولى.

قلت محاولاً جرّ الأستاذ وتلاميذه الذين حطّ فوق رؤوسهم غراب الغضب :

- ليس هذا فقط .. لمَ لا نتصوّر المعنى الذي نحسّه يلائم ذواتنا؟! .. لمَ نحاول ترسيخ معاني الدم والقتل والخيانات التي تجسد أفعال الملوك؟! .. أريد أن أسأل لمَ هذه الدسائس التي تسيطر فوق سماوات القصور؟! وأيّ حياة هذه التي تخلو من الحب والأمان؟! .. منذ زمن، وأنا أسعى من أجل معرفة ومضة واحدة ممكن أن تتطابق، وما نقرأ ..

مكتبة الفكر الجديد

مدن الطين التي تسكن أعمارنا ترفض أبسط الخيانات العظمى .. امرأة أحبّت رجلاً، فأبعدت الآخر، فما الخيانة في ذلك؟!، أبعدت ملكاً، ونصبت آخر .. أو مارست حقاً غير حقها .. مَن منا بغضب جسدها لحظة كانت أصابع الملك القتيل تجس نبض أنوثتها، أو كان قلبها يصدق سر الحب الذي تطلقه هذه الأصابع بعد أن جاست فوق عشرات الصدور والأفخاذ ؟! وترتجف الشفاه وتختلج لحظة تلتقي الشفاه التي أتقنت لعبة التقبيل، مَن نصب الكلمات حكماً؛ لتعطي الحق له، وتضغط مَن أغاظتها؟! ولمَ نحاول دوماً جعل نسائنا وسائل لغايات قذرة ؟! أيّ معنى تنتهك لكلمة حب، وأنت تنتهك جسداً، تعرف جيداً أنه يطير بعيداً من بين يديك ؟! أو لا تشعر خجلاً؟!، أو لا يمتلأ ضميرك باللوم ؟! أو لا تتمنى لو صارت أنثاك غياباً؟!!

احمر وجه الأستاذ، وطفحت مكايل سعادته، ثمة وقع طيب لجنون أسئلتي بدأ يسري بين أوصاله، غض الطلبة رؤوسهم، وساد الصمت، كانت أنثاي تطالبني بأن أظل عسلي القول دائماً، تلومني أن صمت لساني بعد احتضان أنوثتها، أداعب ضجرها، فتبدو مثل قطة مستوفزة، لكنها تتهالك بين يدي آنة متوسلة الإبطاء، كلامها يصير اختلاجاً، أطلق تراب محبتي، وبشدة، تتصاعد العاصفة، اعتدت هذا الجنون، واعتادت أنثاي خرابي، كانت زوجة عمي تفرك أرنبة أنفي؛ لكي تثير غضبي، ولحظة تجدني عاصفاً، تنفجر ضاحكة، أنظر إليها بكراهية، وأمدّ قدمي باتجاه الباب، فتأخذ بأطراف ثيابي، وتسحبني إليها، تقول:

- ماكر .. عنيد .. لن تصدق أن المرأة التي بداخلي تعرف أنك كاذب!!.

مكتبة الفكر الجديد

أجلس قبالتها محاولاً اختراق ومض عينيها، كنت أعرف كيف أجعلها تحترق، أنظر في عمق العينين، وأمطق لساني بحركة ذئب جائع، وأشطر، أمارس لعبة الصبر والانتظار، فلقد علمتنا الحروب أن الانتظار أمر لابد منه للوصول إلى أدقّ النتائج إبهاراً، وأحسنها اختياراً، قلت:

- معكِ لم يقدر لساني على الكذب!!.

- بل معي ينهمر لسانك بكل أكاذيب الأرض .. أعرف ما يحويه قاموس رجولتك من فضائح.!!

- وما الفائدة، وقد تحطّمت رجولتي عند أول رجاء .. أول طلب؟!.. ليتك عرفتي الليل الذي يملؤه القلق ومحاولة النسيان، كنت أراكِ تمشين ببياض الفرح، أو تضحكين وأنتِ تستقبلين يوم تعبه، كل ما كان مجرد وهم، ربط قلبينا برباط من هشيم، أقسم لك أن كل ما نلت كان بسبب تلك الليلة .. لم يعد ثمة معنى لشيء .. ليتك تعرفين كيف يكون الحطام، لحظة نشعر أن وجودنا فشل يحاوطه فشل .. ما كان أمامي سوى الطريق الذي اخترت.

- لكنك اخترت أخيراً!!

- بعد ماذا؟! .. أخذته سورة الموت بعيداً .. لتلقي به عند أحلام ميتة .. جعلتني أشعر بالذنب .. ما كان يصير لو بحت له بالسر؟!، لو كانت لفمي لاءاً ؟..

تسقط برقع عفتها عند قدمي، وتبدأ أنوثتها تشهق بدم فشلها، تحط صمتاً مطبقاً، فأغدو حاملاً فوضاي، أرتمي عند الجسد النازف، فيسكت، وتبدأ لعبة البوح، تتعبأ معدتي بالأكاذيب، ومثل رجل متخم، أتقيأ، تظل تنصت إليَّ، وهي تضغط فوق وجع الجرح الذي كان يندمل، قالت:

مكتبة الفكر الجديد

- أو تدري بماذا أفكر ؟

رفعت رأسي محدقاً في اشتعال الشفتين، قلت:

- كفي، أرجوك عن أيما تفكير!!

قالت وهي تلاعب أوتار رجولتي: - سنتزوج!!

بغتة اهتزت أركان الغرفة، وغابت عيوني في عتمة شديدة، وارتمى جسدي وسط مفازة موحشة، كنت أحاول السيطرة على استفزاز الروح، لكنها كانت تنتق، تدق، ما الذي يعنيه هذا الإعلان؟!!.

وماذا عن هذه العيون التي تترقب ؟! العيون التي تركها عمك خلفه قبل أن تنبت ريش طيرانها، ماذا عساها تقول ؟! أو يمكن أن تتكرر لعبة الدرس، خيانة أخرى، وهاملت آخر .. ودم ..؟! أو يمكن أن تقنع ذاتك بأزل الحب؟! تركتني اعوم وحدي في خوفي، واستقرت عند جرف اطمئنانها محدقة في مماشي محفوفة بزهور، كانت قد هيأتها؛ لتكون أول الخطوات .

قالت: - لا تخف .. فلقد هيأت كل شيء؟!!

هززت رأسي، ناظراً إلى لون شفتيها، كانت ما إن تراني ألج بوابة البيت خلسة، حتى تقف أمام المرآة لزمن يثير استغرابي وجنوني، أنظر إليها محاولاً إيجاد مبرر يجعلها تقف أمام المرآة كل هذا الوقت، تدهن الوجه بألوان الورد، وتمرر فوق الشفتين احمر شفاه، ما يلبث أن يغدو بلون القرمز، أضحك في سري، فليس ثمة جدوى من ترميم خطوات الجسد، ما دامت الروح تتكور عطباً، كانت تريد إخباري من باب الرفقة فقط، فلقد أقنعت نفسها أنها قد روضت الكلب الذي في أعماقي، وجعلت الإنسان الذي كنته شبحاً هائماً، يؤمر، فيطيع، ويشكر لحظة

مكتبة الفكر الجديد

تُلقى أمام عينيه كسرة خبز .. أنت الذي صار رقماً تافهاً، لا ضرورة له، أرقاماً صيرتنا الحياة، وأرقاماً منحتها الغرف الحمر، وأرقاماً وشمت بها قلوبنا السجون، وأرقاماً ملأت عقولنا، هزّتني زوجة عمي بلطف، فرفعت إليها تعبي، قلت: – ماذا؟!!

– ماذا تقول؟!!.

– أقول في ماذا؟!!.

– فيما سمعت ...!!

ضحك حلقي، وطفر الفرح إلى ضوء عيني، فجأة وجدت نفسي تجلس وسط حديقة عائمة من الفرح، ما الذي يمكن أن يقوله إنسان مثلي عما سمع، منذ رفعت رأسي، وجدت أبي يمارس لعبة الخيانة مع زوجته، فيما كانت أمي تكور جسدها المقرور عند طرف الغرفة القصي، كانت جدتي تحاول تعبئة جدران الرأس بحكايات ونسوة، خلقن في أعماقي الاضطراب، عن الجد الذي مضى .. ولا أحد يعرف إلى أين، ظل سر ضياعه يقلق خوفي، عن الغرف الحمر وإهانات القلوب دونما سبب سوى انها اختارت لتكون، وعن الرأس الذي يحمل طريق المغايرة، عن السجن المركزي الذي يكتظّ بالجوع والخيانات والسفالات والكراهيات، عن السيدة التي أعطتني حياتها دون أن تأخذ سوى فتوتي، عن البنت العسلية التي كانت تنتظر لحظة أجيأها، فتفر فرحاً، وتملأ حضني بالسعادات، عن العمّ الذي خان نعمي؛ ليمضي تاركاً وراءه كل هذا الاضطراب، عن الأخت .. عن الأب .. عن ماذا يمكن أن أحدثها وقد عشت، وسمعت، ولعبت لعبة كل شيء؟!!. قالت: – لا تتردد .. فأنت لي، ولن تخسر شيئاً سوى كلمة نعم، وأظنك قلتها منذ زمن بعيد!!

مكتبة الفكر الجديد

قلت: – أراكِ رتّبت كل شيء!!

قالت: – لا فائدة من الانتظار .. والعمر يمضي .. وأخاف الافتضاح!!

قلت: – الافتضاح من ماذا؟!!.

رمقتني بنظرات حزن، وهمست.

– أو تعتقد أن ما نمارسه مقبول .. كل شيء خلسة .. تخاف وترتجف أوصالنا ما أن تضرب الباب، أو تتحرك قدما الصبي النائم، كنت تطمئن فعل رجولتك، فماذا عن أنوثتي؟! .. مَن يضمن أنك ستبقى لي وحدي، لا تأخذك رياح اضطرابك إلى طرقات أخرى؟ .

– كم أنت خربة! .. ما كنت أصدق أن تحت نار محبتك كل هذا الدمار .. أيّ وحش قاتل جلّلك بالحب؟! ولمَ تحملت كل هذا؟! .. كنت أرى أن لا شيء يملأ بياض وجهك غير ألوان الإناث الفرحات .. ما كانت عينيك تومضان بشيء .. كيف قدرت على تحمّل كل هذا الشرّ والمقت والكراهيات؟! .. أيّ أنثى أنت؟!!.

– ما اخترتك أبداً .. ما اختار قلب طفولتي سوى لون بعيد، ما كنت أعرف له حدود .. وساعة ارسلت اختك بالخبر .. انفتحت مغالقي وعرفت حدود اللون الذي أريد .. من هنا بدأت اتابع واعتني وارسم لرغبتي حدوداً أريدها!!

تعطلت اجنحة القول عن الرفيف، وتوقف رأسي عند حدود الاضطراب، فليس في مقدرتي تجاوز لعبة صنعتها امرأة بهذا الإتقان والتحدي، تحملني مخيلتي إلى اختيار لحظة الفرار، لحظة تجاوز أوهام صباحاتي المكتظّة بالكسل، ومساءاتي المثيرة للخوف، تبصرني أختي،

مكتبة الفكر الجديد

وأنا ألج غرفتي، فتبسمل بصوتها الملائكي، لقد غدت أماً، لكنها ما زالت تحنّ إلى تلك الأيام التي وجدت نفسها مرمية في أحضان أمومة جميلة ووديعة، وماتلبث أن تدخل ورائي، ترى إلي مشموراً مثل حصان هرم، فتجلس إلى جانبي، وتنتظر، تعودت أن لا تطلق رصاص أوامرها بغتة، وأبداً ما وجدتها تصدر صوتاً عالياً، علّمها اليتم أن الأصوات العالية لا يجب أن تكون في حضرة زوجة الأب التي أرادت أن تجعلها وأخوتي مطايا لأغراضها، لكن جدتي حملت فأساً، ووقفت تدافع، وما لبثت العربة أن انقادت ببطء، وأصبحت البنت التي لم تر سوى حدود أيتامها، سيدة مطلقة، لا يمكن لأحد أن يرفض كلامها حتى أبي الذي دمّرته حروب من نوع آخر، فضاع في خيارات الانتظار، كان يحطّ مثل حمامة، ويظل يبصر بلواه، يردّ على أسئلتي بفتور، دون أن ينظر إلي، جعلتنا الأيام أعداء، لكن الحرب زحزحت قلبه قليلاً، فصار يخاف أن أمضي، ولن أعود، كان يترقّب عودتي؛ لأحمل عنه بقايا تعب السنوات، يفرك يديه، ويتأمل، هكذا ديدنه منذ كانت السبع دراهم هي حلمه الأجل، أو تراه يعرف الآن، كم هو تافه هذا الرقم؟!!.

أظل أحدق في فراغ الغرفة التي أشعر أنها باردة دوماً، أطوي ساقي إلى صدري، وأطلق ريح غضبي الذي لا أعرف كيف يجيء، لم أعد أعرف كيف تجيء الأشياء، وتغادر، فقد كنت أنتظر أن يجنّ الليل، لأروح إلى ظلمة الحانات، وأدق أبواب البنت العسلية القلب، والتي لم تعد بنتاً بسبب فشل هروبها وإياي، كانت ترى في الحلم القديم أملاً يتجدد، لكني أغلقت دون هبوب هذه الأحلام أبواباً من ملل، تظل صابرة، لم أقرأ لحظة ملل تشرب هذه العيون، حاولت مرة، ولا أدري تحت ضغط ماذا.. أن أنفض غبار صبرها، أن أجعل الفتى الجنوبي يتحدث، بعد كل هذا

مكتبة الفكر الجديد

الاضطهاد، أعلنت أن الفتى الجنوبي كان محقاً، وعليه أن يتحدث، ويقرر أخذ بيدي، وقال:

- حسناً فعلت .. أيها الطبيب!!

هيأته إلى مهمة الاقتحام، غسلت وجهه ويديه، ومشّطت له رأسه، جعلته يرتدي أجمل ما لديه من ثياب، قال متوسّلاً:

- أرجوك، ابتعد عن الخمر هذه الليلة!!

قلت بود عاشق :

- ولمَ لا؟! سأكون طوع بنانك، وكما تريد!!

ابتسم، وهز رأسه شاكراً، كان أكثر الناس وجلاً مني، فهو يعرف أني قد أنقض وعودي معه في أيما لحظة، يشعر ارتياحاً، ويعرف عن ظهر قلب، كان قلبه مفحماً بالود الحزين، وبرودة الذهب تملأ أعماقه بالارتخاء، ورويداً يشعر جسده بالأمان، فينهمر اللسان بتوسّل يحسه مثل ريح الأشواق، ريح لابدّ منه.

//ما أعظمك جداً.. وما أجلك قضية!.. ها أنت تملأ أرواحنا بالضياء .. الأرواح التي رقبت فعلك، فتشرّبت به .. أو ارتجفت يدي الملك الموكل، وهو يأخذ الروح إليه؟! .. أو كان جسدك أرضي التكوين؟! .. أنت الذي منذ أول يوم خطت قدماك صوب بوابة الجد الأجل الأرض كلها، عرفت أنك معد للمهمة الأعظم والأفضل والأجل بين المهام، أو كنت تقرأ في عيني جدك هذه المعارف المخترقة لأستار المجهول؟! وماذا كانت روحك تقول ؟! أيّ عشق سماوي كانت تتعلّق بومضة؟!، ما أعظم جد مثلك؟! .. وما أعظم فتى كنته؟! .. وحدك يحقّ لك أن تفاخر، بجد ليس كالأجداد .. وأب ليس كالآباء .. وأم إنما هي سماوات الفكرة الأبدية//.

مكتبة الفكر الجديد

يبصرني الآخر، وأنا أحط عند الروح الأقدس، فيحاول الفرار، يحاول اجتياز أمكنة الرهبة؛ ليصل إلى هدوء يومه، فلم تعد تلك الأماكن تثير في أعماقه غير الخوف، قال لي:

- فلنذهب!!

قلت: - دعني أمارس يومي الذي سرقته عنوة منك!!

قال: - لكم أنت غريب .. أو هذا جل ما تحلم به .. ذهب .. وبهاء .. وهدوء نفس؟!!

قلت: - وماذا أكثر من هذا؟!.. منذ صغري، وأنا أبحث عن هذا الودّ..

قال: .. وهذا ما جعلني أنفر منك، كنت أريدك مبدأ لي، لا عبداً لطقوسك الغريبة، لحظة تحتضنك الأم أنفر أنا، ويملؤني الغضب، أود لو أدمّر هذا الضجيج، وأبعد أمي عن هذا الوهم .. لم نبك .. ما جدوى إنسان يعيش باكياً، يغمض عينيه، وهو يسمع أفعال اللطم والبكاء .. لابد آن أغيّر .. لابد وأن أفعل ما يريد قدري، لا قدرك!!

قلت: - لهذا: ارتكبت إثماً .. قتلت في جنوبيتي .. ذبحت لحظات الهيام الذي كنت أعيش .. جعلتني أخجل منك ومني .. لمَ أردت الذهاب إلى عبثك؟! ماذا لو تركتني، ومضيت وحدك ؟

قال: - ما كان هذا بمستطاعي .. لولاك ما كانت روحي تتوازن!!.

- لكنك ما فكرت بي أبداً!!

مكتبة الفكر الجديد

- ولمَ أفكر فيك؟! .. لمَ وأنت تابعي؟! .. رضيت أن تكون عبداً .. وأبداً لن يفكر سيد بعبد .. أو تريد مني أن أطلق عبد واحداً؟!.. أصيّره حراً، وأبقى أرفل بعبوديتي .. كيف؟ ولماذا ؟

- لا أدري ما أقول .. دوماً تقيم حججاً، أحسّ معها بالانكسار!!

- لأنك ضعيف .. جبان .. غير قادر على تجاوز وعي طفولتك .. ما زلت ترغب بالبكاء عند الأضرحة حتى بعد أن دنّست روحك!!.

- وما الذي تريده مني الآن؟! .. لمَ لا تتركني أعيش هدوء العالم المظلم؟! .. اخترت لي هذه العزلة، فما لك تريد إخراجي إلى ضوء كل هذه الكراهيات!!.

- لأني أريد فقط .. أنا الذي أريد .. أنا السيد الذي يقرّر .. ولا يعني لي قولك مهما كان شيئاً .. كم أود لو قتلتك ؟

- ولمَ لا؟! أنا طوعك الآن؟!!

- لن أقدر أيها الماكر الذي لابد، وأن ننقض عليَّ يوماً!!.

- تعرف ليس لدي قدرة على مواجهة كل هذه الشرور .. العطر الذي شممت ما زال يعبق في داخلي، ولن يغادر كياني، مهما بلغت من العمر!!

- ها هو الأسلوب الذي أعرف ينبع فجأة ..!!

- اسكت، هذا ما آمرك به .. اسكت، ودعني أكمل فكرتي !

سكت الولد الجنوبي، وظلت نظراته تحوم في أرجاء المكان، كنت أريد غسل مواجعه، منحه بعضاً من تألق وجعي، لكنه يصرّ على أن يبقى هو، وأبقى أنا .. قلت: - لا عليك، فالمهمة ليست صعبة .. أو أنت

مكتبة الفكر الجديد

مهيأ لها؟!! .. هيا، دعنا نذهب، أخرجته عنوة، كان يمشي بخطوات عروس مرتبك، يتقدم، ويتراجع، وثم في الرأس دوار من الاضطراب والهلع، قدته بهدوء، وأمليت عليه رغباتي، قلت: - اطرق الباب!!

فدقّ الجرس، وانتظرنا، ولحظة انفتح الباب، هل وجه المرأة العسلية بالبشر، وامتدت خطواتها مسرعة، دلفت محيياً، فأخذت بيدي، وقادتني إلى الصالة، كان الفتى الجنوبي يعبق بعطر رجولته، أشرت إليه، فصافحها، ومثل ملك قبَّل اليد الممدودة، همست : - مَن علمك هذا ؟

ابتسم بألفة عاشق، وقال: - أنت!!.

فسكت، وبهدوء، جلس إلى جانب المرأة، كانت تحدق إليه باستغراب، فلم تعتد كل هذا العطر، وهذه الهيئة الطيبة، كانت ساعة تستقبلني تستقبل هبوب عطور الخمر، فما الذي جرى؟!!.

ظلت ساكنة، وهي تتأمل إشراقة الوجه، لكزت خاصرة الفتى، فهمس: - ماذا؟!!.

قلت: - لنبدأ .. فليس لدي وقت لأضيعه معك!!.

قلت: - نعم .. حتى نكمل المهمة!!

قال: - حسناً .. ها هي خيانة أخرى .. أبداً، لا تريد مغادرة عبثك ..

قلت: - وما الذي تريده؟!! .. أصير عربة .. أتبع خطى الحصان الذي كنته .. أترقب وجع الأزقة وخضرة الروح التي كانت تعصرك مثل ليمونة .. أو تريدني أن أعوم في غرف حكايات جدتي دون أن أنفر!!.

مكتبة الفكر الجديد

قال: - ما كنت أريد هذا .. وما كنت أريد ذاك .. فقط؛ لو اتفقنا، واخترنا الطريق الأقرب إلى الروح!!

قلت: - روحي أم روحك؟! .. لا أعرف .. أشعرك أحياناً غريباً عني .. أناي لا تشبه أناك .. وعمرك ينأى عن عمري، ورغم رفقة السنوات ظللت أنفر منك!!

قلت: - لكني أحبك .. وألتصق بك، ولا أريد فراقك أبداً .. إن أردت، اقتلني.. فلا خلاص مني بغير هذا!!

قلت: - يا لها فكرة .. أن انصب لك مقصلة، وأقيم محكمة!!

قال: - أنا راض .. فقط؛ لا تكن أنت حاكمي!!

قلت: - قد يكون هذا ذات يوم .. دعنا أولاً نكمل مهمتنا!!

وضعت المرأة العسلية قدح الشربت الذي بلون شمس الغروب أمامي، وجلست محاولة قراءة كنه متغيّري كان كل ما يحيط بي يبعث على البهجة والسرور، فجأة أحسست نفسي منعزلاً عن هذا العالم، العالم الذي شيد أيام فتوتي ومراهقتي وشبابي، كنت أبصره مثل أنقاض الحروب، بقايا تمنت نفسي لو تلاشت مثل ما تلاشت حياة الكثير ممّن عرفت، قالت، وهي تتعمّد ملامسة يدي التي ارتجفت ((كانت يد الفتى الجنوبي هي التي ارتجفت، نظرت إليه مشجعاً، فأطرق بحياء، لابت نفسه باحثة عن منفذ للفرار)).

- مالك، لا تقول شيئاً؟!.. ما الذي حدث ؟

مكتبة الفكر الجديد

قال الفتى الخجل، وهو يتنحنح، ويصفن للحظات: - كما ترين..!! وسكت، كيف استطاع ولوج هذه اللعبة التي ما كنت أعرف أنه يتقنها كل هذا الإتقان.

قالت: - ماذا أرى .. لا شيء غير أنك عدت كما كنت!!

قلت: - ما عدت أنا، بل هو؟

قال: الفتى الجنوبي – جئت لأطلب منك طلباً!!

قالت: – ومتى منعت عنك ما تطلب .. ماذا ؟

قلت: – لست أنا .. بل هو ؟

قال الفتى الجنوبي: – فلنتزوج؟!!

هدأت العاصفة، ورويداً بدأت النيران تتعالى؛ لتأخذ إلى حضنها مخاوف صمتنا وأسانا، ارتجت أرجاء البيت، وغدت الجدران حدائق ومهرجانات، وما لبثت المرأة أن دارت مثل نحلة، أخذت بيدي، ونظرتني عميقاً محاولة سبر أعماقي للوصول إلى مدن الصدق التي أظهرها الفتى، قالت بصوت ناعم مثل خيط ندى:

- أو حقاً ما تقول ؟

قبَّل الفتى الجنوبي طرف الخد بحياء، وهمس: - ولمَ لا؟! .. أحبك، وهذا يكفي!!

قالت وهي تداعب أصابعه، وتتملّى في الوجه الذي طرد تعبه، وعاد مثل وردة أقحوان.

- كم أنت رائع؟! .. لمَ لم تقل هذا من قبل؟!!.

مكتبة الفكر الجديد

قال الفتى الجنوبي: - لا داعي لكل قول .. فقط؛ عليك أن تقولي نعم ..!!.

زفرت المرأة حزنها، وقالت: – لا حاجة لهذه النعم .. فقلبي قالها منذ زمن طويل!!

قلت: - مبروك.. غداً أعود اليكِ لأتمّ عقدَ القران!!

قال الفتى الجنوبي: – ولمَ غداً؟! دعنا نتمّ كل شيء الآن!!

قلت: – لا تتدخل غداً .. لأكون جاهزاً للحدث السعيد!!. ضغطت زوجة عمي فوق رقبتي، وظلت تجوس بأصابعها فوق الصدر، فلم يعد يعنيها موافقتي، كانت تعرف أن ليس ثمة معنى لكل هذا الذي اسمه أنا، استحوذت على هيئة جسدي، وما كان على فمي إلا أن يقول ما تريد، قلت: – ولم لا نصبر قليلاً .. ليس لمخاوفك هذه أيما مبرر!!

أبعدت أصابعها، وتلمّست البطن دون أن تفوه بشيء، لقد دمّرت هذه المرأة عالمي، وتريد الآن الإجهاز على ما تبقّى .

ضربت رياح الاضطراب جسدي، وخفقت أعماقي بخوف، فلم أعد غير بقايا رجل كنته ذات يوم، قالت :

- عليك بالصمت .. تصوّر وكأن الأمر لا يعنيك!!

- لا يعنيني .. كيف ؟

- أنا أهيئ لك ما لا تقدر على فعله .. فقط؛ انتظر، وتأمل، وسترى كم هو رائع الحب حين يريد الاقتراب من الفجيعة!! ارتجفت يداي، وهمّت روحي بأن تضغط فوق وجع هذه الرقبة التي تعودت البريق وإصدار الأوامر، أطرقت طويلاً، فأحسست حرجي، أحست حزني الذي نبع مثل ماء، كانت تحاصر عمري كله، من أجل أن تشيد عمرها كله!!

مكتبة الفكر الجديد

فإلى ماذا يمكن أن يأخذني كل هذا الارتباك، وما الذي سأكون عليه بعد أن فاضت أنهار تعبي، وامتلأت روحي بسيول الانهيار، مَن يرمّم هذا الجسد ؟! ظل رأسي عاجزاً عن الحركة، وتوقّفت عيناي عند مساحة فضاء القلق، كان علي أن اسبح في لزوجة انتمائي، أدرت عيني، وأحرقت حلقي بكأس آخر .. وآخر، وعند حافة الانهيار سقط الموت عند قدمي، سقطت المحنة والخوف، ورويداً؛ اخضرت شجرة الود، قالت المرأة العسلية التي تقيأها رأسي، فوقفت مثل خادم عند طرف المائدة: - لمَ .. لم تجيء!!

قلت: - ولمَ أجيء؟! .. كان هو الذي أخبرك بما يريد، لا أنا!!

قالت - أيّ لعبة قذرة تلعب!.. كنت أظنك تحبني حقاً!! قلت وأنا انفجر مثل قنبلة يدوية: - أحبك؟! .. ومَن يضمن لي هذا الحب؟! .. مَن يطمئن قلبي على أنك لي وحدي؟! .. ليس ثمة ما يجعلني أشعر أماناً إزاء كل شيء!!.

رمقتني باشمئزاز، ورفعت يدها هامّة بصفعي، لكنها تراجعت هازّة رأسها بأسف، قلت:

- لاشيء يُتعب رأسي أكثر من هذا.

- هذا الشعور وضيع في الحب!!

- لا .. أنت مَن دفعني إلى جرف الانتظار .. خنت السيدة لحظة وضعت رأسها لتموت، لم تنتظري نهاية لعبتي وإياها .. زوجة عمي خانت فراشه، ما إن تحول إلى خرقة عند باب الحوش، لم يصفرّ بياضها بعد .. أبي خان أمي بعد ليلتين من زواجهما .. جدي ترك الجدة المسكينة، ومضى ليرتمي عند أحضان، لا أدري كم من النساء ..

مكتبة الفكر الجديد

الغرف الحمر جعلتني أموت انتظاراً، نزلاء السجن المركزي جعلوني أتفنن في دراسة الخيانات، باحة السجن كانت تمور بخيانات الصحب..!!

- كان عليك أن تلقي كل هذا وراءك، وتجيء مغسولاً بالحب!!

- كيف؟!.. كيف يقدر الإنسان أن يرمي وجعه وقد صار دمه الذي يجري بين العروق .. ما كان عقلي يتحمّل ريح النقاء! وما عدت أصدق أن ثمة مَن يقول الحقيقة سواي ..؟! .

- مرضك هذا سيدفع بك إلى الهلاك ؟

- وأي هلاك أحسن مما أنا فيه؟! .. لا أعرف أين أتجه؟ .. ولمَ هذا الاتجاه دونما سواه، أريدها شجرة وارفة الظلال، أتفيأ عطاءها، فأحس أماناً وثقة وشجاعة!! .

- ما عادت عطايا النساء تهمّني .. ما عدت أتحمّل ملمس الأيادي الناعمة ..!!.

شبت نار الكأس السادسة، فتلاشت الأنثى، وامتلأت صالة الحانة بلهاث وتوسلات، كانت الأصوات الهاسة تتقيأ أحزانها، وتموء باحثة عن دروب، يمكن أن تؤدي بها إلى الأمان، رفعت رأسي محاولاً الإمساك ببقايا أملي، بقايا الإنسان الذي كنته.

غمرني الوجع، ولم اعد أقيم وزناً لسوى صوت العذاب الذي أعيش، كنت أرغب باجتياز ممرات عتمتي، ولكنْ؛ إلى أين تراني أمضي؟! أردت إيقاظ الولد الجنوبي الشاعر بالثقة والأمان، لكنه أعلن تمرده وعصيانه، نظرني بغضب، وسبّ ضياعي الذي دمّر كل شيء، طلبت منه السكوت، لأبحث عن رفيق درب، يجعلني أبصر ضياعاتي، ويسهم وإياي في جمع شتات وجعي، لكني رميت نفسي إلى محطات ألمها دون لحظة

مكتبة الفكر الجديد

رأفة، انغرست قدمي عند الباب، كنت أحدق في ظلمة اللون، وكأني أرى الأشياء التي تحيطني لأول مرة في السجن المركزي، كان ثمة شجرة سدر، قالت عنها العقول أشياء غريبة، وادعى بعضهم أنه هو الذي أنبتها منذ سنوات، كنت أرى بعض الأجساد، تتفيأ ظلالها، وتستخدم الأغصان علاقات ملابس، أراقب الاخضرار المائل إلى السواد، وبغتة اكتشفت أن شجرة السدر لم تعد في مكانها، كانت آثار اقترابها من الشرك الخارجي واضحة، وثمة حبال تدلّت بدل الثمار التي تساقطت مثل حصى، أعلنت اكتشافي المثير للدهشة والاستغراب، فقال البعض: إنها علامة من علامات اقتراب الساعة.

وقالوا – إنما الأرض تكره الأشجار التي تنبت في باحات المواجع والآثام ..

وقالوا: – البلوى إن أحست هذه الشجرة بما يحدث لها .. فأردات الهروب، لكنها اصطدمت بالجداران العليا والحرّاس المترقّبين، فقرّرت أن تموت عند الأسلاك الشائكة مثل مئات الأشياء التي تموت، وهي تقترب من الخارج !.

وقالوا: – إنما هي علامة من علامات الدهور المتغيّرة والأزمنة التي دمّرتها الحروب والشظايا !.

وقالوا: – إنما هو حدث اختلقه عقلي المريض الباش عن المعجزات في زمن أسود حضوره!!.

أيقنت أن الشجرة إنما اقتحمت فضاءات عزلتها، لكنها –بغتة– شعرت أنها لابد ستفقد الأمان وحدتها، فتراجعت إلى حيث الاطمئنان، كانوا يحدّقون في جذعها الذي بدأ يتهرأ مثل جسد مريض. ويمسكون ببقايا

مكتبة الفكر الجديد

المشانق التي كانت تصدر أصواتها غريبة. أصوات استغاثات وبكاء وشجن ونواح وتهديد. ورويداً، تيبّس الجذع، وغدت الأغصان الخضراء المائلة إلى السواد مجرد هروات، يحملها الحرس متبخترين مثل طواويس مريضة!.

تفحّصت الباب. وتلمّست حوافّ الحديد البارد. وجاست أصابعي فوق بحور الاضطراب. ما كنت أصدق أن قدمي يمكن أن يأتيان بي إلى هذا المكان الذي غادرته غاضبا، وها أنذا أعود مثقلاً بآلاف الأسئلة والأحزان والشجون. دفعته بهدوء، فهدر صارخاً. وانفرج عن ظلمة قاتمة. وفجأة؛ برز الوجه الباسم دوماً، وهو يلوّح بكلتي يديه. قالت: -: حسناً فعلت أن جئت مبكراً !.

أبصرت ابتسامتها. وأبصرت وجودها الباعث على التفائل أو جسدها يرفل بألوان بهيجة، قلت متعمّداً إثارتها: - كم كنت رائعة ؟!.

أخذت بيدي إلى فؤاد الظلمة. وعند الباب الداخلي، احتضنتني قائلة -: مبروك !.

قلت: - ماذا وراؤك؟!!

قالت: - لقد قالوا كلّهم نعم !.

قلت: - مَن قال هذه نعم؟!!.

هزّت رأسها متأسّفة. وأفلتت يدها من حول خصري. ومثل رجل أعمى قادتني باتجاه غرفة النوم. كان ثمة عطر بهيج، يغسل رائحة العرق وشذرات الألم التي اجتاحتني مثل مطر غزير. ارتمى الجسد فوق أول فراش رآه، أو أشعر أن ثمة برودة بدأت تنغمس في كلي بألفة ولطف. طويت رأسي إلى اليد، وأغمضت عيني. كنت أشم رائحة

مكتبة الفكر الجديد

جسدها، وهو يسوّر جسدي. تلمّست هدوئي وصمتي، قلت: - نحن عند خط بداية آخر ! قالت، وهي تفرك أطراف أصابع قدمي:

- بل هو الخط الأخير، حلم سعت أقدامنا إليه، وها نحن نراه بين أكفنا .. فقط عليك أن تتأمل حياتك .. إنه انتصارك الذي غادرته منذ أول إطلاقة رشاش .. ما فائدة أن تظلّ هكذا .. وأظل معلقة في فضاء مخيلتك .. كان عليك أن تنضم آمالك من أجلي ما الذي فعلته غير السقوط في نيران المأساة؟! .. وحدي سمعت خطواتك إلى ما تريد .. قلقاً منهاراً، أراك، ولابد أن أعيدك إلى الفتى الذي كنته، الفتى المفعم الحسّ والآمال الراسم لخطوات سعادته، أو جعلتك المواجع تدفن ذاتك دون أن تقيم وزناً لشيء .. ما فائدة إنسان لا يشدّه إلى إنسانيته شيء، أو لا تنظر إلى المرآة، لترى كم أخذت منك الأيام مآرب ونهايات.. لمَ ذبحت ذاتك في ضياعات وانهزامات، دون أن ترفع حتى يد الاحتجاج ؟!

اضطربت أنفاسي. وبدأ جسدي يسبح في برك من الصقيع ليس ثمة أن تجد نفسك عاجز عن القول عند انهمار شفتي امرأة تحبّ. تقعد أمام جهدك المنهوك، وتقيم منصة وادعاء، أيّ عدل سيكون؟! .. وأيّ متهم أنت؟! .. وأيّ عقاب ينتظرك؟! تمنيت نفسي لو أنها تلاشت في غيهب وجودها. لو أنها ما كانت شيئاً، وما حلمت أن تكون أيما شيء. أيّ فائدة تُرتجى حين تراود أحلامك كل ليلة، لكنها تظل حبيسة رأسك الوارم بالسواد ؟ استيقظت آثامك رويداً، فمددت يدك خجلة إلى وهج أنوثتها محاولاً إشعال مواقد رجولتك الخابية. أنت المرأة التي كانت ترى فيك مجرد شيء بال عتيق، لا بد من أن ترميه!!

شعرت روحي بطائر الفشل، يحط فوق هامتها، فتحركت نافضة غبار الاستكانة. كان الفتى الجنوبي يبكي بعمق، وهو يراقب هذا

مكتبة الفكر الجديد

الاغتراب .. ويشد جسده إلى رطوبة الأرض التي انكشفت عن ستار من الطرق. كنت أبصره لائذاً إلى قلق تخاذله، أردت الاندفاع وإياه إلى أمام، أردت ترويض الحزن الذي يشيد في أعماقه صروحاً من الفشل، لكنه ومثل كل أولاد الطين، كان يفرك عينية بكفه، ويهيم مقذوفاً في دروب صور، تمرّ في رأسه الموغل بالانكسار، أردت منحه بعض عنفوان فتوتي، فرفض. علّمته كيف يمارس ألعاب الخبث والاستهتار، فأنّب ضميري، وقال بلغة واعظ عجوز:

- دع عنك آثام الأرض، فما خُلقنا إلا من الفراديس التي هناك!!

صفعته. فظل يحدق بي. ثمة لؤلؤ ينسرب من بين عينيه، كان بكاؤه يُحزن فؤادي، يرمي بي في غرائب الإغماء، أمضمض حلقي بجيف العفونات، وأنفجر باكياً، ينهض بصبر، ويمسح دموعي متوسّلاً، كنت لولا وجوده مجنوناً يسعى إلى قتل الإنسان الذي يحب، وكان لولا وجودي عمراً تدمره مخاوفه، احتضنته بأخوة، فأخذني إلى صدره، لا أدري أي دفق من الحب كان يعبر إلي، تراخت أوردتي، ونمت في أعماقي أشجار الحبور، قال:

- أوَ لا تبدأ؟!!

قلت وأنا أمسح مساحة البياض، وأتمنى لو انهمر الكلام فوق هذا السطح الذي يعذّبه الانتظار.

- كيف تكون البداية، وأنت تعرف كيف أتعذب ؟

قال، وهو يناولني قلماً:

- هيا، اختر ما تريد من البدايات!!

مكتبة الفكر الجديد

قلت صارخاً: – أحسّ عجز الفؤاد .. لن أقدر.. فما عاد الكلام يطاوع مخيلتي!!

قال: – وهمّك قتل همّتك .. أنت اخترت المشي باتجاه مدن الكلام.

– وتطالبني بالقول ؟

– الكتابة وَهْمُ العاطلين عن ملاحقة أحلامهم!!

– بماذا أبدأ .. والحروف نيران تلتهم أعماقي؟!!

– سؤال يصلح أن يكون بداية الخطوات التي أرادت أن تكون، لكنها تعثرت ..!!

– أيّ معنى لهذا؟!!

– لكي لا يضيع الإنسان وسط حيوات معطّلة، عليك أن تدوّن تاريخ أساه!!

– ها أنت تضعني في زاوية حرجة .. عند نقطة ضعف، لا أدري متى تكون نقطة قوة!!

همست المرأة، وهي تحرّك جسده الساكن، بعد أن أحسّت عطشاً وتوقاً لرجل، يداعب ليل وحدتها .

– أوَ ما مللت النوم؟!!

قلت، وأنا أفتح عيني، وأرقب ببطء ضوء جسدها المطروح بفتور إلى جانب جثتي المتفلّشة.

– ما كنت نائماً .. إنما هو الآخر كان يحدّثني!!

قالت، وهي تحاول إثارة جنوني:

– دعك منه، وتعال... في شوق إليك، أيها الباعث على الجنون!!

مكتبة الفكر الجديد

- تدحرج الجسد إلى فوق ضيائها، ومثل ومضة ضوء اشتعلت الأرواح.

مكتبة الفكر الجديد

ربما تشيده المساءات ❖ وقد يتوارى

الخطوة التي ستأخذني سوف تمنحي عمر الأرض الذي ظللت أبحث عنها طوال السنوات التي حدّدت رجولتي، وجعلتني دوامة غبار مزعجة، لا أحد يلتفت إليها إلا حين تهبّ، ستأخذين خطوتي رغم عدم اختيارها، إلى حلم، كنت أغمض عيني، لكي لا ينسرب خارجاً، حلم زرعته حكايات جدتي، وأنشأته أحلام الجنوب التي صيّرت مني خائفاً يترقّب ،كنت أبصر حلقها، وهو يضمّخ قلبي بالوجع والتوسلات، فأظن أن ليس ثمة سوى عالم جدتي المائر بإناث من زبرجد . الخطوة التي تقرّر عليّ مشيها، ستجعلني أبايع كل ما يمكن أن يصيّرني سيداً، ويُبعد عن كاهلي أحاسيس السجن المركزي والغرف الحمر وتراب السواتر وأزمنة الجوع، لا بد وأن للسيادة ثمناً، وأعتقد أني نزفت ما يكفي من الخطايا والآثام، واقترفت يداي أشد الجرائم هولاً، قتلت طفولتي عامداً، وجعلت الفتى الجنوبي الذي كان يطمئن لوجودي يتهالك عند أول زقاق صادفه، أسوطه وهو يجر عربة النفط، ولحظة يحس تعباً أطالبه بأن أرتاح أنا، وأن احلم أنا، وأن يظل هو ساكناً في طين قلقه، مَن صيّرنا في حلم واحد؟! أما كان الأجدر بك وبي أن ننفصل منذ تلك اللحظات التي وجدتك تتساق وراء رغباتك وطيشك، رمت لك السيدة فتات جسد متهالك مهجور، فرميت نفسك إليه دون أن تفكر بالغد، جعلت يومك دهراً متصلاً، وخنت حتى عربة النفط التي أعطتك محنتها، ساعة الجد الذي باع دمه، وتملّق أبواب السلاطين، من أجل الحصول إلى مباهاتها، ماذا كان يقول للسلطان: لكي يرضى عنه؟!!

مكتبة الفكر الجديد

أوَ تظن أن الوصول إلى أمام عروش السلاطين أمر يتمّ دونما عبودية وتوسل وانتماء لنذالات، أن تقف أمام السلطان، وتقول ليسمع، ويرضى عما تقول، ليمنحك ساعة صدره ؟! فهذا يعني أن لك القدرة على أن تكون سيداً من درجة النسّاجين للأكاذيب، ترى، فلا تقول حقيقة ما تراه .. وتسمع، فتحرّف الكلم عن مواضعه، وتنسج كلاماً يرضي ألق التاج. كيف يكون السلطان، إن لم يحارب، ويقيم الحدّ على مَن يشعر أنه يمثل خطراً على مصالح الأمة؟! .. يهدّد العرش بأقوال تافهة عن عدالة أرضية ومساواة إنسانية، السماء جعلتنا نعي الدرس، وهي التي قسمت الأرزاق، أوَ تظنّ أن جدك ما كان يعرف هذا، لحظة سعى باتجاه السلطان، تجيء أنت، وتجعل من عربة النفط مجرد رغبة تسكبها بين يدي السيدة، رغبة في اجتياز محنة الفقر الذي تعيش، كنت تتوهم فقرك، عبوديتك، جعلتني أشعر ندماً؛ لأني ما طاوعت إنسانك، فما الذي جنيت غير هذه الخيبات المتلاحقة والكراهيات التي لا طائل من ورائها، إلى ماذا وصلت، وخطوك يتعثر ؟! إلى أيّ الطرقات اتجهت؟! أوَ تراك قادراً على اجتثاث بلواك، ورميها بعيداً، بعد أن جعلت الفتى الجنوبي يركع متوسلاً ؟! أن تمضي إلى حيث يريد الناس، الذين لم تبصر ضوء عيونهم منذ غادرت روحك أوكار أنسهم، لم يعد ثمة ما يجمعك بهذا الهدير غير وقع خطواتك وصدى صوتك المتوسل وتلك الأوشام التي لا يمكن إزالتها ابداً ،، تعرّشت أكف الفتى الجنوبي، وأقام لنفسه مماشي، تكون أول الخطوات صوب موزانة عمره الذي تبدد بين الحانات والحروف التي انطفأ وهجها، أو ابيضاض العرق، وغناءات الهم، أو تتقن حناجرنا غير هذا النواح الموغل بالهموم الذي لا مبرر لها، يهز الفتى الجنوبي رأسه، فلابد أن ثمة ما يجعل القلب يرمي وجعه، ويغادر، يحاول الفتى الجنوبي .. فهو الذي كان يحارب غير مكترث

مكتبة الفكر الجديد

لشيء، كان جنوبه يحفر في أعماقه أسئلة ما استطاعت الحروب الإجابة عنها، لكنه ما شعر بلحظة ندم // في السجن المركزي، كنت ترى إلى الذين يدعون الجنون، وهم يبارزون محنة وجودهم، ثمة محنة أن ترى نفسك تعيش رتابة اليوم، محنة الانهيار، والسقوط في بوتقة تكرار يجعلك ترنو إلى غضب الأرواح التي لا ترى معنى لوجودها، كنت أشعر بتفاهة ما نحن فيه، فليس ثمة أتعس من رجل يدّعي الجنون، من أجل رغيف خبز وومضة رضا من سجّان، وكلمة خطية تسمعها ترنّ من الحلوق الجافة المتهيّئة للصراخ، تأخذ إلى نفسك زاوية قصية، وتظل مترقّباً، فيجيء الوعي، يجلس الرجل الطويل مثل نخلة أمامك، يداعب شفتيه وضوء عينيه يشع وفق تقاطيع وجهك الذي يخفي وراءه بوح اللحظة، ومحاولة اختراق وجودك الذي بات يقلق الكثير، كان الذين يدّعون أنهم أبناء الله، يلجون أبواباً، تثير الاشمئزاز، سيل من الأكاذيب والاتهامات والخيانات التي لا تؤدي إلى غير إثارة جدل تعب، يقول الرجل الذي يدعي الجنون - إن الحقيقة خطأ اختيارنا ،والحقيقة الوحيدة التي يجب أن يتحدث من أجلها الإنسان. هي المرآة التي لولاها لتلاشت أرواحنا، ولغدونا مجرد فراغ فرّ إلى فراغ!!.

تهدأ روحك قليلاً، وتغادر مدارج المرح، فثمة ما يتفوّه به هؤلاء الذين يدّعون الجنون، وكأنه صادر من أعماق اضطرابك، تدخل ذاتك في لعبة الجنون، فلقد أتقنت هذا الدور، وانغمرت روحك بكثير ممّن ينسجون حكايات جنونهم، منذ طفولتك التي هناك، كانت شوارع الطين ترى إلى السيد قاسم، وهو يحاورها حاملاً فوق ظهره أكداساً من الأساطير، يتملّقه الرجال، وتحس معه النسوة بألفة، فتفكر أيّ جنون هذا .. ولمَ لا يجلس هذا الغريب، ويكون سيداً لمن يحب ؟! أجلستك أمك بين يديه، كانت تريد معرفة كل شيء عن الآتي من الأيام، كان

مكتبة الفكر الجديد

يقول ما لا يعرف، أو كانت عيونها تلوب باحثة عما يحرك شفتي السيد، يأخذ باليدين المهزومتين من الخوف، ويحرك الأصابع كمَن يبحث عن خطّ، يوصله إلى ما تريد الأم الحائرة، يرين الصمت، أو تهدأ الأنفاس، فتود الأم لو انكشف الستر، لو انسكبت حياة ولدها بين يديها مثل انسكاب طاسة ماء. تقول :

- ها سيد .. أراك لا تفوه بشيء حياة ولدي بخطر؟!!. يحرك جسده مصدراً أصواتاً تشبه أصوات قطط جائعة، ويمسّد اليد التي أصابها الخدر مثل يد أنثى، تشعر بالارتخاء، وخوف إغضاب السيد تركن إلى الصمت، تداعب ليل جدتك المثير لدهشة العفاريت والجن وبنات السحر والملفوفين بغبار المفاتن، تدعو غضبك إلى قلب الجدة، فيرتفع نقاب الرؤيا، لتشرف آمالك حاطة عند أول بوابة قصر. يقول السيد، وهو يغسل صبح عينيك: - ولدك، يا امرأة موجوع بالقلق!! .

تشهق الأم، وترقب الجدة عيني السيد الذي كان يرى إليها مبتسماً، ثم سراً لا أعرف كنهه يربط بين حافة حكايات الجدة وجنون السيد المطعون برائحة التراب، تقول الجدة: - ومال هذا المسكين والقلق؟!!

اليد الخشنة مثل مجرفة، تجسّ ترف خدي، وتحدق الأم بين العينين، أو ثمة ما كان يقرؤه السيد حقاً، أو ثمة ما يجعلني أؤمن بتلك النبوءة التي طمستها السنوات، نبوءة السيد السابح بجنون سماواته. يقول :

- لا أدري. لكني أرى أنه يسكن مدناً غير مدننا، ويبني مدناً، لا يمكن لأحد سواه أن يراها مجنون بامرأة يبقى!! تقول الجدة: - أوَ يتزوج أكثر من واحدة؟!!

تقول الأم: - ما له وتعب الرأس؟! .. واحدة تعذّب قلبه تكفي!!.

مكتبة الفكر الجديد

يقول السيد، وهو يفلت يدي، مثل مَن يطلق حمامة ظلّت لسنوات حبيسة برجها، كنت لا أرى غير عالمه المسكون بالأشباح، حاولت الفرار، الهروب إلى لزوجة الطين وصراخ الصبية، وعبث الألسن، لكنه شدّني إلى الأرض بقوة، نبش جسدي مثل شوك، واستدارت محاجري تبحث عن دروب، تحوّل الفرار إليه، منذ تلك الأيام والدروب تتعب مشاوفي، لم أر غير غبار خطواتها التي تربك خطوى، يقول:

- لكم تعذّبه أيامه - أرى أن هذا الولد محاط بهالات من الضجيج .. قد يمشي في دروب توصله للموت .. وقد يمشي دروب للصراحة، وقد تكون هذه الدروب منائر من كلمات .. قد يصبح سيداً.. وقد يطوقه طوق عبوديته إلى أزل نهايته .. قد يغسل ببحور من الآثام، وقد يصير أملاً لغيابات وديعه. تأخذه المدن إلى غربتها .. وتأخذه الغربة إلى مدن أحزانها، يصير وجوداً للارتباك، لكنه ومثل حمامة يطير بالاتجاه الذي يريد .. الاتجاه الذي سيبحث عنه حتى تكلّ قدماه، وتتعب، وينزف قلبه وجعاً ما مثله وجع!!

ترفع أمي شيلتها إلى أنفها، وتوقّف جدتي مسارب الماء التي بدأت تنحدر إلى ما تحت الخدّين، يظل السيد مأخوذاً بالرؤيا، فيبسمل بصوت جنوبي سريع الوقع، ويهمس في أذني، كان يتعمّد إثارة النسوة اللواتي تلفّعن بالأحزان.

- حاذر أن تبقى بين يدي امرأة واحدة .. جسدك ماخُلق لغير التكرار، ونفسك لا تشعر أماناً حين تدمن فراشاً واحداً .. تتعبّد نظرات الأثاث، لكنك ستجد مَن تقيم لك طقوس صلاتك الأخيرة!!

قلت بصوت مرتبك، جعلني أرقب انطفاء عينيه :

مكتبة الفكر الجديد

- ولمَ لا تختصر لي الطريق، وتدلني على تلك التي تقيم طقوسي؟!!.

اشرأبّت رقبته، وأخذرأسي إلى صدره، أو بصوت تعمّد أن تسمعه النسوة المستغربات لهذا الحوار الذي شيدته آثام أرواحنا، قال:

- أبداً، لا أحد يقدر!!.

- لمَ؟.. مادمت تعرف أن الطريق التي توصل إلى النهاية هي تلك!!

- وما أدراني، يا ولد؟! .. إني أرى فقط، وعليك أن تعيش وتلمس وتقرّر!!.

عبرت ذاكرتي جدار الأيام، فلم يعد ثم ما يربطني بذاك العالم غير خراب الروح وباحات الأجساد المريضة بالوَهْم، كان الرجل الذي يجلس قبالتي يتأمّل باحة السجن المكتظّة، ويتمنى لو تجاوزت روحه اسيجة الكونكريت التي بنت عروشاً في عمق الأرواح، عروشاً لا يمكن إزاحة تأثيرها، مهما بلغت السنوات خطوها، كانت باحة السجن تملأ علينا حضورنا، فنغدو باتجاه اختيارات قد تبدو غريبة وشاذّة، لكنها تبدو بين أحضان الوحدة والشوق أمراً مألوفاً، ولا بد منه .. خطت روحي باتجاه برها، كانت صورة الأب المريض المراقب لحزنه تلحّ منذ أول الفجر، أو المسافة بين ذاك الأب الصلد مثل حديد والفتى الهائم في نور جنوبه غدت شاسعة جداً، أبداً؛ لا يمكن لخطوات تعبه أن تصل إلى الجهة التي يريد، تلحّ النفس بأن يذهب إلى هناك؛ ليشم عطر الأم التي مازال محملها يتضوّر بروائح المسك والبخور، يذهب ليرى غضب الجدة الذي أعمى العينين، وجعل الجسد مثل كومة عظام، ماذا تراها تقول إن أحست وجودي، أوَ تعرف أن الولد الذي تحب، صار مجرد ظل يسعى،

مكتبة الفكر الجديد

أفسدته رياح الغربة وعذابات الحرب ؟! أوَ تعرف أن ثمة فرقاً بين الرأس الذي كان يصغي إليها مأكولاً بالانبهار، وذاك الدائر في نواعير الأسئلة ،، دفعت الباب بهدوء، وانتطرت خطواتي للحظات، ومثل غريب تفحّصت عيناي المكان، ما الذي لم تغيّره السنوات ؟!

البيت لم يعد يشبه الخربة التي آوت طفولتي، لم أر غير أنقاض من التعب والحزن والانتظار، عند مقدمة صالة الاستقبال، // لقد صارت عندنا صالة استقبال وكراسي وغرفة طعام ومناشف يد وعلب من الكريستال // كانت صورة الولد الذي كنته ذات يوم، ولد حيي، بعينين تومضان غرابة، أنشدت أنفاسي إليه، وحاول رأسي تذكّر هيئة إنسانه، بماذا كان يفكر ذاك الصبي لحظة تجمّد زمنه، قلت: - ربما هو أخي!!

وقلت: -ربما أبي يوم كان ولداً تملؤه مباهج وجوده!!

وقلت: - ربما هو ابن عمي ..!! ظلت عيناي تحاولان اختراقه، لكنه ومثل حصان عنيد أغمض عينيه، ومضى لائذاً بزمنه الذي صار قوالب من غبار وذكريات، تفحّص رأسي الصالة، كان كل ما يحيطني لا يمكن أن يكون قريباً مني، فتحركت روحي باتجاه عبثها، وهمت يدي بأن تحطّم المصلوب فوقنا .

قلت: - ما الذي يفعله هنا غير النظر إلى هذه الأشياء التافهة والانتظار ... يا له من زمن عقيم هذا الذي يعيشه، لابد من قتله!!

نظرني المصلوب مبتسماً، وحرّك شفتيه، أوَ قال: - امض .. فلم أعد بحاجة إليك .. أدمنت بقائي هنا .. منذ متى وأنت لم ترَ غير أنت؟!

مكتبة الفكر الجديد

.. وضعتني هنا، ومشيت حتى دون أن تفكر .. ما فائدة كائن مصلوب .. ليل نهار!! قلت، وأنا أبعد يد – حسناً، لتبقى مشنوقاً بحبال انتظارك!!

فتح فاه، لكني تجاوزت غضبه، مضت خطواتي باتجاه الباب النصف مفتوحة، وبغتة، اصطدم جسدي بكتل من الصرخات، تراجعت مذعوراً، فتراجعت الكتل إلى وراء، وهي تصرخ، علت أصوات الاستنفار، فتوقّفت قدمي، ونزف حلقي لهاثاً، انفجرت الأفواه بضحكات، ما لبثت أن سبّحت في بحور الاستغراب، كانت كتل الصراخ هي أختي الصغرى، أختي التي لا تعرف سوى أن لها أخاً يعيش بين دفء الطرقات!!، أحاطني الفرح، وقبّلتني زوجة أبي، تزوج الأولاد، ورحلت البنات، وغدت البيت مدفناً، تمشي في أعماقه أصداء أصوات بعيدة، أخذت البنت إلى صدري، كانت تشبهني إلى حد، لا يطاق، أجلت النظر بينها وبين صورة الجدار، فلم أعد أميّز، قلت لنفسي:

-ربما تكون هي!!

ابتسمت زوجة أبي، ومن قلب الظلمة، من وسط ليل أيامي، جاء الصوت الذي أحب، ليسقط فوق هام الرأس مثل مطر ربيعي، رطب .. عابق بروح تراب الأرض، قالت :

- مَن جاءكم؟!!.

أخذتني أختي من يدي، وعند قدمي كتلة العظام التي تتحدث، أوقفتني، كانت الجدة قد غادرت عالمنا منذ رحيل عمي الذي أخذته سورات الحرب، غادرت حكاياتها الموغلة بالجنون، لتحطّ عند ترقّب الجد الذي تظنّه سيأتي عند أول لحظة تذكّر، قالت الأخت:

- إنه هو جدتي!!.

مكتبة الفكر الجديد

شهقت الجدة، وتحرّك الجسد الذي ظلّ هامداً طوال أزمنة الحرب، كانت تلوك حكاياتها بصمت غيابها، ولحظة عبقت ريح فتوتي، عرفت أن ثمة ما يبهج القلب قد ملأ مسافة حلمها، بصوت حزين نابع من زمن الخرس الذي أصاب حياتها، قالت:

- أوَ جاء جدك بعد هذا الغياب؟! .. أوَ تذكر أن له زوجة وأولاداً .. أوَ عرف أن الطائر لا يمكن للسماوات، مهما كانت واسعة أن تسعه؟! .. أوَ ملأت فراشك امرأة أخرى؟! .. أعرف أن غرورك قد رماك بين أحضان امرأة .. هكذا أنتم ما تلبثون أن ترتحلوا صوب نسوة الآثام .. أوَ تعرف أن لك حفيداً يشبه جنونك وغيابك وأورام روحك .. هو الآخر لا أدري أين حطّت به خطاه؟! .. كلما سألت عنه .. قالوا .. اسكتي، فلم يعد أمره يهمنا، كيف يمكن للقلب أن يتحمّل عذاب فراق محب، كيف يغمض الإنسان عينيه، وثمة فراق يرفّ فوق رأسه ؟! وحدتي كبرت، وعمري صار وجعاً وترقّباً، كانت أيامي مسكونة بك، وما لبثت أن سكنت بالولد الذي غادر دون أن يعرف أن يعرف له أماً تنتظر، وزوجة صار فراشها بارداً مثل عاصفة ثلج، وصبية أورثتهم عزاء طفولتهم، ورويداً صار الحفيد الذي أحب هباء، غادرني حتى دون أن يرى إلي، ما الذي أصاب الزمن؟! ولمَ هدم كل تلك القلوب التي آوت محبتي؟! .. أخيراً: جئت، ولترمي بين أحضاني تعبك، وتقص عليَّ، أيّ رجل أنت ! تحاول إقناعي أن غيابك كان هاجساً، لابد منه، هاجساً ذبح محبتي، وشيّد قدرك، أعرف كم أنت مشتاق إلي، ولكني ما عدت أتحمل عذاب غيابك .. قبل أن تلمس محبتي، أقسم لي، بأنك لن تغادر بعد هذا الإياب، أقسم أنك لي وحدي، وستبقى .. وإلا أذهب حيث تشاء، فليس ثمة جدوى من ذهاب وحضور وذهاب، أوَ ما تشعر بالحزن، وأنت ترى أحفاداً، لا تعرف حتى أسماءهم ؟! أوَ لا تخجل أنفاسك، وأنت تبصر

مكتبة الفكر الجديد

بياض رؤوس الأبناء؟! كيف؟! .. ولمَ تركتني أصارع كل هذا الألم ؟! ما جدوى أن تمضي وتترك وراءك فيضاً من الأحاسيس والارتباكات، وما قلت لنفسك إن الطريق لابد وأن توصلك إلى هنا، لا إلى هناك؟! .. بلوى .. بلوى، يا رجل أن تترك امرأة وحيدة، تصارع وحدتها وأحزانها، ليتك تعرف أيّ ذئاب أحاطت بي، أيّ أيادٍ حاولت جسّ نوابض وجعي، أيّ أكفّ حاولت تلمّس برد فراشي، ليتك تعرف.. ما كان الليل يجيء حتى تشتعل صوب جسدي مئات الرغبات، التي تجعلني ألوذ بأذيال وحدتي، وأرنو إلى وقع أقدام الفراغ، كنت أعرف أنك ستجيء .. وتسقط عند قدمي أنوثتي، وتصرخ .. حاذر أن تصرخ، بتّ أكره الأصوات العالية، لا تصرخ .. فليس المغفرة بشيء .. أسامحك، أرحّب بك، ثم ماذا؟! .. أوَ يمكن للروح أن تنسى؟! .. عدْ، إن أردت .. أو اذهب .. اذهب، أرجوك، وابحث عن حفيدك الذي لا أدري إلى أين اتجهت خطواته، كلما سألتهم عنه قالوا .. ما لك وإياه، انسي وجوده، كلما جاء ذكره، قالوا: - آه منك، امرأة عجوز، لا يحطّ رأسك إلا عند توابيت الموتى!!

أقول، والحزن يشرح جسدي: - أوَ مات، راح بعيداً ؟! فأظل ألوب باحثة عمن يدلّني على درب أصل إليك، أو إليه، مللت الانتظار، أشدّ ما يرعب جسدي أن يكون الموت سيداً لوجودكما .. اذهب، وعُد به .. قل له إن جدتك تريدك .. إن عندها حكايات، لم تقلها من قبل، حاولْ إقناعه، فهو ولد متعب وعنيد، يشبه صباك .. قل له إن الجدة تريد مسح شفتيك برضاها، لمَ اخترتَ هذا الدرب الذي ما مشاه أحد إلا وكان مثل يوم صيف ؟! غضب يملأ جسدي وروحي، فليعد ماذا يحدث إن غمرتني السعادة بكما .. أريد أن أغمض عيني على سعة حضوركما، أعرف أن جسدي أكله التعب والانتظار .. أو هدّهُ الوجع .. فقط: اجلسا

مكتبة الفكر الجديد

إلى قربي، وستريان أن الأزمان يمكن أن تعود بالآمال، اجلس .. أو اذهب، فلقد أدمنت الانتظار، قل لذلك الولد المجنون، إن الجدة تريد الإتيان بزمن صباك .. أرجوك، حدّثه عني، أو حدّثه عنك، فهو لم يعرفك جيداً .. كنت أملأ ليل وحدتي وليل حضوره بحكايات غريبة عنك، حكايات لا أدري إن كانت حقيقة أو مجرد أكاذيب أردت بها إسعاد حفيدي الطيب الذي كنت أحسه يموت بين ركام من الكلمات، كان يقول أشياء لا أعرف كيف يجيء بها، ويلحّ على أن يعرف كل شيء عنك، لمَ أنت صامت؟! .. ألا تقول شيئاً؟! أوَ تراك أدمنت الوحدة مثلي، وظل فراشك بارداً، وليلك طويل موحش مثل ليلي .. ليتك عرفت هذا الحفيد .. ليتك رأيته .. أرى شبه عجيب يربط أساك بأساه .. أيّ خيط تركته وراءك، ليمشي بهدية ذاك المجنون، المأخوذ بالحكايات .. إن أنت ذهبت، فقل له إن الجدة تريدك .. تريد أن تسرّك سراً .. كنت أعده بأن يكون أنت، لكنه غادر حتى قبل أن أشم فتوته .. لا أدري أيّ دروب مشى، لكني متيقنة من أنها دروب أوجعت رضاه، جعلته يلوذ بخوف عذاباته، قلت لهم: – لمَ لا تريدون الإتيان به؟!! فبكى والده، بكى ولدي، فأيقنت أن المصيبة قد حلّت... ما الذي حدث للطيب المتعثّر الخطو ؟!

قالوا من بين شهقات أنفاسهم: – إنه يسكن الجدران البعيدة!!.

قلت: – ما الذي فعله هذا الذي ما آذى أحداً؟!!.

قال الأب الذي هو ولدك: – لا أعرف ما الذي أقول، يا أم .. لكنه ولد كسول يريد للدنيا أن تكون على ما يريد، لا يؤمن أن الفقر قدر أعمارنا!!.

مكتبة الفكر الجديد

صرخت نفسي: - أيّ ولد هذا؟! .. كان جده هكذا .. جده قال مثل هذا الكلام مراراً عند أذني .. أوَ تراه الزمن يعاود لعبته؟! .. خذوني إليه!!

قالوا: - لن نقدر .. فثمة ما يمنع أن نراه!!

قلت: - مَن يمنع أباً عن رؤية ولده، وهو يعرف مكان وجوده؟! .. أيّ حزن هذا الذي لفّ وجودكم؟! .. أنت لا تقدر على أن ترى ولدك .. أيّ أب أنت!! حتى القطة إن شعرت خطراً على ما تملك دافعت بشراسة..!! .

قال الأب الذي هو ولدي، وهو يغصّ بحزن حنجرته: - ليس الأمر كما تقولين، يا امرأة .. ليس الأمر مثلما نريد!! لمَ دائما نفعل ما يشاءون؟! .. ماذا عنا؟! .. ماذا عن ما نريد؟! .. أخذوا اولادنا إلى الموت، فقلنا: ولمَ لا؟! .. دفنوا أحلامنا بين أنقاض من الحزن، فقلنا: هم أعرف وأدرى، قالوا: .. إياكم وأولادكم، فقلنا: خذوهم إلى ما تشاءون .. أيّ حزن هذا الذي نعيش؟!!.

رمت الأم أحزانها، ولاذ الأب بصمته، أوَ لم أقل لك إنك ما أنجبت سواه ؟! كان أنت، حتى عطر جسديكما واحد، يوم غبت، كنت أضمه إلى صدري؛ لأشمّ رجولتك، أراك صبياً تحدّق في وحدة الذاكرة، أهمس له :

- لكم أنت تشبه الرجل الذي تعب ؟ !.

فيصفن محدّقاً في أحزان الوجه، أداعب خديه، وأرنو إلى صفاء العينين، أوَ تعرف أن عينيه تشبهان عينيك، حتى الوشم الذي عند يسار الخد يشبه وشمك؟!، يقول:

- جدتي، إلى أين تراه ذهب؟!!.

مكتبة الفكر الجديد

أهزّ رأسي راغبة بعدم إثارة ضجيج وجعي، ما كنت أريد كشف معارفك أمام رأسه الحائر بالكلمات، أمسك أرنبة أنفه، وأجره إلي، وأقول: - مالك، والجد .. لن يعود أبداً!! يحرّك رأسه نافراً، ويقول بصوت حاد مثل رصاص: - بل سيعود جدتي!!

كان الولد يتنبّأ، وما كنت أصدق نبوءة ولد، تربطك وإياه حبال الجنون والغرابة، أجلس بين يديه، فيقول:

- جدتي، أوَ تعرفين لمَ نحن فقراء؟!!

أقول: - يقول جدك أشياء، لا أعرف كيف أرتب كلماتها!!

يقول: - جدتي، أوَ تعرفين لمَ نحن نسكن بيوت الطين؟!!.

أقول: - جدك يقول أشياء، لا أعرف كيف أرتب كلماتها!!.

يقول: - جدتي، أوَ تعرفين لمَ نحن أولياء الموت وأهل وجوده؟!!.

أقول: - يقول جدك بكلمات، لا أعرف كيف أرتب كلماتها!!

يقول: - جدتي، أوَ ثمة ما يوصل إلى ما كان جدي يريد!!

أقول: - جدك كان يريد أشياء، لا أعرف كيف أرتب كلماتها!!

يقول: جدتي، لمَ كل هذا الحزن؟! .. لمَ كل هذه المواجع؟! لمَ كل هذه القبور التي تحيط حياتنا؟! .. لمَ هذا النواح الذي لا ينتهي؟! .. لمَ دموع أمهاتنا أكثر من شهقات ضحكاتهن؟!!!.

أقول: - جدك كان يعرف جواب كل شيء!!

يقول: - جدتي، ما معنى أن ننوح عند قباب الذهب، وخطواتنا لا تشبه خطواتهم!!.

أقول - جدك كان يحدثني عن خطوات تشبه خطواتهم!!.

مكتبة الفكر الجديد

يقول: - جدتي، أيّ حد يفصل بين الصدق الذي نريد والكذب الذي نريد؟!!

أقول: - جدك أبلغني بكلام يشبه هذا، لكني لا أعرف كيف أرتبه!!.

يقول: - جدتي، أوَ نحن أبناء خراباتنا؟! أم ترانا أبناء سعاداتهم؟!!

أقول: - جدك كان يملأ أذني بمثل هذا القول!!

يقول: - جدتي .. أين تراني أجده؛ ليعيد لي ترتيب ما أريد معرفته؟!!

وها أنت .. عدت، فاذهب إليه، ورتّب أشياء رأسه، أتعبته وحشة وجوده والأماكن المظلمة التي جعلته وجلاً، قلت لهم: - أريد أن أراه!!.

قالوا: - لن نقدر؛ لأنه يعيش غياباً أبدياً!!.

أوَ جنّ الولد الذي أحبّ؟!، أوَ ضغطت الأيام فوق الروح الطرية، فخربت محاسن إنسانها؟! لمَ تركتني حتى دون كلمة وداع؟!! .

صمت فم الجدة، ونامت أحلامها بين يدي الانتظار، كانت لا ترى غير ظلمة نفسها، الظلمة التي حاصرت حكاياتها منذ أن تحوّل البيت إلى نسيان أوجع قلبي، فجعلني أرتمي عند قدميها محاولاً إنقاذ ما تبقّى من انزياح ذاكرتها، كنت أتمنى لو استمر استعار النيران، وأتمنى لو عادت ترفل بثياب جبروتها، وأتمنى لو طوتني بين جوانحها مثل دجاجة لأشمّ شذا السنوات البعيدة، تلمّست حوافّ جسدي بأصابع مرتجفة، فأحسست ألفة الارتجاف، وما لبث العطر أن ملأ جوف سيادتها، فأنت للحظات، وحرّكت الجسد الميت الذي مثل عربة عتيقة، وبهدوء، سحبتني إلى صدرها الذي ارتجّ مثل كومة لحم، ظلّت روحي ساكنة، خائفة حضورها الذي عاد مألوفاً بغتة، كنت أريد الاعلان عن

مكتبة الفكر الجديد

حضوري، لكنها جاست بين ثنايا أنقاضي، ثنايا الجسد المعجون بالخمرة والطرقات والآثام، همست:

- منذ كم لمَ تغتسل؟!!.

تحيّر رأسي، وعند قدمي الصمت، سقطت حنجرتي غير قادرة على الإجابة، أوَ تراها كانت تخاطبني ؟! أوَ أنت ترى إلى الضوء الذي كان يشعّ لحظتئذ من ستر أعماقي ؟! أم تراها اندفعت إلى عمق أنوثتها؟! قالت :

- أيّ ريح جاءت بك؟

قلت بصوت تعمّدته فتياً، كان صوت الفتى الجنوبي الذي تحبّ، قد نبق فجأة، وأخذ قياد غرابتي.

- الطيور لابد وأن تعود .. أوَ لا تتذكّرين حكاية سندباد البحر؟!!

قالت، وهي تحبس شفتي: – سندباد البحر .. بلى، يا غريب، أذكر هلك؟!!

قلت: – كيف أنتِ، جدتي .. ؟

قالت بصوت جبروتها : - كما ترى .. كانت تنتظر واحداً .. وها هي تنتظر ثلاثة!!.

- لا داعي لكل هذا الانتظار .. ما الفائدة ؟

- نعم .. ما الفائدة؟ .. أوَ تدري أن عمر الإنسان يصير مثل صحراء تضربها ريح، إن هي لعبت لعبة الانتظار!!

- وجع، لا طائل من ورائه!!

- وأنت أوجدت أن ثمة طائلاً من وراء ما قصدت؟!!

مكتبة الفكر الجديد

- لم أقصد شيئاً محدداً، جدتي!!.

- ما أغربك رجلاً .. بعد كل هذا الهروب، وتقول إنك لم تقصد شيئاً محدداً .. أوَ كنت تعيش وَهْمَ ضياعك؟!.. أوَ اخترت حزنك رفيقاً، لا لشيء سوى أنه حزن؟!!.

- لا أعرف بماذا أجيب جدتي .. أعيتني الإجابة!!

- ما أتعسك ابن .. أضعت رجولتك، وجئت؛ لتقول: لا أعرف ..!

- ربما جدتي .. أضعت كل ما يمكن أن يفقده رجل!!

- أتعس ما يفقد رجل رجولته .. إحساسه بأنه أصبح شيئاً ليس إذا فائدة .. أوَ كنت تجيد استخدام نفسك، وأنت هناك؟!!

- بل نفسي هي التي كانت تستعبد جسدي، وترمي بي إلى حضيض الآمال!!.

- تعيس أنت .. وشقي .. مَن أعطاك حقّ تدمير رجولتك؟! .. ومن أجل ماذا يدمّر الإنسان إنسانيته؟! أوَ فقدت شهية المشي خلف الأفكار التي كنت تحدّثني عنها ؟ أم تراها كانت مجرد هوجاً وفتوة شباب؟!!

- بل هي التي رمتني عند كل هذا التعب ..!!

- أوَ باتت الأفكار تتعب هامت الفاعلين بعنفوانها؟!!

- ماذا أقول جدتي؟ .. بلوى أن يجد الإنسان نفسه دونما هدف وفكرة ترضي خطاه .. وبلوى أن تمشي خطوات الإنسان دونما رغبة بشيء!!

- حسناً، فعلت، إذ جئتَ، يا ولد : - لقد هزّني شوقي إليك!!

مكتبة الفكر الجديد

- وأنا جدتي .. ما نسيت وجودك لحظة!!.

- كلكم تقولن هكذا .. ولكني أبداً عشت وحيدة .. أوَ ما رأيت كم غدا البيت موحشاً؟! .. لا أجد حتى مَن أقول له أريد .. أظل أنتظر لأيام، من أجل شربة ماء، أنادي دون أن أستمع لجواب .. أينهم .. كنت أحدثه عنك، أو جاءك .. أوَ قال لك إن جدتك تموت شوقاً إليك .. ما أجلسته لحظته .. وما قلت له سوى أن يذهب ليبحث ويعيدك .. .. أوَ يقول لك إني أريدك، اذهب، وقل له.. أسامحه، دعه، يقترب، قل له إن جدتي تسامحك، من أجل محبتها، رغم ما زرعت في أعماقها من وجع، كل أحفادك مجانين بالغناء والحزن، كلهم يملؤون حناجرهم بمواويل الاستغاثات التي تعلّ القلوب، قل له إنني مازلت أحبه .. فما غادر قلبي بوهم أشيائه، يحلم بما يجعله مرتبك الخطو، ما كان أحد يعرف من أين تجيء أحلامه، يحكي عن أحلام صعبة الحضور، عن مدن، لا يسكنها الجوع، أوَ تصدّق أن ثمة مدينة، لا يسكنها الجوع ؟! أوَ رأيت مثل هذه المدن ؟! أوَ سمعت ..؟!!.

حدّثه عن عمك الذي أخذته السواتر، وغيبته الحروب، قل له إن الحرب صيّرتنا أناس من دموع وانتظارات، قل له: إني لن أغفر له ما حدث، لن أسمح له باجتياز مملكة وجودي التي بنيتها بالتعب والقلق، جعلتكم الغربة خراباً، لا فائدة منه، أعرف أنكم لا تعشقون سوى هواء بيوتكم، لكنكم تملؤون أرواحكم بغبار المكابرة، قل له: لم أعد بحاجة إليه، حلمي يكفي وحدتي، ووحدتي زاد خطواتي الراحلة إلى حيث المستقرّ، هناك .. سيكون الحساب .. ماذا سيقول ؟! وكيف يمكن أن يبرّر خطأه ؟! أوَ يقول إني هجرت فراشي، من أجل قضية أكبر، أجلّ

مكتبة الفكر الجديد

القضايا وأكثرها صدقاً، لا يمكن أن تساوي لحظة انتظار واحدة، من امرأة تبكي ليل فراشها الذي يشبه ليل القبور!!..

وأنت، لمَ تركت آمالك، وهربت ؟! ولد مسكون بقدر الأكاذيب، ولد شيّدته الأحلام، وهدمته طرقات السوء ما الذي كنت تجده هناك، ولم تجده هنا ؟! أنت الذي كنت أراك تقول باختراق المحنة، ما الذي فعلت من أجل هذا الوجود، كنت تخاف غرف الطين، فهجرتها؛ لترمي نفسك وسط الطين الموحل كله، تخاف الجوع المستور، فمددت يدك إلى أتعس ما يمكن أن يفعله إنسان، بحثت بين الأوساخ!!. ارتمت روحي عند قدمي الجثة، كنت أحاول إيقاف هذا السيل من الأحاسيس التي كانت تذبح رجولتي، كانت كلماتها تشعل في أعماقي حرائق من الانهزام، حاولت الفرار، لكن ثمة مَن كان يشدّني إلى الأرض شيء ما، كان يسمرّ جسدي إلى جسد هذه الرمة المتهالكة الموغلة بصدق ما تقول، قال الفتى الجنوبي:

- أوَ لم أقل لك .. كان عليك أن لا تجيء؟

قال صبي الصورة: _ لمَ جئت، وأنت مبتسم هكذا!!

قالت أختي بصوتها الهادىء مثل ريح: - جدتي كثيراً ما حدّثتني عنك، وعن جدي!!

قالت زوجة أبي: - لمَ هذا اللوم .. مادام قد عاد!!

قلت: – نعم .. لا أريد أكثر من أن أنام!! .

طفرت أختي من أمامي مثل قطة هاربة، كانت جدتي تطرد أوهام تعبها، تحاول الإمساك بوَهْم خطواتها المسيطرة على روح الأشياء، وظلّت زوجة أبي حائرة، لا تعرف ما الذي تفعله، كنت أضمّ رأسي إلى دفء

مكتبة الفكر الجديد

الفراش، وأستمع إلى همسها الذي كان يدمّر جبروت أبي، يحيله إلى شظايا ورماد، تضغط فوق حلم رجولته بكلمات من مكر، فتختلّ أمي بين وجع أنوثتها وغربة الجسد منصتة إلى سيول الغرابة، كلاهما تعرف أن الطريق التي تؤدي إلى قلب الأب وفحولة وجوده، إنما هي الكلمات، آه، غرف الطين .. أوَ تراها الآن تهمس بذات الوجد الذي ذبحته الأيام ؟

هممت بسؤالها، لكني تراجعت لحظة دخلت أختي، تقفز بخطواتها، نظرتني بودّ أنثى عاشقة، وأشارت إليّ بأن أتبع خطوها، كان الفرح يتسربل كيانها، يحيلها إلى طائر جميل يرفرف مالئاً الفضاءات بغناءات عطرة، قلت: - حسناً، جدتي.. أريد أن أنام!!.

قالت زوجة أبي مقاطعة: - اتركها، فلم تعد تسمعك!!

نظرتها بحبور، ثمة ما يجعل هذه المرأة حبل مودتي التي يربطني بعالم وجودي، أشارت البنت بأن أسدّ فمي، فنهضت، وأنا آخذ بيدها الصغيرة إلى يدي، قالت البنت بصوتها الذي يشبه الجكليت:

- أتبقى معنا!!

قلت، وأنا أحاول اختراق غرفة النوم التي أعدتها البنت بإتقان :

- ما أجملك!!

رمتني بنظرات استغراب، ثمة ومض غريب يشعّ من هاتيك العينين اللتين تذكرانني بعيون، كنت قد نسيت وميض بهائها داخل زمن غربتي، كانت البنت تحاول بصمت سبر أغوار مودتي، أو الوصول إلى ما يمكن أن يؤسّس للعبة قد تستمرّ طويلاً بيني وبينها، رميت جسدي التعب في موج الفراش، فأصدر السرير أنيناً متوجّعاً، حتى أسرتنا تعلّمت أننا لا يمكن أن ننام دون أصوات نواح، ظلّت البنت واقفة عند الباب، وثمة

مكتبة الفكر الجديد

حيرة تلفّ رأسها الصغير بضفيرتيه اللتين تشبهان أفاعي مسالمة، قلتُ محاولاً كسر جدار حيرتها:

- تعالي!!.

حطّت عند طرف السرير الآخر، وهي ترمقني بنظرات حزينة، بلطف أنثى تعرف سرّ عظمتها، قالت:

- عن ماذا كان يتحدث!!

ابتسمت بفخر بنت حلوة، واقتربت مني، محدقة بقلق عيني، سابرة أسرار رضاها، كنت أراقب حركاتها في، فأرى طفولتي تظهر فوق ظهر محبتها، طفولتي التي دفعتني إلى قلب المحنة دون أن ترأف بجنوني، أخذ رأسي يدور في دائرة الاضطراب، ماذا لو عاشت البنت قدر وجودي نفسه ؟! ماذا لو وضعها القدر إزاء تجربة مثل تجربتي؟! .. قالت:

- أوَ ستتزوج حقاً؟!!

أنهضت جسدي، ونظرتها بفتور ولد حاصرته أفاعي قاتلة، حاولت لملمة الإجابة، لكن البنت نظرت صوب الباب، وانفجرت ضاحكة، وهي تقول: ها هي العروس؟!!.

كانت زوجة عمي تقف عند باب الغرفة، وقد امتلأ جسدها بعطر ورد الأرض، كان لون ثوبها ينعكس باتجاه الخدين، فتشعان فرحاً، اصطدمت عيوني بجدران أنوثتها التي أبهرت وجودي، فبحثت عمّن يشبه تلك المرأة المدفونة بالسواد، والتي كانت تأكل أيام عمرها، وهي تنظر إلى طرقات الغياب، طلعت خطواتها حائرة، مرتبكة، كانت تلملم زمني؛ لتجعله بين يدي فرحها المنساب مثل نبع، قالت: - متى جئت؟!!

مكتبة الفكر الجديد

ظلّت مشاوي في تبصر ألقها دون أن تحاول اجتياز وجودنا، وجودي الذي كان يقف الآن مثل فرس جموح، قلت، وأنا أشير إليها بالدخول: - مَن أعلمك بقدومي؟!!.

استقرّت عند حافة السرير بعد أن زحزحت أختي إلى طرفه الآخر، نظرتني البنت مستنجدة، لكنها أقرت وجود المرأة التي عرفت بفطرتها أنها ستكون زوجتي، ربما بعد ليلة واحدة، قالت، وهي تنظر إلى عيني، دائماً تتعمّد النظر إلى عمق مخاوي في محاولة فرق أسوار تراجعاتي، قلبي!! انتفض الجسد، واستقامت الجثة القاعدة، كانت أمارات وجعي تنهار عند مدن أنوثتها، قلت وأنا أداعب ضفيرة أختي التي كانت تراقب المشهد الغريب بشيء من البلادة، فلقد اعتادت أن ترى العروس بثياب بيض والعريس محاط بأجواق من الهلاهل والزغاريد، همست شفتي: - والآن .. إلى أين نصل؟!!

أخذت بيدي، وقالت: - كل شيء جاهز - وما عليك إلا أن تقول نعم!!

كانت تعرف منذ زمن تحاورنا، بأني سأكون ابن فراشها الوثير، وسأكون مانح أنوثتها ضجيج المساءات التي شعرتنا بالوجود، لم أعد قادراً على إتيان أيما حركة، جسدي يضطرب، وروحي تلوب، وعمري يبحث عن شيء ما، حاولت الاستنجاد بأختي المسكينة، لكنها أحست حرجاً، ففرّت مثل فراشة مندفعة إلى قلب الضوء بسرعة ملكية، أثارت حبّي لها، هم حلقي بمناداتها، لكن زوجة العم وضعت كفها التي تشبه قطعة جبن فوق حلقي، وطبعت قبلة سريعة فوق شفتي، كانت تتحيّن مثل هذه الخلوة؛ لتثير في أعماقي جنون لياليا الفاتنة، ظلّ جسدي عاطلاً عن الحب، عاطلاً عن ممارسة وعي رجولته، ربما صيّرتني

مكتبة الفكر الجديد

الأيام ووحشة الطرقات مجرد هيكل لرجل مريض، لكني رويداً أحسست أن ثمة شيء ما بدأ يشتعل في دواخلي، ران الصمت للحظات، ولكن ثمة خطوات تقدمت، وهي تسحل وراءها عربة السنوات، اندفع الباب بهدوء، ووقف الرجل متكئاً إلى عصاه، كان ينغرس في غربة وجوهنا، هبّ جسدي واقفاً، وما لبث أن اندفع إليه، تراجعت العصا، وببطء، انغرست في صدري مثل سكين، ما كان أبي يريد الاقتراب مني، لأنه يسعى بأن تظل الهوة التي بنتها السنوات قائمة بيننا، نظرت إليه متوسلاً أن لا يبقي خرابي مدفوناً، أن يمدّ يد محبته، ويشيد من أنقاض إنساني إنساناً يريد، قال مخاطبا زوجة عمي:

- حسناً، إن وجدتك هنا ..!!

رفعت رأسها بخجل، ولحظة رأت إلى ضوء عينيه، تراجعت لتلوذ بمكر أنوثتها، واصل الأب دون أن يكترث لوجودي، الذي ما عاد يثير غير أختي الصغيرة والمرأة التي كانت ترى في خلاصاً.

- غداً، لابد أن يتمّ كل شيء ..!!

قلت محاولاً إثارة احتجاجي، احتجاج كاذب يشبه بخار ليلة شتاء باردة.

- ماذا؟!!.

أنزل عصاه بتؤدة، ودون تردّد نظر إلي، كانت سكاكين غضبه تنطلق باتجاه جسدي، لتنهي لحظة العذاب التي كان يعيشها، كان يريد لحياتي أن تستمرّ، ويريد لزوجة أخيه وأبنائها أن يظلوا تحت ستر أبوته، ويريد لذكرى الأخ الذي غيّبته الحرب أن تظلّ طرية دائمة الخضرة، قال بصوت أبوته الحاد المثير للخوف:

مكتبة الفكر الجديد

- سؤالك جاء متأخراً .. وما عليك ألا أن تصمت!!

تنهّد قلبي ارتياحاً، وأومضت عيني ببريق غضب، لكنه شدّني إليه بصوته الذي صار رصاصاً مدوياً، وهدير مدافع ما لبثت أن انهمرت فوق رأسي :

- لا تتغابى .. نفسك قذرة .. وعمرك خاض بأوحال إنسانك .. وما عليك إلا أن تصمت .. أن تسدّ أبواب الفضيحة .. ما كان سوى هذا الاختيار أمامي .. ما الذي يمكن أن نقول ؟! كلب ولغ في ماعون أهله، ماذا يمكن أن يفعلوا؟! .. أوَ يقتلوا الكلب، ويكسروا الماعون؟! .. أم تراهم يسعون باتجاه تنظيف الأثر حتى وإن كلّفهم هذا كثيراً؟!! .. أطرقت زوجة العم مثل قطة جائعة، كنت أقرأ في عينيها انتصاراً، وكانت تقرأ في عيني تخاذلاً وخسراناً، لقد رتّبت لعبة الانتصار، وها هي تجني ثمار أنوثتها، أوَ يمكن أن أقول لا؟!، وثم أطواق ركبت فوق جسدي ؟ أوَ تكون لائي ذات معنى إن قلتها وسط هذا الدوي الهائل ؟ نبشت ذاكرة الفتى الجنوبي، لكنه جابهني بعناده، جلس عند حافة السرير وأطرق، قلت له متوسلاً :

- قل شيئاً، أرجوك!!

لم يفه بشيء، كانت ثمة ابتسامة ماكرة، ابتسامة تشفي ترتسم فوق شفتيه، قال الأب:

- هيا .. استعدوا ..!!

وخرج مسرعاً، شهقت روحي غضباً، ولحظة أحست زوجة عمي انغلاق الباب، اندفعت إلي، أخذق بجسدي إلى جسدها، وهي تهمس - وأخيراً، ها هو الانتصار يجيء!! تراجع جسدي، وتراجعت روحي، توسّلت

مكتبة الفكر الجديد

الفتى الجنوبي، توسّلت البنت التي كانت تقرأ فوق سطح الدار، توسّلت أختي التي كانت تنصت لزعلي خلف الباب، توسلة الموت الذي رافقني لسنوات طويلة، توسّلت يد المحقّق بأن تنطبق فوق رقبتي، توسّلت كفّي بأن تضغطان فوق الرقبة المشرئبة التي ترى في أعماقها فرح يفور!!، تقدّمت خطواتي ببطء، وانطرح الجسد فوق السرير، كانت ترغب بتأسيس نداء أنوثتها، وأرغب بهدم هذه الأنوثة التي ما عدت أطيق رؤية تدفّقها، ضغطت بحزن، فشعّت العين، ضغطت، فتورد الوجه .. ضغطت، فانفرجت الشفاه عن كلمة ما سمعتها منذ زمن طويل: - أحبك!!

تراخت الأكف، وتراخى الجسد، وتراخت الروح، وأحست آمالي انهزاماً، كانت المرأة تنظر إليّ باشتهاء، وانظر إلى غضبي، وهو ينفث، ورويداً سحبتني الأرض إلى برودة قلبها، سقطت محاولاً اختراق الحزن الذي أحاط بي، كان عمي يقف هناك، بين تلال من الأشلاء البشرية، وثمة دم يشخب من الجسد الذي غدا بلون التراب، حاولت تجاوز ارتباك خطواتي، والتقدم إليه، لكنه - وببطء - رفع كفّه، كانت لا تشبه سوى مفازل حديدية منبلة، وأشار عليّ بالابتعاد، لم أك قادراً على الحركة، كانت الأرض قد أخذت نصف جسدي إلى باطن حرارتها، صرخ فمي:

- أنت ...!!.

فعلى صوت استغاثات، ملأت أرجاء الكون: - أنت ...!! وفجأة غدت السماء بلون الطين، كانت تمطر طيناً لحظة يصطدم بالأرض، يصير دخاناً لازورددياً، يثير ضجيج المقابر، فتعاود الصراخ والتوسّل، حرّك عمي مفازله، فطقطقت مثل لوالب صدئة. قلت مخنوقاً بتراب خوفي :

- ما الذي يجري؟!!

مكتبة الفكر الجديد

ابتسم العمّ، وابتسمت الشفاه، وغدت السماء بلون الفضة، ورويداً امتلأت حلوقنا بعطر كان شذاه غريباً، شذا السدر الذي يملأ حلق الميت، تحرّك جسدي، وتدحرج عمي إلي، كان يشبة كرة إسفنجية، يتدحرج ويتأمل امتدادات الطريق، يتدحرج ويتأمل دمه الذي لطخ صفحة الطين، يتدحرج، فيغدو جسده بلون الفضة، كنت أتمنى لو وقف العمّ، لو ابتلعت الأرض كلّ ما يحيطنا، لو صرنا مجرد غبار؛ لكي لا نعي ما يمكن أن يكونه هذا العذاب، اصطدم الجسد الإسفنجي بعمود جسدي المشتول ضجراً، فزحزح إسفنج جسده قليلاً، ونظر إلى عمق عيني، كان رأسي يدور مثل مروحة، ولم أعد أميّز بين وجودي وغربتي، أخذت كفّ الإسفنج إلى صدري، فقالت الشفاه:- لمَ فعلت هذا؟!!

قلت متوسلاً: – لم أفعل شيئاً!!.

قالت كرة الإسفنج التي كانت تشبه عمّي.

- كيف .. جئت إلى هنا إذن؟!!

قلت، وأنا أحاول رفع جسدي إلى أعلى وثمة نار بلهب أصفر مخضر، تحيط دائرتي.

- لا ... أد ... ري!!.

تنهّدت قطعة الإسفنج، وأمسكت بشجرة جسدي الفضية كانت عيناه تبرقان أضوية مشعّة بآلاف الأسئلة، قالت قطعة الإسفنج التي هي عمّي :

- لا تدري .. دومك ل اتدري .. رغم كل ما فعلت، أو ما تقترف من آثام وخطايا، وتقول: لا أدري .. مَن دفع بك إلى طرق الوجع والخطيئة!!

مكتبة الفكر الجديد

قلت دون أن أفكر بشي:- هي!!

قالت كرة الإسفنج، وهي تضحك: - امرأة .. آثامك نساء؛ أيّ زمن هذا الذي آوى خطوك!!

- ما كان لي أن أفعل أو أقرّر؟!!

- أوَ عاجز أنت ؟!

- وماذا تريد لإنسان مثلي أن يكون صيّرتني الوحدة غريب حتى مع قلقي ؟ !

- أوَ ما كان عليك أن تبقي أناك التي تحب؟!!

- لن أعرف ما أحب وما أكره .. لحظتي هي التي تقرّر .. أجد نفسي مرغماً على ممارسة ما لا أحب من الأفعال، أكره وحدتي، فأرتمي بين أحضان أول امرأة، أرى لأشعر دفئاً وأماناً .

- أوَ هذا كان خرابك؟!!.

- ليس هذا فقط .. خرابي حروب وسواتر وضياعات وأحلام ما كان لها مبرراً بأن تجيء!!

- أوَ من أجل هذا حطّمت الآخر الذي كان وديعاً طيباً، لايريد من وجوده سوى يومه فقط ؟!

- بل هو الذي حطّمني .. وهو الذي انتصر علي .. انظره هادئاً وديعاً ما خسر سواي .. أما أنا؛ فخسرت، وخسرت زمني كله..!!

- كان عليك أن تحيي وجودك بحبّه ..!!

مكتبة الفكر الجديد

- أوَ ما كان عليه هو أن يفعل هذا؟!.. أوَ ما كان عليه أن يفكر بوجودي؟! .. لمَ جعلني أعدو وحدي؟!!

- لأنك أمرته بالابتعاد!!

- بل كثيراً ما قلت له برجاء .. يجب أن يساند خطوي .. وأن يجعل من وجوده أماناً لوجودي!!

- ولحظة تشعر بالفرح .. ترميه بعيداً .. تأمره بأن يكون عبداً لرغباتك، وسنداً لخرابك!!

- وماذا كنت تريد مني أن أفعل .. ماذا ؟

تراجعت كرة الإسفنج قليلاً، وأشارت بكلتي يديها، فتوقّفت رقصة السماء، وغدت مسارات الأرض بلون خدود التفاح، وعند أبعد نقطة رأيته، كان الفتى الجنوبي، يجلس ساهماً متأملاً امتداد الطريق، وثمة بين يديه دمية غريبة، يطعنها، فترتفع رويداً، يسحب أصبعه، فتعاود الارتماء عند قدميه، كان جسدي الذي أعرف يصدر صراخاً متوسلاً، ولكنّ؛ لا أحد يسمعه سوى الفتى، فتاي الذي أكره، قلت متوسلاً كرة الإسفنج:

- إنه يعذّبني!!

قال: - بل هو ينظّف آثامك!!

قلت: - أحس وجعاً . أرجوك، قل له بأن يُنهي هذه اللعبة.

قال: - أوَ ما زلتَ تسمّي كل شيء لعبة .. حتى أفعال الحب عندك مجرد لعبة؟!!.

قلت: - ما هذا وقت عضّات!!

مكتبة الفكر الجديد

قال: – وما هذا وقت رجاء .. يومك لم يعد لك .. وجسدك لا بد وأن يتطهّر!!

قلت صارخاً: – أوَ تساعده علي؟!!

قال: – بل هو يساعدك عليك!!

قلت من بين دموعي: – لا أريد ... دعه يبتعد!!

– لن يقدر أحد على إبعاده .. هو الآن أناك .. أناك التي هجرتها طويلاً!!

– لكني لن أحبّ أناه .. فتى مجنون متخاذل .. لا يصدق أن للأرض أكثر من طريق خلاص!!

– وأنت .. أأوصلك الطريق التي تعرف إلى خلاصك ؟!

– ما كنت بقادر وحدي .. الاختيار صعب .. والمهمة قاتلة.

– إذن. دعه يرى ويجرّب!!.

– وأبقى أنا منتظراً تجاربه!!.

– مثلما بقي هو منتظراً عبثك!!.

– لن أقدر .. لن أقدر!!.

– ليس لأحد بك شأن .. إن قدرت.. فتحرك!!

– أتحرك .. كيف وأنت ترى جسدي تحرقه فورات الأرض!!

– حاول... لمَ لا تحاول؟!!

مكتبة الفكر الجديد

- أيّ عمر هذا الذي جعلني ابناً للمحاولة؟!! .. منذ أزمنة، وأنا أحاول.. ماذا بعد؟!... لا شيء ؟

- فقط؛ لتنسى وجودك!!.

- إن لدي مئات الأشياء التي تشعرني بوجودي .. أوَ تريد أن أحدّثك عن واحدة من هذه الوجودات؟!!

- لا .. ليس ثمة جدوى من الاستذكار .. ما دمت هنا !

- لكني لا أريد البقاء منتظراً!!.

- والآن أعطني يدك .. وسترى كم تفيد المحاولة!!!

سلمتة يديّ، منذ زمن طويل، لم أشعر بمثل هذا الدفء، وهو يتسربل أعماقي، دفء أشعرني أن ثمة دبيباً بدأ يسري بين أوصالي، حاولت التمسك بيديّ الفتى، لكن العم اختفى فجأة، وغدت السماء بلون الدخان، وبدأ جسدي يتناثر متشظياً، وبغير ما ضجيج، سقطت روحي في أتون اليقظة، فتحت عينيّ، فطالعني وجه أختي، وهو يفتسل بأساه، ولحظة أحسست يقظتي، أفلتّ الكف الصغيرة التي تشبه شموع الأعراس من باطن كفي، وتحرّكت تريد زعزعة وجودي، كان الوجه الذي رأيت، يشبه وجه الفتى الذي يسكن أعماقي، وجه خجول تحيطه هالة من القلق، تلمّ جسدها الصغير إلى حافة السرير، أو بصوت مرتجف تقول:

- أوَ أنت مريض؟!!

رأت عيناي إلى ضوء عينيها، وتنفّست الصعداء، وبصوت متقطع مخذول، قلت:

مكتبة الفكر الجديد

- لا .. ولكني تعب!!.

قالت، وهي تضع كفها فوق جبهتي، متحسّسة نيران القلب الذي بدأ يشتعل فجأة:

- لكنك نمت طويلاً ... لكنك قلق ؟

أبتسم لمثل هذا التشخيص الدقيق، وأبحر في ضوء العينين، محاولاً كشف سر هذه المعرفة الماكرة، أوَ تعرف أختي معنى أن يكون الإنسان قلقاً؟!، أأورثتها بيوت الطين قلق أرواحنا؟! أوَ تراها تحسّست ألم القلق، فعرفت كيف تشيد أسوار خطاها ؟! كان خوفي يرفس أعماقي، فثمة ما جعل البنت قريبة إلى نفسي، قلت:

- قلق – ما هو القلق ؟

أخذت بكلتي يدي إلى أصابع شموعها، وبصوت صاف لذيذ، قالت:

- أوَ تريد اختباري ؟

أجلست جسدي، واقتربت منها، قلت مقلداً صوتها اللذيذ مثل رمّان:

- لا ... أنت أكبر من الاختبار!!.

قرصت خدّي، واقتربت لائذة بأفياء رضاي. قالت:

- لا عليك .. سأحدثك؛ لتعرف أيّ أخت أنا ..!!

- ماذا ..؟!!

- إن لغز القلق يوجد داخل الإنسان الفرد .. والمشاكل تعني عنده مجموعة ألغاز يواجهها الكائن البشري .!! ظلت رقبتي تتأرجح بين توقّد الشفتين، كانت البنت الصغيرة تتحدّث بثقة رجل عارف، نظرتني بعيني

مكتبة الفكر الجديد

شيطان، وفتحت فمها تريد الاستمرار، لكني وضعت سؤالي أمام حلقها، فتوقف، قلت:

- مَن علّمك هذا ؟

- قالت بصوت معلّم شديد المراس: ..

- مَن علّمك علّمني ..!!

- أوَ تقرئين ؟

هزت رأسها بلطف، فتطايرت ضفائرها مثل سياط بدأت تجلد حضوري، كانت البنت تأخذ برأسي إلى مكر أنوثتها، تريد زحزحة وجودي من أجل السيطرة علي، قلت:

- ومَن هداك لهذا الطريق ؟

قالت بثقة أثارت حزني :

- ما جعلك تسلكه .. أوَ تريد أن أبوح لك بشيء؟!!

قلت بصوت هامس، لا أدري، لماذا؟ – ماذا أيتها المجنونة؟!!

قالت، وهي تأخذ أذني إلى فمها - ما إن أنام حتى أرى جدي .. الذي أسمع جدتي تحدث نفسها عنه، وتترقّب أوبته.

قلت بشوق زاد من قلقي:

- أوَ يحدثك عن شيء ؟

- لا .. ولكني أحدثه .. عن أحلام تهشّم قلبي .. توسلت إليه يوماً أن يعديك إلي، فأشار إلى عمق الظلمة التي انقشعت، فرأيت الوجه الذي لم أره من قبل!!

- أوَ كنت أنا؟!!

مكتبة الفكر الجديد

- نعم .. أنت بكل هذا التعب والحزن .. توسلت إليه أن يعيد إليك هدوءك ..!!

- كم أنتِ غريبة، أيتها الماكرة!!

- لأني أشعر أني أنت؟!!

انفجرت روحي غاضبة، وهبّ جسدي واقفاً:

- أنتِ أنا .. أوَ هذا حقاً؟!!.

- منذ أول يوم رأيت صورتك، قلت إن أخي هذا هو أنا!!

- كم أنتِ ماكرة .. وشديدة الكذب!!

- أوَ تزعل إن قلت إني أقلّد كل ما كنت تفعل!!

- ومن أين لك هذه المعرفة!!

- لمَ السؤال، يا ابن أبي .. جدتي حدّثتني عنك .. وأبي وأمي .. كلهم ما كان أمامهم سواك!!

- وبهذا عرفت كم أنا إنسان مجنون!!

- وعرفت كم أنت ولد طيب، لو عدت إلى ما يريد زمنك!!

رميت إليها نظرات كراهية، كانت البنت تحاول جرّي إلى زاوية، تضعني من خلالها في دائرة سيطرتها، بعيداً كان صوت المرأة يزغرد .. وثمة بياض يتقدّم إلي .. محاطاً بمئات العيون. وحدي تلاحقني نظرات أبي الحزينة، وصوت جدتي الباحث عن ضوء يهدي خطواتها إلى ما تريد، وابتسامة الأخت التي وقفت إلى جانبي، وهي تأخذ بكلتي يدي إلى حزمة ضوء قد اشتعلت فجأة.

مكتبة الفكر الجديد

عمر السنوات .. سوسن البرق!!

كان طائر الططوة يدور صائحاً محاولاً اختراق صفحة القصب التي بدأت تهتز بخفقات ريح هادئة، مصدرة أصواتاً تشبه نداءات مكتومة غريبة، ثمة لغط يخترق حاجز الأصوات، محاولاً العبور عبر المسارب المؤدية إلى مناثر البيوت الهائمة فوق سطح الماء، دوم القصب، فتعالت الأجنحة، ورويداً امتلأت صفحة السماء بصياحات ملونة، كانت الأطيار تلوب باحثة عمّن روّع سكونها، وأحال لحظات صمتها إلى تراجعات وانقضاض، سكنت الططوة، وامتدت رقبة طائر الكرسوع مراقبة هسيس البردي الذي تحرك حانياً رؤوسه مثل مَن يؤدي التحية، كان صوت المؤذن يحاول اختراق كل هذا المهرجان، ولحظة طلعت الشمس من كبد الماء، اندفعت الطرادة متجاوزة مسارب الهور التي كانت لا تؤدي إلى غير مسارب أخرى، صفن الرأس، وتأملت العيون هذا الشذر المثير للدهشة، كان قد ملأ رأسه بمئات الصور عن العالم الذي اختار، ولكنه ما كان يعرف أن الحقيقة قد تختلف عما يرسم الرأس، نظره الرجل الذي كان يدفع المردي إلى كبد الماء بإتقان، فتندفع الطرادة إلى أمام مصدرة أصواتاً، لها نحيب امرأة متوسلة، من خلال عينين محاطتين بكوفية مرقطة، اظهرته مثل نمر، كان يحاول سبر أغوار الآخر الجالس أمامه بهدوء، كائن متهالك غريب، ناحت الطيور ضاربة صفحة الماء، فابتسمت عيون الدوافيع، ورفع الآخر رأسه متفحّصاً قلب الضجيج محاولاً خرق ستر وجوده، كان يحاول ولوج العالم الذي اختار، قال الرجل وهو يركس المردي إلى قلب الماء، ويدفع بكلتي يديه إلى علو:

مكتبة الفكر الجديد

- ما الذي تريده هناك؟!!

استغربت سؤاله، فظلّ يحدق في الامتداد المائي الذي بات أمامه مثل حبل لا نهاية له، فجأة وجد نفسه بحاجة إلى هروب، هروب من كل ما كان يدمّر وجوده!!

حوّلته أيام المدن إلى كائن مشوّش، مجذوم، فشعر أن ليس ثمة خلاص غير الذهاب إلى هناك، أوَ يعرف الرجل مثل هذا السر ؟! أوَ يدري أن الجد الذي عاش أزمنة الحزن وأيام اللوعة، كان يحلم بأن يشيد آمال خلاصه وسط هذه المسطحات الزرق، عالماً مسكوناً بالود والبهاء ؟! أوَ يعرف هذا الرجل أنه ما جاء إلى هنا إلا من أجل إيجاد منفذ لخلاصه، سحرته عوالم الرؤيا، فظل يتابع خطوطها الغريبة، كانت قدماه تتمرّسان في عالم الضلالة والقهر والشذوذ!!

قال الرجل وهو يتنفّس عميقاً، ويرمي بشماغه إلى ما فوق هامته، رفت ذوائب الشماغ، وطارت تستقر فوق الرأس الذي امتلأ فجأة بفرح، جعلني أرى إليه بود .

- قد نرتاح قليلاً .. فالمسافة طويلة بعض الشيء ؟

رفعت رأسي محاولاً فضّ ارتباك العينين، قلت:

- منذ كم، وأنت هنا؟!!

ضحك الرجل، لم يكن رجلاً، كان فتىً لم يتجاوز العشرين بعد، وجلس عند رأس الطرادة، فارتجت بحركة راقصة، وما لبثت أن استقرت، أصدر القصب نواحاً، وعلت صياحات طيور الغاق، فالتفت الرأس راغباً بمعرفة مصدر الصوت، قال الفتى وهو يؤرث سيجارة لفّ، ويناول الأخرى إلى الجسد الذي ملأته نشوة الارتياح، فهز رأسه

مكتبة الفكر الجديد

شاكراً:..-- وجدت أبي وجدي يعيشان هنا .. وقالا إنهما وجدا أعمارهما تمتد إلى أعماق الماء مثل سباح!!

- وتعرف الجميع حسبما أعتقد؟!!

- كيف لا؟! .. ونحن نعيش دهورنا بين هذه الألوان!!

كان رأسي يدور متفحّصاً الخيوط الخضر العالقة في صرة الماء، ثمة طائر بلون التراب يرفع رأسه متأملاً بعينيه الزرقاوين طرف الطرادة، يقترب بحذر، ثم ما يلبث أن يخرج من امتداد الخط القصي مصدراً أصواتاً غريبة، غدت روحي تهيم في براري وجعي، فليس ثمة أبهى من هذا العالم الوافر بالأمان. ابتسم الفتى الذي كان يتابع دوائر الدخان بثقة، وأشار بطرف إصبعه إلى قلب الزرقة قائلاً :

- إنه هناك!!

قلت: - أوَ ثمة مَن يعيش في المكان؟!!

رمى عقب سيجارته إلى سطح الماء، فتلقفها منقار طائر صغير، ونظرني محاولاً معرفة السر الذي جاء بي إلى ما أريد، كانت مباصره تتقن فنّ النظر إلى أبعد نقطة يريد، قال:

- منذ انتهت الحرب .. ما عاد أحد إلى السبيطية!!

ارتفعت أنفاسي عالياً، كنت أحسّ وجعاً يملأ رأسي، أغمضت عيني، وغفوت محاولاً لملمة أركان هذا العالم الذي أعيش، كان جدي قد عاود اختراق مدن اضطرابه، من أجل إيجاد لحظات ديمومته، أوَ حقاً أن خطواتي المرتبكة الضائعة في أماسي الخوف تريد السكينة ؟! وماذا عساي فاعل ؟! إن لم أجد ما يجعلني أشعر أماناً، تحسست يدي حزمة

مكتبة الفكر الجديد

الأوراق البيض، وجسد الحقيبة التي أحمل، أبصرت قامة جدي، وهي تخطو فوق شذر الماء، قامة لها انحناءة نخلة، وخطوات ملك رصين، حاولت الإمساك ببقايا الرؤيا، لكن الطرادة اندفعت بقوة، فاهتز الجد، وتطاير كل شيء، فتحت عيني، فطالعني الوجه الذي يشبه رغيف خبز، وهو مفعم بالابتسام، قلت: - ما اسمك ؟

أطلق من بين شفتيه آهة متوجّعة، وأغض من بصره كمَن يحاول معرفة سرّ هذا الازرقاق، ثمة ألفة بين الفتى وهذا الوجود الغارق بالبهاء، كانت أصوات الكائنات تطرق مسامعه، فتتحوّل بهدوء إلى أناشيد عذبة، ما تلبث أن تنهمر فوق شفتيه! لتحاكي صمت وجوده الموغل بالودّ. قال: - حسن!! اهتزّت نفسي، وطفرت الدموع إلى عيني، فجأة سيطرت أحاسيس الخوف، وانجرفت روحي باتجاه الندم، كان عمي يلوح إليَّ .

- أوَ حقاً أخذته الحرب؟!!.

قالت زوجة عمي التي صارت زوجتي: - مالك تفكر بأشياء لا تعنيك!!

نظرت إليها باشمئزاز، بتّ أكره هذه المرأة، لكني لا أقدر على الخلاص منها، كانت تسيطر عليَّ، تحيلني إلى نخالة، لا فائدة منها، أجلس قبالتها مثل طفل، لتؤنّب رجولتي، وتملي عليَّ ما تريد، فأهزّ رأسي مستحسناً كلماتها، تأمرني بأن أستحم فأزغرد فرحاً!!.

تقول بأن أجلس صامتاً، فأظل طوال النهار محدقاً بجدار الغرفة دون أن أنبس بشيء!! تجلسني عند طرف السرير، وتأمرني بالغناء، فأنوح مثل فراشة ضائعة!!

مكتبة الفكر الجديد

تقول: - حاذر أن تتذكر أيما شيء سواي!!

فيطيع رأسي، ويصبح مثل بياض ورقة، لا أبصر سوى خطواتها التي بدأت تتثاقل، تجلس إلي مداعبة ضياعي، تقول: - ستكون أباً ..!!

أهزّ رأسي موافقاً، وأنظر تل بطنها الذي بدأ يشرئب إلى أمام، تقول:

- أوَ رأيت كيف روّض الحبّ الوحشَ الذي كنتَهُ؟!!

أطلق زفرة ارتياح، وأغمض عيني، متابعاً خطوات الكائن العابث الذي غادر الأزقة ووحشة الليالي، من أجل حب، يعرف أنه لا يفضي إلى غير الندم والضياع، كانت تتلمّس مواجع الحزن في أعماقي، وتشدّ على يد الفتى الجنوبي الذي تحبّ مثيرة غضبي واحتجاجي، أتناثر بين أركان الغرفة، فتلم نثاري مكوّنة دمية رضاها، كانت خطواتي تبحث عن منفذ لهروب، لطريق تحاول سلوكه، علّها تتخلّص من المحنة التي تعيش. أجلسني والدي، وجلس إلى جانبي هامساً: - حاذر أن تقول إنك لا تريد؟!

نظرت بخوف، كان يشبه الرجل الذي عرفته منذ سنوات طويلة، الرجل الذي كان يرمقني بنظرات حزن، وهو يبصر السبع دراهم، وهي تستقرّ بين يديه، قلت :

- نعم!!

قال، وهو يتظاهر بالابتسام: - أنت مَن وضع نفسه بهذه الورطة !

تجسّ بإصبعها منابت رذيلتي قائلة :

- عمرك كله، وأنت تشتهي لحظتنا هذه، فما الذي أصابك ؟

مكتبة الفكر الجديد

أعصر جفاف حنجرتي، يموت الفتى الجنوبي خجلاً في أعماقي، أقول بصوت مبحوح: - تعب، أوَ لا أريد هذا؟! - ما الفرق؟! أوَ بتّ تهتم بما كنت ترفضه؟!!

- ثمة حاجز بيني وبينك .. ولا أدري كيف أحطمه!!

- تحطّمه بالفعل .. أوَ ما كفاك أقوالاً!!

- لكني خائف ..!!

- لا مبرّر لخوفك. ها أنذا أمامك ولك، فماذا تريد أكثر من هذا؟!!

-صعب أن تسأل مثل هذا السؤال صعب، أن يسألني مثلها هذا السؤال!!

في السجن المركزي، لم تعد المرأة غير شبح بعيد، شبح مؤذٍ لائغ في أسنة الأعمار، تحاول الرؤوس جاهدة إقصاءه، ولكن الليل يحمل بين جوانح ظلمته المئات من النسوة، تنفجّر الأفرشة الباردة برطوبة الشيطان، فتجس الأيادي بعضها، وتنسحب إلى دفء ما بين الفخذين، تبسمل الوجوه، وتنهض كدرة مثل مياه الغدران، صعب أن تسال أنثى مثلها، كلب عما يريد، فلقد قادتني بعصا طاعتها، وروّضت عمري؛ لتملأه بأسئلة ماجنة، قال أبي: - قدرك أن تكون لها!!

قلت: — نعم!!

قال: - أولاد عمك وصية في عنقك .. حاذر أن تفرّط أخوتهم من أجل أنثى!!

قلت: — نعم!!

قال: - لا عليك من كلام الناس .. ولا تستمع إلى غير ما تريد!!.

مكتبة الفكر الجديد

قلت: – نعم!!

قال: - المرأة غواية أبدية.. حاذر أن تسقط نفسك في رضاها.

قلت: – نعم!!

قال: - اجعل نفسك أول القول، ولا تسمع إلى ألاعيب أنوثتها!!

- نعم!!

كان يملأ زعلي بكلمات ظلت جامدة عند إحالتي منذ أن عودت نفسي على التخاذل، كان أبي يحدق بي غير مصدق كل هذه الاستكانة، فقد قرّرت أن أجعل الولد الجنوبي يتنفّس، ويرى، ويقرّر، استقر الجسد عند رذاذ الكلام، فهزّني والدي منبّهاً، ثمة ما جعله أكثر حيوية من ذي قبل، عدّل من هيئة وجوده، واستقام واقفاً، فوقف الفتى الجنوبي، حاولت جرّه إلى قاع وجودي، لكنه أخذني أمامه إلى حيث كانت النسوة تنتظر، وقفت زوجة أبي عند الباب، ولحظة رأتنا، زعردت بفرح يشوبه الارتباك والحزن، أبصرت أختي الكبيرة تقف غير بعيد عنا، حاولت مناداتها، لكنها أشارت إلي بأن أتقدم، كانت خطوات الفتى الجنوبي تربك خطواتي، وقف الفتى متأملاً المساحة التي اكتظت بالبياض، أو ما لبث أن دلف متعجلاً انقضاء اللحظات الحرجة، ابتسمت المرأة المفسولة بالفجر من وراء ستر وجهها، وأشارت إليه بأن يتقدم، كانت خطواته تريد الفرار، تلبس الفتى الجنوبي خجلاً لذيذاً، فامتدت يده مرتجفة، علّمه والده كيف يمكن أن يقوم بمهمة العريس؛ لكي لا تسقط ليلته الأولى في برك التحدّي، ارتفع البياض، فظهر الوجه البيضوي الذي غدا يشبه القبر، فجأة أطلق لحنجرته الارتياح، فقالت مشجّعة :

- ما الذي أصابك .. تقدم؟!!

مكتبة الفكر الجديد

توقف الفتى الجنوبي مذهولاً، فهو لم يعتدْ وجوده مع أنثى بكل هذا الضوء، تقدّمت الخطوات بارتباك، وعند حافة السرير الذي بدا بلون الدم، توقّفت أنفاس غضبه، كان يعرف ما الذي يجري؟!!.

- أوَ لم تعرفني؟! .. أوَ أنت خائف؟!!.

حيّرت الفتى الجنوبي الأسئلة، وجعلته الأجوبة يلوذ بخديعة أقواله، كان يتمنّى لحظتئذ لو جلس وسط دخان السكارى، وتأمل العيون الوسناته التي تهذر بالارتياح، تمنّى لو توقّف قلبه عند سرير السيدة التي لا يدري أينها الآن!!

تأمّل الوجه المبهور بالفرح، وتراجع مطمئناً الفتى، إلى أن القرار صار حقيقة، لا بد منها!!

ضرب الفتى على رأسه، فأحس وجعاً يتدفّق مثل سيل، واستكانت أوجاع نفسه، فجلس عند حافة السرير، كان عالمه يمور بالاضطراب، قالت :

- حبكّ!! تراجعت الأنثى قليلاً محاولة ولوج عالمه، ولحظة رأت الذئب الجاثم عند الحلق، قالت متوسّلة رضاه: - كم أنت رائع!!.

احمرت وجنتا الفتى الجنوبي، فأطرق مراقباً، تموج ألوان حذائه تحت ضغط الضوء الذي غدا شديداً، قالت المرأة التي رمت فضة وجودها جانباً، وبدت بلون الأرجوان .

- ها نحن معاً .. أوَ رأيت؟! .. مَن يسعى يصل!! .

ابتسم الفتى الجنوبي، وأحس بأن فيوضاً من السعادة تغمر وجوده، شهقت حنجرته، وأطلق صدره أنيناً خافتاً، جعل الأرجوان ينظر

مكتبة الفكر الجديد

إليه خائفاً، ثمة خيط كانت المرأة تحاول الإمساك به، أو الفتى الجنوبي، فيما يحاول الآخر قطع صلاته بهذا العالم الذي يشعر معه بالنفور والاشمئزاز والكراهية. اهتزت أركان الكون فجأة، كانت الطرادة تزرق عبر امتداد سرب من خيط الجولان التي كانت تسبح فوق السطح بخطوط خضر مصفرة، متشابكة تتعلّق بالسيقان الصفر للقصب، الذي ما يفتأ أن يئنّ كلما ضربته الأطيار، أو لامسته مقدمة الطرادة المارة مثل برق، كانت الشمس التي لبست ضوء صباحها تخترق الكثافة الآيلة إلى الانحناء، مصدره خيوط من الفرح الذي يسيطر فوق المسافة التي تبدو دونما نهاية، أبصر الفتى الملثم الامتداد، وزفر بارتياح دون أن ينظر إلى الكائن الذي يتقرفص مأخوذاً بهيبة المكان، انفرج صوته بسيل من الغناء الذي ما لبث أن تسرّب إلى أرواح الكراسيع ودجاج الماء، فضجّت متصايحة، نظر الكائن الخائف إلى الولد الذي غلّف وجوده، وشاعراً أن ثمة ما يربطه، وهذا الصوت المفتون بالحنية والأمل. استطاعت روحه عبر وهج الكلمات من تجاوز محنتها، فرأت إلى الاخضرار الممزوج بشذر الماء الذي بدا بجرف الطرادة أمامه. كيف يمكن لروح ذابلة مثل روحه أن تؤسّس لبداية لا تشبه تلك البداية التي ظلّت تلاحقه مثل جذام، رمته عربة النفط إلى حضن السيدة التي كانت تمتصّ رحيق وجوده الفتي مثل فراشة، أو تراه وجد خلاصه بين أحضان الزوجة التي كانت ذات يوم زوجه عمّه الذي أخذته الحرب إلى قلبها، كان يحاول تجاوز محنه الارتماء عند فوران أنوثتها، تتعمّد مقاطعته، فتلفّ نفسها بهالات من الغضب والاحتجاج الذي يصيّره مهرجاً، يندفع فوق زعل جسدها راقصاً مطلقاً أشد المزح كراهية إلى نفسه، تنظره بعيني الاستهجان، وتدير رأسها إلى الحائط، يرمي برأسه بعيداً، ويقفز جسده باحثاً عمّن

مكتبة الفكر الجديد

يطفئ أوار انتقاله، كان الفتى الجنوبي يتقرفص متأملاً خذلان صاحبه، يأمره بأن يشاركه بلواه، لكنه ومثل موجة عاتية ينأى بعيداً، يقول :

- قرّرت أن أسلّمك القياد ..!!.

يبتسم الولد الطيب، ويأخذ بالرأس الذي غدا مثل كرة إسفنج، ويطوح به إلى قلب العتمة، يقول :

- ما الذي فعلت ؟

يقول الفتى: - كما ترى لا حاجة لك برأس يفكر!!.

- أوَ حقاً ما تقول؟!!

- هذا ما أحسّ به :. منذ زمن طويل، وأنا أراك تعتبره قطعة زائدة .. ثقل يزيد من وطء جسدك .. ما الفائدة؟! رأس لا يعرف أيّ معنى لوجوده !.

- لكنني أعرف؟!!

- تعرف ما تريد .. ما تمليه عليك إرادة جسدك .. أوَ يمكن أن تقول لي متى عدت إلى ما قرّره رأسك؟!!.

- هو الذي تخلّى عن مهام وجوده، فما الذي أفعل؟!!

- أوَ توهم نفسك بما تقول؟ أم تراك، لا تعرف مَن أنا؟!!.

- آه، منك .. رغم كل ما أعرفه عن جبنك وغبائك وخنوعك أراك دائم الانتصار عليّ .

- لن أنتصر على أحد .. لأني ما فكرت بأن أكون نداً لك، الحروف تبدأ بكراهية وجود مؤثر ..!!

مكتبة الفكر الجديد

- ها أنت تضعني عند زاوية الإحساس بالندم!!

- وهذه كذبة أخرى .. أرجوك كفّ عن اللعب معي .. لا تتصوّر بأني لا أعرف ما يجري ..!!

- وما دمت تعرف لمَ لا تنجد انهياري!!

- ولمَ لا تجعلني أنت أخاً لوجودك!!

- لن تقدر على تحمّل خطايا نفسي .. أنت تعرف أني ابن للرذيلة .. ومحال أن تكون أنت هكذا!!

- ومحال أن تكون أنت ابناً للصدق والسلام والمحبة!!

- أنت مَن مد يد العون!!

- خذ كل شي، وامنحني لحظة هدوء واحدة .. خذ كل شيء، واجعل أناك أناي!!

- لن نقدر على أن نكون واحداً .. فمنذ أول لحظة خطو عند الزقاق القديم، جعلتني حصاناً للعربة، ووقفت أنت تحصد تعبي، وتهين رجولتي، كنت أريد سد جوع الحلوق التي تنتظر، وكنت تريد نفسك ما كان يهمّك سوى وجودك، أما أنا؛ فصيّرتني مجرد خادم .

- والآن .. أوَ تتركني، وترحل؟

- ليس الآن .. ليس الآن!!

أشرقت أوصال الجسد الذي كان مثل بقايا أنقاض، وحطّ الولد الجنوبي عند جسد المرأة التي يحبّ، فاختلج مثل طائر مقطوع الرقبة، لاذ بود رضاه، كان يحاول الإمساك بلحظة فرحة، لكن الآخر كان يجرّه إليه، يحاول سحبه إلى قاع خراباته المسكونة بالخطايا، ظلّت المرأة

مكتبة الفكر الجديد

تنتظر انفجار حنجرته بماء عذوبه الكلام، وظلّت حنجرته حائرة بين عناد الفتى الحارن مثل بغل وسقوطه المريع، آن وجه المرأة وجعاً، كانت تعرف أن الذئب الذي يسكن أعماقه يبحث عمّن يدفعه إلى الخارج، أو يعيده إلى شسع المفازاة التي امتلأ بالشوق لفضاءاتها، قالت له هامسة :

- البارحة حلمت حلماً!!

كلاهما رفع وجهه إليها مستفهماً، كلاهما رسم فوق الشفاه الحاسة بالاستشهاء ابتسامة رضا، قال:

- ماذا ؟

قال الفتى الجنوبي، بعد أن بسمل، ورفع كفّه إلى السماء: - خير، إن شاء الله!!.

أخذته إلى ودّها، فلقد أحسّت أن ثمة خيط يربطها والفتى، خيط أعادها إلى الصوت الذي كانت تسمعه، وهو يقرأ شعراً، وينغم بهدوء القصائد الحسينية، ويبكي بصدق لحظة تتخضّب رأس السيد الجليل بالدم الذي ما يلبث أن يصير طيوراً خضراً تملأ الفضاء، تكهفر الامتدادات، وتسودّ ضفاف الأرواح، ويصير الماء دماً وصديداً وانهمار شفاه، يصيح الذي جلّله الألم :

- واحسيناه!! .

تفرّ مساحات الروح، وتبصر أساه يشطف الرؤوس التي تحدّق إليه مبهورة، كانت تعرف ذاك الذي شيّده القلق، ومَن تراه يكون؟!!

منذ أول لحظة شوق سكبتها بين يديه، قرّرت أن تروّض الذئب الذي كانه، قرّرت أن تناصر الفتى، وتعيد إليه هيبته وآماله، وحبّ

مكتبة الفكر الجديد

ضفافه التي يريد، كانت تمسك بمكرها؛ لكي لا ينطش فوق الرؤوس دون إرادة منها، ومن بين شفاه رجائها تهمس. يتراجع الصمت، وتضطرب أرجاء المكان.

اندفعت الطرادة إلى أمام، كانت أكف الدافوع تتعلق بطرف المردي محاولة دفعه إلى حرة الشذر التي بدأت تتناثر مالئة السماء بفضة بيضاء، ما تلبث أن تستقرّ فوق هامات القصب والبردي والعنكر، حطّ الفتى قدميه عند مؤخّرة الطرادة، رافعاً رأسه إلى علو، ولحظة أحسّ ثباتاً فرق الجسد الذي سكن، تشظّى مشموراً إلى أبعد ما يستطيع، طاطت الططوة حائمة فوق علو الرؤوس، فضجت امتدادات الماء بالصياح، وارتجّ طرف الماء القصيّ. قال الفتى محذراً: - ربما يكون خنزيراً!!.

تكوّر جسدي إلى وجعه، وهامت روحي في امتداد اللحظة التي أعيش، كان عالمي الذي غادرت يتحدى تلالاً من الضجر، تلالاً من الحقائق التي لايمكن تجاوزها، أحسّ حلقي اشتياقاً إلى جرعة ساخنة، أحسّ شوقاً إلى ضجيج الحانات. أوَ تراني اخترت الطريق الخطأ؟! أوَ لا يمكن أن توصلني خطاي التي عملت على أن أحرّرها من براثن القحط إلى غير قحط آخر وضياع أشد فتكاً في أعماق الروح؟!!. آوَ تراني أواجه السؤال الذي أضاع جدي، ويريد الآن الفتك ببقايا إنساني ؟!.

لكزني الولد الجنوبي منبّهاً، كانت الامتدادات الزرق تأخذني إلى عمق ارتياحها، فثمة شيء ما بدأ يشتعل بداخلي، كان الولد الجنوبي يفتح عينيه مبهوراً متابعاً أكف الفتى الملثم، وهو يندفع إلى أمام، دون أن يهتزّ إلى كل تلك النداءات التي تبدو للسامع الغريب مثل توسّلات مستنجدة، خفقت الأجنحة، فاهتزت رؤوس البردي مثل جنود، أدت التحية رادة بصفير مدوّ صديات الأصوات، كانت هامات القصب تجرح

مكتبة الفكر الجديد

ضوء الشمس، فتحيله إلى خطوط ضئيلة متعرّجة، رفع الدافوع يده مثل مَن يحيّي رجل آخر، فاندفعت الطرادة متأرجحة، تقدمت خطواته التي تشبه خطوات لاعب سيرك محترف باتجاهي، وقف أمامي ناظراً إلى خمول عيني، وبحركة متعبة، أخرج كيس سجائره، ناولني واحدة، ودسّ الأخرى بين شفتيه، وظلّ للحظات يتأمّل المدّ، ومثل مَن عرف سراً أشعل عود الثقاب، وقرّبه مني، امتصّ سيجارته، وابتسم لنفسه ابتسامة، جعلتني أحدق في سماء وجهه الذي بدا مثل رغيف خبز، قال:

- أوَ هذه زيارتك الأولى؟!!.

طردت الدخان بكلتي يدي، أكره رائحة الدخان، لكني ما إن أدلق الكأس الأولى في قلب مواجعي حتى أشعر برغبة عارمة إلى دخان، قالت لي زوجة عمّي، وهي تراني أدخّن سجائر متلاحقة .

- إن أردت التدخين، فاخرجْ من هنا .. لا أطيق رائحة الدخان!!.

فامتثلت لأمرها، كنت أدخن في المرحاض، وأنا أتقرفص إلى نفسي، ولحظة أحسّ اختناقاً، أفتح الباب ببطء؛ لأشمّ بعض الصفاء، كانت تراقب رجولتي، وهي تتحوّل إلى خرق بالية وتوسّلات، وكنت أعرف أنها تحبّ الفتى الجنوبي الذي كثيراً ما تسمع خطواته فوق السطح، فتصغي إلى صوته المرتّل أجمل ما يمكن أن يقال، كانت تتحسّس صدرها، وتجسّ مفاتن الجسد، ولحظة تشعر بخطواته، تقفز مثل غزال باتجاه المرآة مراقبة دبق أنوثتها الذي يغطي الجسد، فيبدأ بالارتجاف، تشعر أن ثمة مَن يضغط، فترتمي فوق دفء فراشها مستحضرة الصوت الذي ما زال يردّد عند مسامعها :- " عيناك غابتا نخيل ..!!

مكتبة الفكر الجديد

تجسّ بوح فرحها، فيتفلّش الجسد، وتمتدّ الأصابع ببطء إلى حيث مكمن عبوديتها، تداعب المرأة التي تخفي، ولحظة تشعر بالهدوء يتسربل مواجعها تهمس.. آ آ... آ آ..ه!! وقبل أن تكتمل تضع المخدّة بين فخذيها، وتموت!!.

كانت تعذّبني، تهين رجولتي، من أجل أن تحافظ على حلمها القديم، ولحظة تشعر يأساً، ترتمي عند قدمي، تبكي بصمت، وتقبّل يدي برضا: - أنا خادمتك؟!!

انظرها بحب، فتلحس رجولتي، فاضرب أنوثتها، لكنها تشعل حرائق جسدي، فأنهزم، لأرتمي بين الفخذين، وأنام!!. يتحرّك الجسد التعب ببطء، وساعة يسود الصمت، تأمرني بصوت قائد خرج تواً من حرب منتصرة بالابتعاد، أخذ جسدي إلى رفقة الجدار، تقول التي روّضت غابة الصمت:

- أوَ جئت لشرب سرّ خلود الإناث ؟ !

تضربني المرأة التي أكره على قفاي، فأضيع في هذيان وجعي، كنت أتمنى لو جعلتني أغرق في بحور هذه الانتحارات التي كانت تغسل آثامي، نظرت إليها مستفهماً، فأمرتني بأن أستدير، فاستدرت، كانت تلمّ جسدها إلى باطن حضنها، وتبدو مثل كرة إسفنج، اندفعت إلي، فتراجع جسدي غاضباً، قالت بحدّة:

- ما لك؟!!.

قلت بصوت ثمل، مرتجف: - لا .. لا .. لا شيء!!.

قالت: - أوَ تشعر وجعاً ؟ !

مكتبة الفكر الجديد

قلت: – ها .. لا!!

قالت: – أوَ جائع أنت؟!!

قلت: – ها .. لا!!

قالت: – حسناً .. اقترب، إذن!!.

ما كنا نلعب لعبة الكراهية التي ألعبها وزوجة عمي، كنت أحسّ بأني الفاتح لكل مغاليق الأعمار، اجلس عند طرف السرير، وأهمس: – أنا جائع!! ..

فتنحطّ مئات الألوان من الأطعمة والأشربة، وتبدأ الكفّ التي بلون الفضة بتقديم خدماتها، أكره هذه المرأة التي علّمتني أن الخنوع نوع من أنواع الاستمرار في لعبة المساءات التي لا تنتهي، كنت أفكر بالانتقام، لكن الفتى الجنوبي كان يفشي سري، ما إن أحس انتشاء، اهتزّت الطرادة بهدوء، وارتفعت غيمة من طيور الماء فوق السطح المائي الذي بدأ يتحرك بامتدادات تصطدم بجسد الطرادة الذي يشبه تابوتاً، كل ما يحيط بهذا الهدوء يذكر بالحياة، سوى هذه العجلة التي تشبه قبراً، تفوح منها رائحة الذفر، وتحسها مثل سمكة عائمة، رفعت رأسي مستفهماً، كان الفتى قد شمّر يشماغه غير بعيد عنه، وجلس يراقب صمتي، وثمة قلق من الإجابة التي ينتظر، ثمة ما يدفعه إلى معرفة أيّ شيء عني عن الجسد المتهالك الذي يروم الوصول إلى وسط الهور المهجور، ولا يدري لماذا، وكيف؟!!.

كان يحاول خرق ستائر صمتي، وكنت أتعمّد إغاظته، فيما كان الفتى الجنوبي يتحبّب إليه، ويحاول الكشف عن سر هذه الرحلة التي

مكتبة الفكر الجديد

قد تدوم إلى الأبد، قلت محاولاً إثارة الفتى الجنوبي: - متى سنصل .. تبدو الطريق طويلة ؟ !

تنفّس الولد بارتياح، واشرأبّت رقبة الفتى الجنوبي، وخفقت أجنحة طائر الكرسوع ضاربة سورة الماء الشذري بحركات متقنة، ومن بعيد صاحت الططوة معلنة أن ثمة ما يخترق قلب السماء، كانت الطائرة تمرّ مثل برق، رفعت رأسي، وفجأة أحسست برغبة الارتماء وسط هذه اللجة التي بدأت تتصاعد محاولة اختراق الضفاف، لماذا تمرّ الطائرات فوق هذا الهدوء الذى وجد ضالّته بين هذه الفضاءات، فاستقر؟!!.

تمسك يدي بطرف الطرادة التي مالت إلى اليسار، قفز الفتى معيداً توازنها بحركة بهلوانية عارفة، كان يراقب قلقي، وهو ينبجس فاراً من بين بؤبؤي ،قال محاولاً لملمة خوفي، ورميه إلى لجّة الماء :- لا عليك، فهو أمر معتاد !!

قلت ساهماً : – ماذا ؟

قال، وهو يشير إلى الطائرة: -- الطائرة!!.

هززت رأسي بسعادة، كانت الطائرة قد صيّرتني كائناً يتحدى العالم الذي يريد اختراقه، قال الفتى وهو يرمي عقب سيجارته اللفّ إلى وسط الماء:

- لمَ تريد مشاهدة السبيطية ؟

قلت بصوت تعمّدته هادئاً متوازن النغمات: - أريد أن أعيش هناك!!!

قال وأنفاسه تتلاحق مثل مَن ضُرب فجأة فوق قفاه: - ماذا ؟

قلت مقاطعاً :

مكتبة الفكر الجديد

- أريد .. أن .. أعيش في .. صمت .. الهور!!

قال محاكياً صوتي: - ماذا ؟

قلت: - مثلما سمعت - أحسست بأن لابد، وأن أعود إلى هنا ؟

- تعود .. أوَ رأيت هذا المكان من قبل؟!!

- لا .. ولكني ربما أكون أعرفه ؟

- تعرفه؟! - أوَ يستطيع الخيال رسم ما يقرّره الواقع؟!!

- لن ألعب والمكان لعبة التخيّل .. إن لدي ما يجعلني أحب هدوء هذا المكان!!

- يمكن يا صاحبي أن تجد الهدوء في أمكنة أقلّ خسائراً!!.

- أوَ تقصد أن خسائري ستكون فادحة ؟

- لا أقصد سوى أنك لن تستطيع الصبر طويلاً!!

- لمَ ؟

- العيش يحتاج إلى دربة ومعرفة بأسرار المكان الذي تريد. كم من الأسرار تعرف؟!!

- لا أعرف ماذا تعني ؟

- أعني أنك لن تطيق مع الهور صبراً .. هذه الألفة لا يمكن أن يحملها قلب قلق .. وأنا أرى أن أعماقك تمور بالقلق منذ اخترقنا الهور، وأنت تسقط نيراناً من قلق فوق هامات البردي!!

أحنيت رأسي سريعاً، كان الفتى الجنوبي يصارع أناي محدداً معالم انتصاره، قال:- لن تقدر!!

مكتبة الفكر الجديد

صمت حلقي، وأحست أعماقي جفافاً، قال: - هو إذاً العالم الذي تريد؟!!

توسلت روحي صمته، قال: - لن تكون بعد الآن سوى عبد لوجودي!! .

نظرته بود، وزحفت إليه مثل كلب يتبع سيده، قال: - لا أريد مسكنة، بل ذلة حقيقية .. كن عبداً لكل ما يمكن أن يفكّر به سيد!!

وضعت نفسي بين يديه محاولاً إرضاءه، كانت روحي منذ سعت لولوج هذا العالم تهيم في ما يريد، تشعر أنه وحده القادر على رسم مسارات خطانا، وكنت أنظراليه مثل رجل حكيم عارف، قال:

- أول خطوة أن لا تفكّر أنت أبداً!!

جلست عند قدميه، كان الدافوع يرى توسّلي مستغرباً ،وتود يداه لو امتدتا، وألقت بنا إلى وسط السورة التي كانت تندفع ببطء إلى التلاشي، نظرت إليه هازاً رأسي، قال: - ضع كل ما يكونك جانباً، فهذا زمني؟!!.

قبلت يده، أو أطرقت طائعاً، قال:

- أبداً، لا يجب أن يكون لك حضور مثلما كان!!

- نعم!!.

- عليك أن لا تشعر بما لا أشعر به .. أو أن تبقى عند خطوات الخلف مثلما كنت أنا، وحاذر الذئب الذي بداخلك أحرسه جيداً. وإياك أن يعود بك أو همّك إلى هناك!!. - نعم!!.

مكتبة الفكر الجديد

- أنت .. الذي جاء بي، ما كنت أحب ذاك العالم الذي وجدت نفسي فيه، العالم الذي بلبل وجودنا، وأحالني إلى مجرد شيء عسير على الفهم، أوَ تدري كم هو صعب أن ترى نفسك مجرد أكاذيب متصلة؟!! فماذا عساني فاعل بك؟!!

-أين يمكن أن أضع ما سوّرتني به؟!!

كانت غوايتي قد نجحت، وها نحن في عتمة المواجهة، وحدنا دونما أسلحة سوى أسلحة الرغبات، صرخت حنجرتي محتجة، محاولة إيقاف سيل الأسئلة الذي بدأ يسقط فوق رأسي مثل شظايا .

- الآن .. الآن فقط، عرفت، لمَ كل هذه الأحزان، وهذه الآهات؟!! قال الفتى الجنوبي: - أعرف أنه كثيراً ما يرشدني إلى طريق، لكنه يضمّ رأسه مثل نعامة خائفة وسط الطين، يضمّ كله وسط الطين، ويتلاشى، فأظلّ وحدي باحثاً، عما يكمل خطواتي التي تبدأ بالتّعثّر ..

- ماذا؟!! ((قلت وأنا أمسك به، وأندغم ووجوده الذي بات مؤثراً)) انشدّت أعمارنا إلى سر هذه الرحابة التي جعلتني أغمض عيني ممسكاً بكل ما يمكن إمساكه والحفاظ عليه إلى الأبد، ثمة ما يجعل هذه الأهوار عامرة بالحب، أبدية البهاء، سر لا يمكن لأحد أن يكتشفه بسهولة، فلا بد من تفحّص دقيق وحذق وتأمل لكل ما يقع تحت ضغط ضوء العينين، هدأت روحي، وأحسست انتشاء كان الفتى الجنوبي الذي غدت خدوده بلون قشر التفاح يضحك بفرح، ويتحرّك محاولاً اختراق لحظاتنا للوصول إلى ما نريد، حاولت السيطرة عليه ونهر فتوته الطائشة، لكنه تمرّد، وطردني بحدة، أربكت مقعدي، فأبصرت الولد الدافوح، وهو يغطّ رأس المردي في عسل الشذر، وينحني ببطء دافعاً التابوت الذي يحملنا إلى أمام شاقاً هسيس البردي الذي انحنى رويداً،

مكتبة الفكر الجديد

وعاود الارتفاع، لا أدري كيف يرسم هذا الولد طريقاً، ثمة أشياء تتشابه، لكنها تبدو أليفة، المدن، الشوارع، الأزقة، بيوت الكونكريت تتشابه، لكنها تثير القرف والكراهية، تبدو مثل قبور مهجورة ،اليس ثمة ما يحركها غير أحلامها المريضة ونوازع رغباتها التي تسحق المجون تحت قدميها، كنت أتفحّص بيت السيدة كأني أدخله لأول مرة، دوماً أن أجد ما يجعلني أفتح فمي مدهوشاً، لابد وأن ثمة شيء ما تغيّر، أبداً ما وجدت الأشياء مستقرّة في مكانها، لكني لم أشعر بألفة مع المكان وأشيائه، كانت السيدة تعرف اضطرابي، وتحاول محو مللي بحبورات، ما تلبث أن تنسيني ما يحيط، تجعل أغراض البيت مطايا لرغباتي، فأغدو سعيداً، ولحظة يثقل الرأس، وتنتشي الأوصال، ويجلس الفتى الجنوبي خاتلاً في الظل، تتلاشى الفوضى، ويغدو جسدي سيداً مباركاً للهاثات السيدة التي كانت تداعب مخيلتي بقصص غريبة .. ما الذي يجعل هذا العالم لا يشبه ذاك ؟! أشياء تتكرر، لكنها تنغرس في الأعماق، تؤسّس أحلاماً طرية، تغسل انعزالات الوحدة، فتنهمر الروح بمطر غزير من الكلمات، قلت للولد الدافوع، هذه المرة الأولى التي أشعر برغبة عارمة لمخاطبته، فلقد أحسست أن ثمة ما يشدّ هذا الولد إلي، ما يجعله قريباً مني، كانت حركاته تذكّرني بالولد الذي كنتُهُ، وصوته يذكّرني بالحزن الذي أحمله فوق كتفي، ثمة أشياء كثيرة تربطنا، كنت أجرّ عربة النفط في وحشة الطرقات العابقة بالرازقي، وهو يجرّ هذا التابوت وسط مئات النباتات المتكرّرة، كنت أهيم في مذابح وحدتي، وأراه يهيم بعشق وجوده، كنت مثقلاً بالكراهيات إلى هذاالعالم الذي يسوّر وجودي، وأراه مثقلاً بالحب لوجوده الذي يسكن بين ضفّتيه، كنت أبحث عن درب للخلاص، وأعتقد أن يبحث عن درب يجعله يلتصق وهذا القدر الذي يشبه رائحة الهيل. قلت:

مكتبة الفكر الجديد

- أوَ تعني؟!!

ضرب طرف المردي متعمّداً بكتلة من الجولان، بدت مثل سطح يغطي جسد الماء، قال:

- أوَ تصدّق أن أحداً هنا لا يغني ؟؟

قلت محاولاً إغاظته: - أنا !!

رمقتي بنظرة خاطفة، ورفع المردي دافعاً الطرادة إلى وسط شاسع، كان يبدو مثل ساحة كرة القدم، امتداد خالي تماماً من النبات، ثمة ماء بلون اللازورد، وصفاء يكشف عن قلب العتمة التي تتلألأ مانحة حركة الأشياء عمراً أخّاذاً، تنفّس بارتياح، وأعاد المردي إلى قلب الماء، فسكنت الطرادة للحظات، وظل الماء ينتظر انطشاشه، قال بحب سيطر على مسامعي: - أنت .. اعذرني، لست من هنا؟!!

غاصت كلماته عميقاً، فانجرح قلبي، بدأت أوردتي تنزف دماً من زعل، ما الذى أدراه بأني ليس من هنا ؟ سكن هذا العالم مودتي، منذ عرفت أن أهلي انتموا إليه، وأن جدي شعر برغبته، فجاءه مستغفراً معلناً التوبة، كنت أتحيّن فرص جنوني، من أجل إيجاد حدود لبهائه ووجوده، فما الذي يجعلني ليس من هنا .. وكيف يمكن لي أن لا أكون من هنا، وأنا مفعم بالحب والرغبات إلى هذا الصفاء ؟! إن عندي ما يرد هذا الافتراض، وما يبرّر حبي، خيط الدم الذي تركه أجدادي هنا، وغادروا مجبرين، الخيط الذي أعاد انشداده الجد، وجئت لأكمل دورة الدم التي لابد وأن أقيم قيامتها، كيف يمكن أن لا أكون من هنا، وكل ما يملأ كياني ويحرك محبتي هو الهنا؟! خرّبتني المدن، دمّرت مباهجي، قتلت أحاسيس تأملي، فجئت أبحث عما يعيد إنساني إلي، إنساني الذي كان مجرد هيكل بعظام نخره، وها هي ريح الود التي أطلقها تابوت

مكتبة الفكر الجديد

الأجداد ترمم أجدث المتعوب، لم أفه بشيء، كنت أتعمّد اشتعال حرائق رغبات الولد الدافوع، فينظرني شاعراً أنه ربما قال ما يعكّر صفو مودّتنا، لكنه آمن أنه ما كان يقدر أن يقول غير هذه الحقيقة، فليس ثمة غناء يرمّم عطر الروح سوى الغناء بين تيجان هذه الامتدادات، وليس ثمة حب واحد وحياة خارج هذه السعادات التي تملأ الفضاء برفرفة أجنحة (درويش علي) السابح ببياض الفضة، والذي يبدو مثل سيد يتبختر، ليس أقدس من أن ترى كل هذه الألوان، فتقدس روح الحب الذي شيّد هذه المقامات الخالدة، اهتزّت أوتار الروح، أوَ بدأت موسيقى رضاي تعزف بهدوء، ما لبث أن تعالى؟! كنت أحاول الإمساك بأول الكلمات التي أريد، بأول الوجع الذي ربما يرضي الولد الدافوع، فيجعله يقرّ أني ابن هذا الهناء الذي يحب، كانت سخافات المدن تركب حنجرتي، فأطردها، أوَ الحيرة تركب الفتى الجنوبي، وتحاصرني ؟! وثمة ما يجعلنا نتصارع، ما أريده مؤثراً، قد يكون الفتى الدافوع قد قاله، وربما عرفته هذه الأطيار، فحفظتا أنغامه، فكيف سيكون الأمر إذا جاءت حنجرتي بصوت مرتبك غريب، قد يثير فضولها، فتخترق كبد السماء محتجّة، كان الامتحان صعباً، لكن الفتى الجنوبي الولد الطيب العاقل الجنوبي الذي يلتصق بي، يشدّ من قدري، ويهمس لي بأصوات، لو سمعتها خارج هذا المكان، لانفجر قلبي بحزن، ولبكت أوردتي دموعاً من دم، كان عليّ أن أختار، وأن أقرر ،وأن أجعل حنجرتي ترضى، وأن نغني معاً، من أجل تقديم أوراق اعتمادنا لروح الجد الذي كانني منذ اللحظة!! .

رمى الولد الدافوع المردي جانباً، وظلت عيناه تبلبصان محاولتين اختراق حدة الضوء التي امتدت إلى قلب الشذر، فارتفعت نداءاته متناثرة باتجاه الشمس التي تشبه اللازورد، كانت حنجرتي قد أحسّت بالارتياح، وبدأ الولد الجنوبي بالدندنة، كنت أخاله يغني، لكني اكتشفت

مكتبة الفكر الجديد

صمته وانفجار حنجرتي بلهب الكلمات التي تبدو غريبة، ولكنها أثارت شجن مدامعي، فانسكبت: لتبلّ سطح الشذر المليء بالنواح والأحزان والفواجع، كان ثمة طقوس تقام بين المد المائي المحاط برؤوس الاخضرار والمغطى بمئات النداءات التي تبدو للسامع مثل تراتيل المعابد القديمة، ربما تكون هذه الأطيار التي رافقت أجدادنا منذ الأزل هي أرواح لأناس عاشوا هنا، وعزت على أرواحهم مفارقة المكان، فبدأت تتحول إلى مسمّيات من الطيور التي لا حصر لأسمائها، اخترقت عتمة المكان كتلُ من الهداهد الملوّنة، اعتدت رؤية الهدهد من خلال الصور، طائر مخاتل مغرور بوجوده الأخّاذ، لكن الهداهد التي دارت فوق رؤسنا نافضة غبار ألوانها، مسالمة طيبة، إلى حد أن بعضها حط عند طرف الطرادة محدقاً بمساحة الوجوه التي أدمن النظر إليها، كانت الهداهد تحاول ولوج فضاءات جنتها، لكنها ما تلبث أن تشعر حنيناً، فتعاود ملامسة سطح الماء مداعبة امتدادات الروح بجذل أولاد يلعبون، ظلَّ الولد الدافوع يحدّق إلي، لأنه رمى روحه عميقاً في أروقة الأسئلة، ما الذي يجعل هذا الكائن الغريب المتواري خلف خجله، يسعى لإثبات وجوده، من خلال سؤال أطلقته شفاه الولد الدافوع بتلقائية ؟! ثمة ما يرسّخ هذا السؤال، ما يجعله حقيقة قائمة أبداً في أذهان الناس الذين يسكنون هذه الأمكنة، حقيقة أن حناجرهم هي الوحيدة القادرة على نبش ألق الأرواح وطشه فوق وجع الرؤوس، ما الذي يجعل هذا المهدوم يقرّر تقديم انتمائه، وبمثل هذا الانهمار الودود ؟ كان السؤال يقف عند شفتي الولد، لكنه ما يلبث أن يتراجع محاولاً إفساح المجال لحنجرتي بأن تأخذ مدى حجمها، قال الولد الجنوبي، وهو يشعل سيجارة، ويناول الولد الآخر واحدة:

- كم كان صوتك جميلاً؟!!.

مكتبة الفكر الجديد

قال الولد الدافوع - ما كنت أعرف أن لصوتك مثل هذه الحلاوة ! ما الذي يجعلك حزينا إلى هذا الحد ؟! قال الولد الجنوبي، وهو يتابع حلقات دخان سيجارته التي كانت تندغم والبخار المتصاعد من قلب الشذر:

- وجعه الذي أتعبني بخطاه، وجعله تعباً مهزوماً إلى هذا الحدّ!!

قلت، وأنا أتابع خيوط الدخان التي نفثتها باتجاه الهدهد الذي كان يجلس مرتاحاً عند الدفة:

- مالكما، وهذه المعرفة .. لنجلس هنا، ودعوا الماضي لماضيه؟!!

قال الفتى الجنوبي: - تطالبنا بما أنت غير قادر على نسيانه؟!!

تنهد قلبي، وظلت حنجرتي تلعب داخل بيوت أحزانها، فثمة رغبة بأن أجعل هذه الامتدادات مساحات للغناء النبيل والأفئدة الباحثة عن سعادات صادقة، بأن أجعلها ملاذاً لوجعي الذي تركته ورائي، كان الولد الدافوع قد استقام واقفاً ناصباً المردي الذي بدى مثل خيط دخان ذهبي في صرة الشذر، انفرجت السورة رويداً، وتلاحقت متلاشية عند نقطة بعيدة من الضوء، واندفعت الطرادة بارتجاجات بطيئة مخترقة صدر الروج، كانت مساحات البردي والقصب والعنكر قد ابتعدت فاسحة الطريق أمام هذا الشذر، قال الولد الجنوبي، وهو يفرك عينيه مخاطباً الولد الدافوع بودّ: - كم بقي لنصل ؟

ارتفع المردي إلى كبد الضوء، وما لبث أن ركس ناطحاً صرة الشذر، تنفّس الولد بارتياح، وأشرقت عيناه، واندفعت الطرادة مسرعة باتجاه الدرب الذي اختاره بمعرفة شديدة الوضوح، كانت بداية الدرب محفوظة بسطرين من البردي الذي أحاطته كتل من العنكر والكصيبة،

مكتبة الفكر الجديد

ثمة ترتيبات غريبة تلحقك، وأنت تجتاز سكون وهيبة الصور، رفت الأجنحة لحظة أحست اقتراب الطرادة التي صدمت حافات البردي دافعة إياه بهدوء، وما لبثت أن قطعت بأصواتها المحتجّة فضّة السماء، رفع الولد رأسه مراقباً طائراً أبيض، بدأ منفرداً، دار دورتين سريعتين، وبصمت، اختفى وراء كتل القصب، قال: – الوقت يأخذنا، وربما لا ندرك المكان قبل حلول الظلام!!

قلت، وثمة خوف بدأ يعتري بدني، خوف كان الفتى الجنوبي يضحك منه لحظة يراه يعتريني، كنت أخاف البقاء وحيداً في قلب الظلمة، أخاف الإنصات طويلاً إلى أزيز الرصاص، وانهمار الشظايا، أخاف النظر إلى عيون امرأة، كانت امرأة عمي تنظرني بعينين شذرتين، وهي تحتضن جسدي، وكان الفتى الجنوبي ينتشي، ويشعر أن ثمة سعادة تتلبّس جسده الذي يختلج بأنغام حية، فيطلق لحنجرته الكلام الذي يصير جسد الأنثى المطروحة إلى جانبه موقد نار شديدة التوهّج، تقول:

– لمَ أنت خائف ؟!.

دون أن أفتح عيني، أرفع شعرها الذي كان منثوراً مثل ليل فوق أطراف الوسادة، فتلوب راغبة بطرد قلقي، ولحظة تهدأ أنفاسها يتقدم الفتى الجنوبي، ويهمس بطيبة محبّته:

– أحبك.

يرتفع الرأس قليلاً، وتمسّد اليد التي كانت تشبه الجبين الذي يقطر مطراً، وتقول:

– هذه الكلمة لم تعد تكفي!!

يقول، وهو يداعب شفتيها: – ما الذي يكفي إذن ؟

مكتبة الفكر الجديد

ترتمي عند زاوية السرير البعيدة، فلم تعد تحتاجني لحظة الاشتعال، كان الفتى الجنوبي يؤدي دوره بحرص وإتقان، وبدرجة لا يمكن لأحد أن يقوم بها سواه، أعرف أنه يتفوّه بالأكاذيب التي تصل إلى آذان السامع، وكأنها حقائق، لا مناص منها، وأعرف أنه يرتّب كلماته بخبث ثعلب لحظة يصطدم جسده الفائز بجسد مَن يحبّ، لكني ما كنت قادراً على فضح هذه الألاعيب، ما كنت بقادر حتى على مشاكسته لحظة أراه يشعر فرحاً. تأخذه المرأة إلى صدرها راغبة بإخفائه بين طيّات جسدها، لأنها تشعر أن ما تعيشه ربما لن يدوم طويلاً، وأني لا بد أن أجرّه ورائي إلى دروب الرفض والرذيلة، وربما أعود به ذات يوم إلى ساحة السجن المركزي، وقلق الغرف الحمر وخرابات الأيام. كانت رغباتي تضغط فوق الجمجمة تطالبني الخلاص، أو رأسي ينبش قبور الإجابات، علّه يجد ما يدلّني على منفذ لهروب أبدي، لا يكلّفني سوى نفسي، تبدأ اللعبة بالصمت، ومثل برد ليالي الشتاء تنتهي بصمت، فأظلّ متحسّساً ارتجاف الجسد وشعوره بالنفور، كان الفتى الجنوبي يغطّ في بحور ارتياحه، يستدير ناحية الجدار، وينام، وكنت أفض أغلفة الكون بهذيانات صامتة، تجعل زوجة العم ((أكره أن أقول زوجتي ... فلم أشعر معها بغير أحاسيس الخيانة والمقت، رمتني وسط أنقاض جسدها الراغب بالانبعاث، وحوّلتني إلى مجرد فراش وثير، ولحظات اشمئزاز قاتلة)) ترنو إلى لهاثي وانهداد الجسد، راغبة بنفض غبار التعب الذي أعيش، تتوسّل أصابعها تائهة تجوس فوق خشونة الجسد، تقشعرّ الأوصال أولاً، لكنها ما تلبث أن تنكمش، يتململ الولد الجنوبي في نومته، وينقلب مقابلاً وجهها، فترى إليه بألفة عاشقة، أرفع رأسي مستفهماً، فيهمس الفتى الجنوبي عوضاً عني: - قلبي بين يديك، أوَ هذا يكفي؟!!

مكتبة الفكر الجديد

تضحك الشفاه المصبوغة بالدم، وتشرق الشمس التي ظلت حبيسة تحت كتل من الأفرشة، ترفس أقدام الأنثى دفء الفراش، ويستقيم الجسد البض واقفاً، يدور في الحجرة باحثاً عن شيء ما، ولحظة يقف أمام المرآة، تمتلئ الأرواح بشذا عطر، يجعل الولد الجنوبي يتناوم لذّة، ويجعلني أشعر برغبة شديدة إلى القيء، رغبة إلى البكاء، رغبة إلى الهروب، رغبة إلى الصراخ، أطوي جسدي إلى يدي، وأظل أترقّب، علّمتني الحرب أن ليس ثمة أكثر إدهاشاً، من رجل تعب مهزوم، يترقّب موته، كنت أقرأ في عيون الجرحى المنتظرين نقلهم إلى المفارز الطبية رغبات الخوف والتوسّل والقلق، أراقب تطور السؤال الذي يبدأ عادة بالموت ،ولكنه أبداً لا ينتهي، يتناسل مثل زهرة شوك واغزاً الجمجمة التي تظل سليمة، تهمس بالكلمات حتى إغماض العينيين المشتعلتين بالرجاء والرحيل بعيداً، والتلاشي وسط دائرة الارتياح، والإقرار بأن ليس ثمة جدوى من أيما شيء، كنت لحظتها أتلاشى، أموت وراء رغباتي التي لا تقلّ جنوناً عن رغبات ثمل، يريد عبور الشط ليلة شتاء باردة .. آه، أيتها السواتر لكم منحت أعمارنا من الأسئلة، لكم منحت أعمارنا من الفراغات، كم جعلتي جماجمنا تغرق ،حتى ونحن نعيش أجمل لحظات الانتشاء في برك من الأسئلة الضارّة، آه، أيتها السواتر التي لم تعد تفارق أرواحنا أبداً!!.

يجلس العطر عند حافّة السرير، ويجلس الولد الجنوبي لصق وجوده محاولاً الاستحواذ على زمن رجولته، كنت أرغب برميه بعيداً، وكان يرفسني إلى أقصى ما يقدر، فأشعر أنه بدأ ينتصر علي، بدأ يؤسّس له مكاناً في قلب هذا المكان، بعد أن أسّس له مكاناً في قلب المرأة التي أحبّته، منذ كان الفتى بسيطاً، يلهث وراء آمال كبار، اهتزّت الأجساد المحمولة فوق نعوش الاستذكار ونعق طائر الكرسوع لاماً

مكتبة الفكر الجديد

جناحيه إلى صدره مثل ملك يتفاخر، ضحك الولد الدافوع بانتشاء، ربما كان يقرأ ما تتصايح به تلك المخلوقات الوديعة الرافضة لكل أنواع الخراب، يعرف لغة محبّتها، ويحاول الرّدّ بحركات، تجعل الأجنحة تخفق، والفضاء يتلوّن بالصياح، قلت:

- لمَ لا تغني، ما دام الطريق طويلاً؟!!

قال: – ولمَ لا تغني أنت؟! .. صوتك عذب، وكلامك جميل !

قلت: – ولكني لا أحفظ الكثير – أكرّر ما أكتبه فقط!!.

قال باندهاش: – أوَ تكتب الشعر ؟

قلت: – ليس دائماً .. لحظة أشعر بوجع قلب، أقول الشعر، ولكنْ: كثيراً ما أنساه!!

قال: –وأنا أكتب الشعر أيضاً !!

قلت: – حقاً؟! ..

قال: - ولكني غيرك .. أكتب الشعر وأحفظه لألقيه عند مَن أحبّ.. ما فائدة شعر لا يسمعه الناس ويفرح به قلب محب؟!!

قلت فاغراً فمي لهذا الرأي الذي بدا أمامي لحظتئذ غريباً حقاً: ما فائدة أن يكتب الإنسان شعراً لا يسمعه الناس الذين يهيمون في حب وجوده ؟! ما فائدة قلب ينبض ويهمس، إن لم يسمعه حبيب ؟! كان الدافوع مفرماً إذن، مغرماً بولوج هذا العالم الصافن، من أجل إثارة أحاسيسه، حاولت التأمل في كدر وجهه وحركة يديه اللتين كانتا تقودان الطرادة بدراية مذهلة، كان ثمة ما يشدّني إليه، ما يجعلني أتمنى لو

مكتبة الفكر الجديد

بقينا أزلاً، نمارس لعبة الانتقال وسط هذا الفيض من الأحاسيس التي لا أريد لها انتهاء.

- أوَ تكتب لمنْ تحبّ فقط؟!!.

حطت مباصرة عند وجهي الذي كان يمور بعلامات الاضطراب، قال: -- لا،!! كانت روحه تسعى باتجاه هدم ما يركد وجودنا، شمر المردي إلى كتف الطرادة، فاستقرت وبخطوات هادئة، ملكية سريعة واثقة، جلس قبالتي، كان يبحث عن درب يصل من خلاله إلي؛ ليسند انحداري، تعمّدت الإطراق؛ لأمنحه فرصة للاسترخاء، ظلّ يرى إلي، وظللت أنظر إلى بطن الطرادة التي كانت تكشف عن هموم لم أرها من قبل، أيّ معنى أن يجلس كائن مثلي دوّخته أيامه أمام كائن مثله، تحاول أيامه زجّه في خضمّ نشوة الحب والارتقاء ؟! قال :

- أوَ تصدّق أن أحداً منا قادر على قول الشعر دون أن يتذوّق الحب ؟! تعلمت أن القلب الذي ما جرب الحب غير قادر على كشف كنه الكلمات، مهما كان جريئاً ومتمكّناً من صياغة أحلامه!!

قلت: - ومن أين تعلّمت هذا ؟

قال: - علّمتني هذه الامتدادات أن الشعر روح، لابد منه!!

-لا أدري ما الذي أقول!!، كان الولد الدافوع يمسك بأنفاسي، ويقطر أحاسيسه صوبي مثل قطرات الحب، قطرات متلألئة صاخبة، تنعش الولد الفتى الجنوبي الذي رمى نظراته إلي مستحسناً هذا الالتصاق الذي أعيشه والولد الدافوع، كان يمدّ بصره إلى بعيد، ويعاود الركون إلى نفسه، فثمة ما يجعله يحترق شوقاً إلى هناك، إلى حيث كنت أتعذّب، وأذوب، وأحترق، كان يملأ صباحاته بالفراغ، ويملأ ليله بالغناء

مكتبة الفكر الجديد

واللهاث، وأظل أنا مهزوماً تلاحقني أطياف الجدران التي سوّدتها أنفاس كراهيتي، كانت زوجة عمي تتثاقل بمشيتها، فتنظرها جدتي بعيني الغضب والاحتقار، منذ زمن طويل لم أسمع صوتها، امتنعت عن محادثتي، كنت أقبّل يدها، فأشعر بارتجافها، أحسها تخفق مثل يد طائر ذبيح، ورويداً ينهمر دمع عينيها بصمت، كانت تعرف أي خيانة أقترف، ومَن دفعني إلى أحزان تلك الليالي التي خلتها لن تصل إلى نقطة الانتهاء، تفتح فمها محاولة تدمير مواجعي، لكنها تعاود الانكفاء إلى نفسها، مداعبة أوتار حنينها إلى الماضي الذي يلاحق ظلمة مواجعها، الأيام دمّرت المرأة التي وجدت فيّ بديلاً، مثلما دمّرتني، وأحالتها إلى مجرد رماد من الأحلام المتصلّدة، تنفر زوجة عمي من العجوز، وترى في وجودها بلاء لابد من زحزحة وجوده، وإلا فإنه سيجلب الدمار لكل ما تعتبره الأنفس عزيزاً، زوجة عمي تعتبر الجدات الموغلات بدروب الحكايات، والحالمات بعودة أولاد، حوّلتهم الحروب إلى ذكريات صماء مجرد أشياء عتيقة مثيرة للشجن والانكسار، كنت أشم بين شفتي جدتي تمتمات تشبه رائحة التوسلات التي تطلقها الأفواه لحظة تلتقي حبيباً ظل غائباً لدهور، وكنت موقناً أن الجدة التي كانت ترمّم هيكلها المتهالك بالصبر، تؤمن من أن ثمة خطوات تسير باتجاه باب الدار الذي كان يشبه قبراً مهجوراً، كل ما يحيط بأحلامنا قد تغيّر، حتى أرواحنا صارت حطاماً من الخطايا والانتظارات، أجس النبض المتهالك، فأجده يشتعل بتحدّ مثير للإعجاب، أعرف أنها تشعر ملمسي، وترى وجودي بعيني محبّتها، لكنها تصرّ على عدم الكلام، لأمر بدا أمام عيني مثل غمامة بعيدة، لا أصدق أنها لم تكن راضية عن هذا الارتباط الشيطاني الذي جعلني أنام قلقاً بين أحضان زوجة العم التي كانت تنام بين أحضانه، وهي تحلم بي .. لا أصدق أن أمراً مثل هذا يمكن أن يدمّر كل تلك

مكتبة الفكر الجديد

الحكايات التي كانت تتحدّث عن شرور وآثام، لا حصر لها .. وأيّ مصلحة لها في مثل هذه المقاطعة، وهي ترى في بديلا للجدّ الذي ضاعت خطواته منذ أزمنة سحيقة في مدن من ضباب ورغبات، أقرأ في عيني زوجة عمي علامات الاضطراب، ما إن أجلس إلى الجدة، فتأمرني بصوت هامس مرتجف بأن أنهض، ألمّ غضبي، وأحاول النهوض، لكن الولد الجنوبي يجرّني إلى القاع محاولاً ربط وشائج محبّته بتلك العظام التي حطّمتها الأحلام. تستدير المرأة فزعة باتجاه الباب، ولحظة تعرف أنها تقف وحيدة، ترفع يدها مهددة، وتخرج، فتتبعها خطواتي مثل كلب ضال، يظل الفتى الجنوبي صامتاً مجر جراً خطاه صوب الباب ،كان يرى وجوده وهو يجلس عند الجدة، وكنت ألملم وجودي عندها، دفعتني الزوجة إلى عتمة الغرفة التي استشعرتها مثل جبل ثلج، وجدت نفسي فيه فجأة، ظلت تنظر إلي، وبقيت أحدق في فضة المرآة التي كانت تقف قبالتي، قالت بعد أن أحست أماناً:

- ما لك، وهذه العجوز؟!!

قلت متعمّداً إثارتها // أكره أن تعيش هذه التعاسة المتلاشية وراء أحلاها شيء من السعادات، أكره أن تغادر أوكار أنوثتها المسفوحة بين يدي، أكره أن تجعل من كيانها وجوداً مؤثراً، لا يمكن الاستغناء عنه، وكنت أختلق العذابات؛ لأصبها فوق رأسها الذي لم يعد يفكر بغير الشرور والخطايا والرغبات الدنيئة //.

- أحبّ الجلوس إليها أنها ترضي قلقي!!

قالت، وهي تحدق في وجه المرآة التي أربكها وجود وجهين يمطران احتجاجاً.

مكتبة الفكر الجديد

- قلقك .. دوماً أنت الذي تريد .. لم لا تفكر بي؟! .. بهذا الذي أعمل .. لمَ لا تريد التصديق من أن الأيام لا يمكن أن تعود إلى الوراء، وأننا أصبحنا حقيقة قائمة، لا يمكن تجاهلها ؟! نظرت ثورتها بشيء من التشفّي، وزحزحت جسدي بعيداً عن الآخر الذي كنت أراه يحثّني على التراجع والانهزام، كان الولد الجنوبي يدفعني إلى أمام، ورجل المرآة يتراجع، وأنا أقف محقّقاً رغبات جنوني، قلت بصوت ملأته بالتوتر والحزن والشماتة:

- وماذا إن عاد الزمن إلى خلف؟!!

قالت، وهي تأخذ بيدي الفتى الجنوبي: - محال ما تقول؟!!

جلس الفتى عند حافّة السرير، وظلت هي ترمقه بنظرات حبّ غريبة، كان كلاهما يعرف أن لا خلاص لهما، لأنهما لابد وأن يبقيا معاً، ما دامت عواطفهما تحرق كل ليلة أطناناً من الكلمات التي تشيد جسوراً من الودّ والنقاء بينهما، منذ عرفت المرأة، منذ لحظة سقوطي بين براثن سفالاتها، وأنا أتحيّن الفرصة إلى الانتقام، أيها الفتى الجنوبي إلى الفرار، وأعد العدة لتدمير ذاتي وذاتها، وربما ذات الصغير التي تحمل، قلت هامساً في أذن الولد الجنوبي الذي كان يرى إليها بشبق فتىً يرى امرأة فاتنة غارقة بالعطور لأول مرة.

- لا تجعلني أستسلم، أرجوك!!

قال، وهو يحاكي صوتي: – لا تجعلني أنت، أتراجع، أرجوك!!

- ولكني أخاف أن تتحوّل إلى شيء تافه مثلي!!

- محال، ثمة فرق بيني وبينك .. أنت كائن لا يعرف كيف يجعل من نفسه إنساناً!!

مكتبة الفكر الجديد

- وأنت ؟!

- دعك مني، فكل ما تتركه عامداً، أصنع منه حياة ترضي لعبتي!!

- لكني أخافها !!

- وهي تخافني!!.

-أعرف أنها تخاف غضبه، تخاف أن يترك أنوثتها الضاجّة بالتوسّلات، ويبتعد، أن يرفس آمالها، ويخرج، كانت تضع كل ما يرضي غروره، وكان يسعى أن يجعل منها أنثى، تحرق سفن ذهابه، ما إن يجنّ الليل، بهدوء.. رفع الولد الجنوبي رأسه، وهو يتسمّع إلى خطوات تقترب من باب الحجرة، ثمة طرق خفيف، ولكنه حادّ، حاول النهوض، أو لعلّه حاول الفرار، لكنها أشارت إليه، فجلس متابعاً، تساقط النظرات التي غدت مثل حبّات مطر يتساقط فوق لوح خشب، انفتح الباب بتؤدة، فتراجعت المرأة، ودخلت خطوات أبي مسرعة، كانت ملامح وجهه، عذاباته، تشي أن ثمة شيئاً ما قد حدث، شيئاً أشعل النيران في ذواتنا، وصيّر أعمارنا خراباً، لا يمكن إصلاحه أبداً، استقام الولد الجنوبي مانحاً الأب مكانه، فجلس مالئاً الحجرة بالاضطراب، اضطراب كانت خطوطه تأتي من أعماق الحوش الذي ظل صامتاً حتى هذه اللحظة.

نظره الفتى الجنوبي بهدوء، وامتدت يده إلى قدح الماء الذي كان الأب ينظره باستغراب، قالت المرأة:

- ماذا؟!! رفع الأب رأسه مستفهماً كأنه يراها للمرة الأولى، ربما يكون قد نسي وجود هذه المرأة التي صارت جزءاً مكروهاً من تاريخ العائلة التي لا تحمل بين طياتها سوى مئات السنوات من الأحزان والكراهيات، ظللنا نرقب انفراج شفتيه، وظل هو يداعب طرف

مكتبة الفكر الجديد

سيجارته كمَن يبحث عن منفذ للخلاص، قلت // ربما كان الولد الجنوبي الذي قال، فلقد اعتدت في مثل هذه المواجهات التي تبدو ساخنة أن أفسح له المجال، ليشعر بإنسانه، وهو يواجه سيول القلق والاضطراب التي ما كانت تهزّني، وما كنت أجد لها مبرّراً قط //

- أوَ حدث شيء؟!!

نفث دخان وجعه، وتابع ضوء الباب، وهو يتلقّف أصواتنا محيلاً أيها إلى تلاشيات تثير الاستفهام، كنت أعرف أن ثمة مَن ينتظر بين الجدران، وأن ثمة مَن يترقّب لحظة الانفجار التي ستدوي بين جوانح الأب، لينفجر هو، ويكون الطوفان، هيّأت نفسي للانهزام، رغم أن الفتى الجنوبي كان ينهرني مستهزئاً، فليس ثمة ما يتوجّب الفرار، ليس ثمة ما يجعلنا نهرب، ونحن نرى الأب المسكين يسقط في لجج شكواه وظنونه، قال، وهو يطوي يديه إلى صدره، وينهض :

- لقد عاد العمّ!!.

صرخت حلوقنا : - ماذا؟!!

وللحظة ران الصمت .. وتحوّلت الغرفة التي كانت قبل هنيهة معقلاً لآيات الحب إلى ساحة قتال، ثمة خناديق وأرواح تتطاير، ونداءات استغاثة .. وببطء .. ببطء، سقطت المرأة إلى الأرض .. وطوى الفتى الجنوبي نفسه خجلاً .. واندفعت أقدامي مسرعة تبحث عمّن يجيب عن السؤال الذي دمّر حياتي، وأحالها إلى تفاهات، لا حصر لوجودها .

- ماذا؟!! .

مكتبة الفكر الجديد

رعود خطوة العاصفة

قال:

- اقرأ ؟!.

قال: — وكيف أقرأ، وقد حوّلني التراب إلى خطيئة؟!!

- اقرأ ؟

قال: — كيف أقرأ، وثياب الليل جلّلها الحزن؟!!

- اقرأ ؟

قال: — وما فائدة القراءة والروح تعرف كلّ شيء ؟!

- اقرأ ما ينطق به الجواب!!

قال: — وما فائدة الأجوبة التي لا تنطق بغير الخواء!!

- اقرأ ما لك ترتاب من القرار ؟!

قال: — أوَ بعد كل الذي جرى ... غدوت مثل درب الضياع ...؟!!

خيط من الوهم أو النور .. وخيط من الحزن ... ما الذي حطّم في انتظاراتي ضياء الرجولة، مَن أعطاني قبضة فارغة، وجعل صحاري جفاف؟!!

مَن يملأ أقدارنا بغير السراب؟!!

- اقرأ، لتعرف منتهاك ومبتداك .. لتعرف مَن يحمل أكوام النجم فوق الرؤوس .. اقرأ، لتعرف أن الطين سؤال الأزل .. لتعرف لمَ ترجعنا السنوات إلى عمر الطفولة؟! .. اقرأ، لتعانق وراء القلوب!!.

مكتبة الفكر الجديد

قال محتجاً: - ما أنا بقارئ ..!!

وتوارى خلف ارتجافات الرياح التي حملته إلى ضفة التل الذي كان يحلم به، حطّه الولد الدافوع عند هذا الرماد - وقال وداعاً!!

مضى دون أن يلتفت إليه، أرد أن يناديه، أن يقول له - ارجعني إلى حيث كنت!!.

لكن القصب ابتلع مقدمة الطرادة، ورويداً غطّى الماء بقايا الجسد المشتول مثل صفصافة، كانت اليد ترتفع، فيرتفع قلبه، ويهمّ لسانه بالصراخ، تهبط ضارية جلد الشذر، فتهبط روحه إلى قاع جنونها، ما الذي أعاد خطواتي التي دمّرتها المدن والحروب إلى حضن هذه الدعة ؟! ما الذي يمكن أن أفعل بعد أن غدوت مجرد هيكل يحلم بالفناء ؟! أيّ الكلمات يمكن أن ترسم جسداً أدمن الموت؟! .. وما فائدة ألم يعيش وحدته؟! .. آلامنا محطات عذبة تراود إنسانيتنا التي هجرتنا هناك .. عند شغب الدم والتواء الرقاب التي كانت تسيح في أمواج أحزانها، علّمتنا الحروب أن الأحزان سلوة المنتظرين، وأن الأحزان مداد الأزمنة، من أجل ماذا جئت ؟

ولمَ؟ .. وأيّ الانتظارات أجدى لرجل متفلّش مثلك ؟! هجرت دخان الحانات وغناءها المعجون بتعب النفوس وخطوات الشوارع المتعثّرة عند بوابات طفولتك؛ لتجيء إلى هذه الوحشة القاتلة، ما الذي يربطك إلى هذا الصمت، هذه الانتظارات التي لا جدوى وراءها ؟! وما الذي تسعى إليه ؟! وتريد لنفسك الإحساس بالهدوء والأمان، أوَ ما كان عليك أن تؤسّس لأمانك عند ضفاف شوارع الطين والبيوت التي بدأت تكتظّ ثانية باللثغ بعد أن أفزعتها الحروب ؟! أوَ بدأت تقيم للحياة أحلاماً أخرى، بعد أن ودعت مئات الأحلام التي صارت مقابراً، ما لبثت أن

مكتبة الفكر الجديد

تلاشت هي الأخرى تحت هدير الحادلات واهتزازات الصواريخ، التي كانت تعلم المدن كيف تدمن الصمت، وتداعب شفتي القناعة برضا!!.

أوَ ما كان الأجدى أن تتوسّد جسدك وتترقّب حياتك التي سوف تتكرّر على هيئة صبي ؟! ربما سيكون ابناً لعبثك ومجونك، مثلما كانت ابناً لآثامك وخطاياك!!

أوَ تراك جئتَ لترقب خطوات الجد التي ضاعت في خضم هذا الصمت ؟! أوَ هكذا تعتقد أنت حين قالت لك الجدة باسمة ؟!

- مضى يحلم بتلال الذهب!!

فأيقنتُ أنما كان يحلم بذهب الهدوء والصمت والابتعاد عن عمر الفشل الذي بدأ يحلّل وجوده، كانت أحلامه تغطس في رؤوس أصحابه وأقاربه وأهل القرية، فماذا عن أحلامك النافرة مثل غزال؟!!

ماذا تراك تعلّمت ؟! ولمَ امتلأ رأسك بكل هذا الضجيج ؟! أوَ كنت تعرف أن المحطة الأخيرة ستكون عند هذا التراب الذي تُبلّله مئات الخطوات السرية ..؟!!.

أوَ كنت تعرف أن آثامك، كانت سترمي بحطامك إلى صخب هذا الحلم الذي حوّل الجدّ إلى سراب وحكايات وَهْم، تضحك لها شفاه الصغار، وتبسمل النسوة اللاعنات وحشة الليل!!

لمَ جئت، أيّها المأخوذ بالفوضى ؟! لمَ جئتَ، وأنت لا تعرف ما الذي يمكن أن يفعله إنسان، اختار الوحدة ؟! أوَ يطوي رأسه إلى جسده، وينتظر الموت ؟! أوَ جئت لتموت وحدك ؛ لكي لا تترك وراءك أثراً، يمكن أن يثير غبار الأشجان، لكي لا تترك خلفك عيوناً تبكي غربتك، التي بكتها الجدة طوال دهرها المنصرم؟!!.

مكتبة الفكر الجديد

ومن أين تراك تبدأ، تشيد بيتاً من طين، تعاود الانتماء إلى الأرض، تركك الولد الدافوع، ومضى دون أن ينبس بشيء، توسّلته أن يعود، أن يقول شيئاً، يرضي خوفك وقلقك، لكنه أشار إلى التلّ الجاثم عند وسط الماء، المحفوف بالشذر ونداءات الكهنة التي تردّدها الأطيار، وأصوات النايات التي أخرجها القصب، أشار بطرف إصبعه، وقال: – امض؟!!. فمضيتُ .. جئت لتبصر عمر الأقدام الموغلة بالبلوى .. أوَ كان إلا سواك يريد الانتظار هنا، انتظار الشيء الذي لا يمكن أن يجيء؟!!

ضحك الولد الجنوبي، ضحك بملء فمه، كأنه لم يضحك من قبل، منذ زمن بعيد لم أسمع مثل هذا الرنين الأخّاذ، لم أستمع لغير دويّ مدافع الهاون، ورفسات المحقّق وتوسّلات نزلاء السجن المركزي، حتى ضحكاتنا هناك كانت معجونة بالألم والامتحان والترقّب، تظلّ عقولنا تبصر الطرقات خلف كتل الكونكريت التي تسور آثامنا، فتهمي العيون بوجع الأحلام، ولحظة نغط في تراب الضحكات، ترتفع أفواه الاحتجاج، كنت أبصر هذه الخطوات القلقة بالارتباك، وثمة ما يذبح سؤالي، أيّ قوة يمكن أن تبقي هذه الوجوه المكتظة بالفراقات خلف هذه الأسوار؟!!.

تمارس حياتها، وكأن شيئاً لم يكن .. مَن أعطى الحقّ للآخر بأن يجعلها تجلس مترقّبة، ليتابع هو وبفرح متوحّش تسرب الحياة من الرؤوس، تسرب الرمل من بين الأكف، مَن جعله سيداً للضوء، وجعلني ابناً باراً للعتمة والانتظار ؟ كانت الغرف ما إن يجنّ الليل، وتنسدّ منافذ الحياة، حتى تراها تمور بالرجوات، تتوسّل الرب بأن يجد لها درباً للخلاص، بعد أن أعيت أقدامها مباحث الانتظار، كانت تتوسّل سكان السجن المركزي، أتقنوا التوسلات .. أتقنوا الأكاذيب، أتقنوا اللغو، أتقنوا

مكتبة الفكر الجديد

فنون الصمت، أتقنوا الانتظار الذي علّمنا أن لا جدوى منه، ضحك الولد الجنوبي، فأثار لوعة أحزاني، قلت محاولاً جرّه إلى لبّ الكلام:

- ما الذي أضحك صمتك؟!!

أشعل سيجارة، ودفن رجليه في بطن التراب الذي بدا بارداً يشبه ذرات طين يابس، وبصوت حيي، قال:

قال: - أوَ تذكر مرة أنك حدّثتني عن أحدهم لا يجيء؟!!

قلت: - نعم .. كانت فكرة رائعة لرجل يحلم بخلاص لن يأتي ... حلم مثل مئات الأحلام!!

قال: - لكنه أثار جدلاً .. كانت خطوة جريئة أن يقول مجنون مثله إن الحلم لن يتجاوز الواقع.. كان ينتظر وهماً مثلما انتظر رجال الفكرة!!

قلت: - نعم!!

قال - ونحن، أوَ ترانا ننتظر وهماً؟! .. أوَ جئنا إلى هنا .. لننتظر حلماً لن يتحقّق .. حلماً ضاع وسط ما كنا نعيش من ضياعات ! أيّ ملل يمكن أن يأكل أرواحنا، ونحن نرقب هذه الزرقة المملوءة بالصمت ؟! عن ماذا يمكن أن نتحدّث بعد أسبوع ؟! ماذا يمكن أن أقول، أو تقول .. الصمت .. الصمت ربما سيكون سيد أبدنا سيد أرواحنا الغريبة!! .

قلت: - وهذا ماجئت أبحث عنه .. وحدتي .. لملمة أفكاري التي أعتقدها ضاعت بين لهاث الشوارع وأحزان الليالي الموبؤة بالخمر .. أيّ محنة كنا نعيش، يا صاح؟!!. قال: - ليس الإنسان سوى محنة متوارثة!!.

مكتبة الفكر الجديد

قلت: - أيّ خطيئة هذه التي نتوارثها ؟! ولمَ نحن مَن يصبّ الرّبّ جام غضبه فوق رؤوسنا .. محنة، ثم أخرى حروب وحصارات، جوع وأحلام تنهدم ما إن تنشقّ أرض القلوب ؟! كيف يمكن للإنسان أن يعيش، وهو مشتول في عمق آسن من المحن؟!!.

قال: - هذا ما يجذر إنسانيته .. ما يجعله يعرف بوجوده!!.

قلت: - أوَ لم نتّفق على أن تكون سيدي؟!!

قال متفاخراً: - بلى!!.

قلت بخنوع: - وإذن، لمَ تطلق مثل هذه الأوصاف الجاهزة ؟! لمَ تريد إثارة غضبي؟!!.

قال: - غضبك لا يعني لي شيئاً .. أنا أقول لأجد لنفسي طريقاً!!.

قلت مرتجفاً: - وتتركني وحدي أصارع كل هذه الآثام!!

قال: - وحدك؟! يا لها كلمة .. مثل عجوز مهجورة تبدو!!

قلت: - وأنا هكذا.. جسد أتعبه الجري، فجاء ليتلاشى!!

قال - ولم تعتقد اني ما جئت لهذا!!

قلت: - ها أنا اراك تتحدث عن نفسك .. كلانا لابد أن يتلاشى!!

قال محتجاً: - أوَ تقرّر أنت ما لا أريد ؟!

قلت: - ومتى كان لك ما تريد .. منذ أول أبصار حملتني ما لا طاقة لي به .. كنت ترقب انهياري دون أن تمدّ يد التسامح، تنزوي عند خوفك!!.

قال: - كان ذاك لأني ما اخترت بعد!!

مكتبة الفكر الجديد

قلت:- والآن ؟

قال: - كان هذا اختياري .. حفزتك لنفر رغم كل ما كنت أعيش..!!.

قلت: – لم يكن الأمر سهلاً!!.

قال: – ربما .. لكنه كائن على أي حال!!.

قلت: – لكني تعذّبت. كنت أنصهر مثل نشارة حديد .. أذوب .. وأندغم والنار، لكني ما ألبث أن أعاود وجودي!! .

قال: – لعبة عشقها انهزامك، ما فائدة أن تعود من حيث بدأت ؟! قتلت أعماقنا كل ما كنا نريد!!

قلت: – ضيّعتني الكلمات!!.

قال مقاطعاً بصوت حادّ ممطوط: – بل وضعتك عند أول الطريق، لكنك أدمنت الخيانة، وأعجبتك تراتيل الحانات، فارتميت وسط دخانها دون أن تفكّر بي، وبخاتمة الدرب، حتى الأسئلة التي كنا نطلقها، ونحن نجرّ عربة النفط ذبحتها رويداً!!

قلت: – لم يعد لوجودها ضرورة .. بعد أن كبر الجرح في القلب!!

قال: – وهكذا مع أسئلة الغرف الحمر والسجن المركزي أو نتظارات السواتر!!

قلت: – لم يعد لكل هذا فائدة .. حياة تبدّدت، ويد لا تضمّ سوى حفنة ريح!!.

قال: – أوَ تريد أن نبدأ؛ لنستمرّ!!.

مكتبة الفكر الجديد

قلت: – من أين نبدأ ؟! وإلى ماذا الاستمرار؟! وها أنت ترى الوحشة التي نعيش ؟! أوَ يمكن أن نعيش عزلتنا ..؟!!

قال: – كل هذا البهاء، وتصيح بالعزلة .. يكفي أن تتأمّل؛ لتكون سيداً!!

قلت: – والخوف الذي يقتل ودّ تأملي ؟!.

قال: – لا عليك منه .. دعني أصارعه .. دعني أرتّب ما أريد ترتيبه!!

نظرته بودّ، كان الفتى الجنوبي، قد نضج، وغدت أفكاره مثل شذر يتلألأ، حاولت ملامسة آماله، لكنه ظلّ بعيداً، كان يعرف أن ثمة ما يستقرّ عند الروح، ويدنّسها، ما يحيل أنفاسي إلى اضطرابات متلاحقة، أشعلت سيجارة، وبدأت أداعب خيوط دخانها، كان الرجل الجنوبي المتفاخر، يرى إليَّ بانتصار، محاولاً سبر أغوار خرابي، ما الذي يريد أن يشيد؟!!.

من أين تراه يبدأ .. ولا شيء سواه وخرابي، وهذا الشذر المأهول بالمسميات التي لا حصر لها؟! كان الليل الذي بدأ يودع وجودنا يتلاحق بظلمة شفيفة غريبة التكوين، وثمة أصوات تتعالى رويداً، لكنها ما تلبث أن تتلاشى، تصفع وجه العتمة متوسّلة، وتخفق مخترقة وهج محبّتها، أضفت مسامعنا إلى الصمت، وحاولت إرجاعه، لكنه طوى جسده إلى نفسه، وأغمض عينيه، توسّلته بصمت، فلا فائدة من النوم عند أول ليلة نعيشه سوية، أول ليلة نريد أن نؤسّس من خلاله عالمنا الذي دمّر خطوات الجد، وجعلها مجرد حكاية مضحكة، قلت: – أوَ تنام؟!!

همس ببطء شديد: – لا .. ولكنّي أتأمل!!.

قلت هامساً: – أوَ ثمة ما يقلقك ؟!

مكتبة الفكر الجديد

همس بصوت متقطّع، ولكنه شديد الوضوح – كنت أفكر في الذين هناك؟!!.

قلت، وأنا أنفض غبار وحدتي: – أنت؟!!

ازداد همسه بطئاً وضوحاً: – أنا!!.

قلت: – وبماذا عساك تفكّر ..؟!!.

زفر بارتياح، وفتح عينيه، على اتساعهما، منذ كم من السنوات لم أرَ هذا الومض المشدود إلى الاندهاش، كنت أرى أن الذبول كان يسكن بؤبؤيه، فما الذي أوقد الذبول بالفرح؟!!

قال: – كانت لحظة قاتلة؟!!.

قلت: – بل هي أزمنة قاتلة؟!!.

قال: – أتحدث عن اللحظة التي عشناها!!

قلت برغم ما اعتراني من ألم، فلقد كانت اللحظة لحظتي، والأسئلة التي تساقطت مثل حجر فوق الرؤوس، إنما هي إبحار أسئلتي التي ظلت طوال أعوام غياب العم دفينة اضطرابي، لم أجد أمامي سوى الصمت، الصمت الذي كان يدور لحظات انتظارها، ما الذي يمكن أن أقول ؟! ومن أين تبدأ المقولة ؟! أيمكن أن يعرف هو ما الذي حدث دون طيف كلمات ؟! أوَ يمكن أن أجعل الصمت رسالة توضح مبدأ ما حدث؟!!

كانت نظراته لحظة أبصرني متشظّياً، تحاول لملمة بقايا آخر يوم كنا فيه معاً، آخر تلك اللحظات المشحونة بالآمال، كانت سماوات غضبه تمطر أحلاماً من دم، وتسعى إلى أن لا تظل تائهة في رماد السراب، كان يذبح أنقاض السنوات التي جعلت منه كائناً، شربه الخوف والقلق

مكتبة الفكر الجديد

والانتظار، يزيح أيام عذابه، علّه يصل إلى الفتى الذي كان يود، الفتى الذي كان يسعى جاهداً، من أجل أن يكون أناه الواصلة إلى ما يريد، تسمّرت الحناجر عند لحظة البوح، كانت الجدة التي شمّت عطر رجائها تحوقل بغضب، منذ سنوات طويلة، ما سمعها أحد تحوقل، فما الذي يعجن رأسها الآن؛ لتسقط فوق رؤوسنا دم حزين من الارتباك، تحوقل، وهي تحاول فضح ارتجاجها، لقد تعوّدت الانتظار، وأدمنت أبصار ظلمة وحدتها، فلم تراها الان تريد تدمير أشرعة العزلة، أحاول الارتماء عند غضب الصوت، أحاول الفرار بحثاً عمّن يعيد ترتيب الأشياء التي ظهرت مثل أشلاء متناثرة، مَن عساه يفعل ؟، كان والدي يبصر حزن عيني، وكانت أختي التي تشبه ضياعي، تحاول الإمساك بضياعي، رغم كل ما يجعلها مجرد فتاة صغيرة، لا تعي ما يمكن أن يصل إليه الأمر، وهربت زوجة عمي، دون حتى أن تقول بآهة احتجاج، كانت مثل ريح ضربت الباب بشدة دوامتها، وهرولت نافشة عذاباتها عند مفترق الطرقات.

قالوا: - لقد أصابها الحزن، فانفجر قلبها بالجنون!!.

وقالوا: - بل إنه عذاب الأرض قبل عذاب السماء!!.

وقالوا: - إنما هي روح ظاهرة، وسّخها الشيطان برغباته!!

وقالوا: - أيّ ذنب لامرأة، وجدت نفسها فجأة تعيش ليل الشتاء الطويل؟!!.

وقالوا: - لا يمكن لجسد المرأة أن يخلو من رغبات الشيطان!!

قالوا: - بل إن الشيطان هو عين المرأة، وزاد رغباتها !!

مكتبة الفكر الجديد

وقالوا: - ما فائدة كل هذا القول .. الذي كان .. كان، وما علينا سوى الصبر، وحلّ الأمر بالتراضي!!

وقالوا: - كيف ؟

وقالوا: - لقد هدّت الريح الجدران .. وأبدأ لا يمكن إعادة ما تهدّم!!

ظلّت زوجة العم تدور متضرّعة النجاة، وظلت جدتي تحوقل، وظلّ أبي ينظر إلى أشياء لا يدري إلى ماذا يمكن أن تصل، وظللت لا أعرف كيف تبدأ عملية الخلق التي قالوا بها!!.

كانت نفسي تعرف أن الطريق الذي أسلك تحفّه مئات الرغبات، فثمة إرث، لابد وأن يتحمله الذين جاؤوا من بعدنا، ما الذي يمكن أن يقوله أولاد العم، الذين يحبون الآن بين أركان الحوش دون أن يعرفوا أيّ مصير ينتظرهم؟!! كانت الخطيئة تدرج بين ثنايا قلوبنا، وكنا نتحطّم، ونحطّم أحلامنا التي شيّدتها عذابات السنين، أجلسني العم الهرم إلى جانبه، كان يداعب أطراف أصابعه، وبين فينة وأخرى يقضم بطرف حلقه ذوائب شواربه التي غدت بلون ثلج، دنّسه السواد، كانت عيناه تبحثان عن خطوات، تدلّه على بوابة فكّ الأسرار، التي غدت مثل صخور، تجثو فوق غصن كتفيه، تحصّنت نفسي خلف جدران من الأسئلة دون أن أنبس بحرف، كان الوجه المفجوع يضيء مساحات القلب، فيقرأ العم سطور البلوى التي جعلتنا مثل خراف متناحرة، مطق الوالد بقهر، فناولته أختي طاسة الماء؛ ليبل ريقه، ويشكر الرب الذي سعى من أجل امتحان إرادته، قالت الجدة ((فجأة نطقت العجوز التي كانت غائبة في مدن حكاياتها، أو أمسكت بسنوات فراره، فأعادته إلى لبّ وجودها، أوَ تراها شمّت عطر عذاباتها، فانتفضت، لتعلن أسرار

مكتبة الفكر الجديد

الصمت الذي كان يدمّر وجودنا بكامله ؟! أوَ تراها عرفت درب الرغبة فأيقنت أن ليس ثمة خلاص بغير النطق الذي يعيد توازن ما تناثر من الأيام؟!!، رفع أبي رأسه متعجباً، ولمت أختي جسدها إلى بعضه، وزحف العم مقترباً، فيما ظلت زوجة أبي تنظرها بعيون الحقد والكراهية، كانت موقنة أن جدتي لا يمكن أن تغادر أرض أحلامها دونما ضجة، لا يمكن لهذه المرأة التي صارعت أعتى أسود السنوات، وانتصرت عليه، أن تترك مملكتها دونما فعل يمجّد انتظاراتها المأهولة بالأحلام، قالت بصوت كهل متراخ، لكنه شديد الوضوح، ما لبث أن غطس في روح الخوالي من الحكايات: - اقترب!! تحركت خطواتنا الزاحفة، وران الصمت، إذ لا يمكن للأفواه أن تنطق مهما بلغت المأساة في حضرة الجدة التي لوّنتها السنوات بألوان الحكايات، وجعلتها سيدة للصمت الراغب بالانفجار، لا يمكن للقول أن يسبر غور القلوب دون جدة تتحدث بعد صمت ألم الوجوه، وجعلها ترقب انفجارها .. اقترب العمّ، وجلست الشفاه مفتوحة تترقّب، قالت الجدة:

- ما دمت قد عدت .. فلا بد أن ترى وتعرف!! .

فغر العم فاه، وظل يرى إلى الشفاه التي كانت تبصق كلمات من نار، كنت أتمنى لو انتهت الجدة، لو صارت ريحاً، وتلاشت مثلما تلاشت أعمارنا بين سنوات القحط والجوع والبارود، أوَ تراها تعرف حقاً ما الذي جرى؟!! تعرف طرق الضياع وخيبات الأمل، والجور الذي ناءت تحت وطأته الأرواح؟!! تعرف عذابات السواتر والجماجم التي عادت؛ لترتمي بين أحضان الجوع والرذيلة!! تعرف أن ليس ثمة قيمة لشيء ... في زمن اللاشيء!! أوَ تعرف، هي التي دفنت عمرها بين قبور الانتظار، أن الأعمار ما عادت تساوم أهداف وجودها ؟! أوَ تعرف أن رغيف الخبز

مكتبة الفكر الجديد

صار بلون الحجر ؟! أوَ تراها تعرف أن أجمل الحكايات التي كانت تجلّل بها أعمارنا، صارت مجرد خرف، يثير الضحك والاشمئزاز ؟! .

أوَ تعرف أن المعرفة لم تعد سوى كذبة قاحلة؟!!

ما الذي يمكن أن يقوله الانتظار، وجدتي كانت قافلة انتظار ضاعت وسط مفازات موحشة، كانت تبحث دونما جدوى عمّن يدلّها عن درب، يوصلها إلى ما تريد؟!!

ما الذي كانت تريده، وهي منذ أول دهورها وجدت نفسها لعبة انتظار، لا ينتهي؟!!

ظلّت عيوننا تبصر انتظارها، كانت تحرّك رأسها ببطء، وتداعب ضفيرتها التي بلون النار بتؤدة أم تهدهد طفل مريض، تبسمت أختي بخجل، وغمزت لي، لكني نظرتها شزراً، فتراجعت إلى نفسها لامة كدر أحلامها الغريبة، قالت الجدة، وهي تأخذ بكف العم إلى صدرها :

- كنت هنا .. وستبقى .. علّك لا تعرف معنى أن تضيع أم مثلي ولدها في دخان الحرب .. لا تعرف معنى أن أظل أنتظر طوال هذه السنوات، كنت الوحيدة التي تعرف أنك لابد أن تجيء .. لكني أبداً ما بحت بسرّي .. مَن تراه يصدّق عجوزاً تجاوزت سن الموت مثلي، كان قلبي يرى إليك، وأنت هناك!!.

طفرت إلى الخدّ أمطار أبي، وما لبث العم أن انفجر بحزن، كنت لا أعرف ما الذي أفعل، وسط هذه المحكمة التي تقرّر لحظة ضياعي، كان حلقي يشعر اضطراباً، وشفتاي تموتان حزناً، ولساني يصير مثل خشبة، كان السؤال يذبح القلب، فيشخب وجعاً، أوَ تراه يعرف أيّ محنة أعيش، هو الذي كان يعرف عني، مثلما أعرف عنه كل شيء؟!! .

مكتبة الفكر الجديد

أوَ تراه يقدم تنازلاً أمام عذاب أزمنتي ؟! أوَ يقول لا بعد أن دمّرت النعم سني آمالي؟!! .

واصلت الجدة، بعد أن عدلت من جلستها، واستندت إلى الجدار:

- ان الذي حدث لابد أن يكون .. أنا مَن يتحمّل وزر هذا؟!!

قال العم مستغرباً: - ما الذي حدث، أمي ؟

قالت: - زوجتك.. زوجتك!!

لم أطق الانتظار، كان جسدى يرنو إلى عينيه، يرنو إلى هذا الغريب الذى غطّى وجودنا، لم أفه بشيء، كانت الكلمات قد صارت دخاناً يلاحق خطوي، حملت الجسد المذبوح بسكاكين البلوى، وخرجت .. خرجت تلاحقني أغنيات الخيانة والشرور!! ضحك الفتى الجنوبي، ومرغل جسده بتراب النخل الذي كان معجوناً برطوبة الليل، ثمة أصوات تأكل حافة الصمت، أصوات عذبة، لكنها كانت لحظتئذ تنعى حياة الإنسان الذي كانني طوال هذه السنوات.

مكتبة الفكر الجديد

نهر الورد .... عشوق الاشتياق

❖ الليل يتلألأ بالغمغمات، وثمة خطوات تثير مجهول زمني الذي كان يبدده همس الانتظار، كان القلب يتورم وجعاً محاولاً اختراق وجه القمة التي غطّت مساحة اللازورد، فجأة، هدأ الحفيف، وغدت الأصوات تعوم بارتخاء حيي، غابت الريح، فالتمع القلب، وأوقد رويداً شموع وحدته. كانت لهاثات الأنفاس توقظ مخادع قفاره، حاول البحث عمّن يسدّ منافذ وحدته، استلّ دفتراً، وأخذ القلم إليه، كان يشعر بياض الورق، يلمس نعومته بكفّ رجل شريد، جفّف شفتيه باحثاً عن أول الكلمة، لكنه ومثل ذئب جريح، عوى. قال للورقة التي أفرزت حقدها:

- ما الذي أريد ؟

سكن الذئب رويداً، ومثل طفل خجول تسلّل القمر من بين فجوات الاخضرار، رفع الرأس إليه، وملأ العينين بالدموع، ارتخت بياضات الورقة، وأحست خجلاً، فهي لم تعتد المضي، ورجل يبكي قسوته، حاولت الاندماج وحنينه، لكنه أذاب همسها فوق سطوح قلقه، كان يرى الأجنحة الغائبة، وهي تضرب وجه الليل، سال الضياء فوق مساحة البياض، فأنست الورقة وجودها، قال:

- ماذا يمكن أن نقول؟!!

دقّت ساعة عزلته، فرفع عينيه محاولاً الإمساك بارتجافات الهدوء، لم يكن يصدق أن ثمة وحدة مثل هذه، ثمة هدوء غريب، يمكن أن يلبسه تاج العزلة، ثمة عالم يمكن أن يغمره بكل هذه التجليات، تدفق الشعور الغريب من بين عينيه، ذهول يصحبه انتشاء، وظلال تشعره بتحديق الفراغ، أدار الرأس دورتين كاملتين، كان كمَن يتفحّص الوجوه لأول مرة، وجوه الذي كان يسعى إليها من أجل أن تنفض غبار آثامه،

مكتبة الفكر الجديد

قهقهت العتمة، وتلاحقت أنفاس البياض، لم يجد ثمة ما يقرع الورقة، كان قد نسي جنون وحشته، نسي تلك الألفة التي كان يريد لحظة يبتهل معفّراً وجهه بتراب الكلمات، يغمض عينيه، ويسرح بعيداً، يرى أن ثمة واحد آخر، يغادر أنفاسه، فيتوسّل إليه بالبقاء، يتوسّل أبعاده عن لظى الاضطراب، يهمس الآخر بومض المحبة.

- أوَ تكتب ؟

يقول: – بلى!!

يقول: – أو تعطّر صدرك بالرضا ؟

يقول: – فضائي مملوء بالاشتياق ؟.

يقول: – أوَ ترى ما وراء الحجب ؟

يقول: – هذا ما أريد ؟

يقول: – شراعك يبعد ذاكرتك ؟

يقول: – شهادة حلم أنا!!.

يقول: – وما الذي تريد أكثر من هذا ؟

يقول: – سهاد الاختيار والأحلام القديمة؟!!

يقول: – أوَ لا تنظر الدروب التي كانت كآبة الأزمنة!!

يقول: – وما أدراني أن أكون!!.

يقول: – يتعبك فراغ البياض ؟!.

يقول: – كيف لا؟! وليس ثمّة سوانا ؟!.

يقول: – دعنا نتبع ضوء شواطئنا!!.

يقول: – قليلاً تضيع المسافات، فما الذي يمكن أن نصير؟!!

يقول: – دقّ أول باب .. واتبع شطآن الأحزان!!

يقول: – ما عادت تكفي .. والحلم يقتات مساءاته!!.

يقول: – وذا أطفأ الغد خيال تجودك؟!!.

يقول: – عندها؛ أرمي أمتعتي، وأمضي!!

مكتبة الفكر الجديد

يقول: – أوَ تكتب ؟!

يقول – بلى.

يقول://وحسرتاه/ كانت تراودنا المسرة مثل مقصلة العذاب /تعذّبني ذراع الرحيل، فأرنو، بالأمس كنت أتابع أنفاس أزمنة المقابر/ بالأمس//.

- أوَ لا تصمت؟! / يقول / وهو يؤكد أن ظلام القبور ما عاد يشدّ الخوف إلى رقبة الأولاد، علّمتنا الحروب أن الأشباح أرواح أحبّتنا الذين أطفأهم الصباح؟!!

/ يقول: / عينان من دفء وسواد / عينين ساهمتين / أو يبتسم الشبح الذي يراود حلمي هناك ؟ عند أول المقبرة كان الليل يفيض، فتورق الأضرحة باللهاث الشقي، أوَ يحلم الموتى بالافرشة التي غادروا .. بالنساء اللواتي تلون بالندى والحبور؟!! أوَ يحلم الموتى، بهمس الشفاه، تصحبهم أحلامهم باتجاه دروب السرمد؟!!

أوَ يحلم الموتى بالضياء، أو رعشات القلوب وحشرجة الانتظار؟!!

أوَ ثمة انتظار هناك؟!!

شيئاً غريباً أن تجد ميتاً ينتظر امرأة يحب!!.

ينتظر لحظة انطفاء الدروب؛ ليفتسل بقبلة وجله، يمسح قلق الموت، ومثل هدير يقطع الليل وحيداً، إلى أين عساه يتّجه؟!! الفجر يبدأ هجومه، فتحتّ الخطى أحلامها ؛ لتطرق الباب بصبر الموتى الذين لا يطرقون، لكنهم يتعوّدون ملامسة الأبواب، طرقة واحدة، قدم تتقدّم، طرقة ثانية، قدّم تتأخّر، أطرقه ثالثة، ينبثق القلب من بين الأضلاع، قد لا ترى القلوب فاجعة الأحياء، قد تسمع صدى الأغنيات // هنا يا مَن كنا وكنت .. جئنا وجلسنا عند الباب // آه، أيتها الأبواب، أوَ جفّت ليالي الأحلام بين ثناياك؟!! لم يبقَ سوى الجنون!!

ينفرج الدرب رويداً، فتمرّ العاصفة مثل التماعة نجم، إلى أين تراه يتجه، والخطى واجفة؟! //.

مكتبة الفكر الجديد

يفرك عينيه، ويموج قلبه بالحزن، كان الامتحان عسيراً، والسنون بدأت تجوب خيالات جمجمته، حاول التسلّل عبر بياض الورقة، لكنها وبعناد أعادته مخذولاً، تسلّل باتجاه الأمنيات، فارتدّ القلب جزعاً، كان يلجُ وحدته مطمئناً، لكن اليد التي ترتجف لا تريد أن تبدأ خوف أن تحترق الشفاه، رمى القلم بعيداً، وانسحبت كتلة البياض إلى عند قدميه، أغمض العينين، وثمة يأس يركب وجوده، كان الكائن يتمزّق، يضطرب، يتأجّج، لكنه لا يعرف كيف يمكن أن يتجاوز يومه الأول بعد كل الذي حدث؟!! لا يعرف كنه السرّ الذي يؤجّج صباحاته المعذّبة لوجوده، يجد نفسه مرمية وسط دائرة من الخطايا، ودون أن يفوه بقول، يلهث خلف امتحانه، فتوج نداءات التل المحروقة، وتتملطخ السماء ببياضات، تمزّق ستر الاستدارة الشاعة بوهن، يعلوا حفيف الرؤوس الخضر ضارية موسيقى القصب، فتضجّ الأجنحة باضطراب، وتتوقأ دجاجات الماء ماسحة برؤوسها التي تشبه الدعبل سكون الماء، تغفو لحظة الامتحان، ويصير بياض الورق حلماً، يأكله البعد، يتوسّل لحظة هدوء، فيتوسّله الليل محاولاً معرفة سرّ أن يكون الخراب أليف وحدته، ما معنى أن تسكن في خضمّ هذه اللجج، وروحك بعيدة، تلاحق دخان السجائر والبكاء والاضطراب ؟!

ما الذي يمكن أن يقوله العم؟!!.

أوَ ثمة ما يربط بين خطّ ضياعهما ؟! مَن تراه أضاع الآخر ؟! هو وجد نفسه تائهاً يلاحقه ليل الأقفاص والقدرات التي تحصي الأنفاس، والغربة التي صيّرت أحلامه مجرد فراغ شاسع، لا يمكن لخطواته أن تطأ حتى غبار رضاه، كان يطوي عذاباته، ويبصر ليل الثلوج الذي تحيطه مثل كفن ما يلبث أن يتبدّد، ويعاود الانبثاق، هو وجد روحه تتلاحق وأمانيه البعيدة، كان ثمة ما يضغط فوق الجمجمة، ما يمحو

مكتبة الفكر الجديد

الصور التي غدت صفراء قاحلة مع استمرار الأيام، مَن تراه أضاع الآخر؟! وقد كان الامتحان صعباً، والتجربة مرة ؟!

صعب أن ترى نفسك وحيداً بين يدي الخراب، لقتك السواتر إلى ضجيج المدن، أو أخذتك المدن إلى أحضان الصمت والانتظار، ما كان بمقدور أيّ منا أن يقف دونما فعل يشدّه إلى وجوده، الذي ما عاد سوى سراب يتكرّر، وأمنيات تموت ما إن تلامسها رياح الحانات، وحدك كانت خطاك تجرّك إلى الفراغ، وعند أول لحظات الانهزام وجدتها تتوسّل إليك، تتوسّل ضياعها وضياعك، بلوى أن تجد امرأة تتوسّل مأساة أمل قديم، وجدته فجأة يتجدّد، ما الذى كان عليك أن تفعل، وكل ما يجعلك خراب، أنقاض من التراب والألم ؟! كل ما حملته كان مجرد وَهْم، دفعك إلى أحضان وَهْم، أوَ تراه يعرف كم هو صعب وجود معادلة لشيء يعذّب حتى ألطف الإحساسات وحدك ؟! تخطو إلى عمر الشدة، فلا تجد غير أناك تتعذّب، فلمَ جئت الآن ؟! وما الذي جاء بك إلى لبّ الارتياح ؟! أوَ تريد الانتحار بلحظة تخيّل ؟! أوَ ثمة لقاء مرتجى ؟! افتح عينيك، ولسوف تجد حروفاً من نار، اعتل مركب السنوات، وحاذر أن تطلق صراخ اليأس، ثمة غفلة هاربة، اقبض على وجه سطورها، ولسوف يسطع نجم آمالك، افتح عينيك، وارفع حجب الإضاءات، ودع الخطر شرق أحلامك، دعها ترمي عند قدميك شحوب أحزانها عطراً :..-- وحدي أضيء حيرة السراب!!.

قال: - أوَ ترتمي عند صدر القسوة؟! .. أم تراك تمر ؟!

طأطأ رأسه لريح الأحلام، وحاول إيصاد الأبواب رغم الوحشة التي تدوم حوله، وحشة تهبّ بريح مجنونة، تزيده اضطراباً، وتزيد قلبه هدوءاً، تستيقظ الأماني عند ضفاف زمنه، ثمة خطى عابرة، وذكريات تسخر من وجوده، وصور خرساء، تحاول اختراق هتاف وحدته. قال: - كيف يمكن للبدء أن يكون ؟

مكتبة الفكر الجديد

ذابت العيون بلون النعاس، واشرأبت رقاب الأطيار، ملّت الولولة اختراق نوافذ القصب، ليس ثمة غير نباح بعيد، يمضي على مهل، وصوت تسمعه فجأة، كان يرقب انبثاقه، علّه يلثم سكون أساه، الحفيف يسوط الأجنحة، الأجنحة تنثال بالتأوه، وببطء ترتل الأحلام ابتهالات الوجع، كان الصوت يضيع في ضباب محنته، أوَ ليس ثمة غير بقايا رجل يترقّب عينين من غياب، وقلب من شذر الآمال، وجسد ميت، يتوسّد رذاذ مخاوفه ؟!

- ماذا يمكن أن أكون؟!!

قالها مهشّماً وحدته، ضارباً السكون العميق الذي ساد، شاعلاً خلفه زوايا الدرب الذي غدا طويلاً، قال محاولاً الإيقاع بين وَهْمه والروح: - ماذا إن عاد الفتى؟!!

نبش الفتى الجنوبي قبر انتظاره، كان قد نسي ما بناه، نسي أن ثمة ما جعله يتأمل الفناء البعيد، والوجوه البعيدة، والحب الذي حوّلته الحرب إلى خطيئة تجوب الطرقات امرأة شبه عارية، أثار البعدُ بكاءَهُ، فانبجست دموع الغمام، أين تراها الآن؟!! .

قال الفتى الجنوبي، وهو يزدرد ريقه، استبدّ الحزن بعيون الظلام، فازداد حلكة، وانحلّت مباهج الصمت؛ لتنطش فوق تراب التل الذي بدأ لحظتئذ يمور بأصوات غريبة، كانت الأصوات تطغى على مله، فيحاول الإمساك بليل وحدتها، ربما ما عادت إلى غير رغباتها .. ربما أقلقها نحيب الاضطراب .. ربما مضت من أجل أن تجدّد أساها، ربما ظلت تنتظر أوبتي بعيون من تعب، تقف عند أول المحطات، مثل شبح، وتدور مثل إعصار. وتسأل:

- خذوني معكم ؟!

تذوب الوجوه خوفاً، وترتجف أشرعة الكلمات، للحظة يسقط ظل الانتظار، يقول أحدهم: - إلى أين ؟

مكتبة الفكر الجديد

تنظره بأسف، فيعصر الوجع قلبه، تشير إلى جهة الموت، فتطرق الوجوه بتماوج ساهم، لم يعد ثمة ما يكون هناك غير بقايا ذكريات قديمة ووحشة تولول في ليل الأرواح، أوَ تراها تعي أن النسيان بدأ يلفّ صراخ الأيام، تقول متوسلة: - علّي أجده هناك .. لقد مضى دون أن يقول بشيء!!!

تتحرك أشباح الموت، وتهتز سماوات الرفض، سهل أن ترى امرأة تحب .. ولكنّ! كيف يمكن أن ترى امرأة تحطّم حبها بجنون، وتسعى لتدمير أول طريق تسلكه إليه ؟!

تضيق بزمن البوح، فالخطو صار ثقيلاً، ومثل سحاب هوّم الحلم فوق الجمجمة، أيّ انتظار ممكن أن ترقب ؟! ولماذا ترمينا الآثام في بحور الانتظارات ؟! كيف يمكن أن تمرّ وسط كل هذه العثرات دون ضحايا، تجعل منك حطام مشمور عند قارعة الطريق ؟! ماذا تراها فاعلة ؟! أوَ تراها تتذكّر أزمنة بهائها، أوَ دفنت الانتظار، من أجل أن لا تصير كائناً معزولاً، يعذّبه ألم الوحشة؟!! .

انطوت العذابات إليه، كانت الاستدارة التي تجلّلها ضياءات الفضة تصعد فوق هام الاخضرار، تنحني جذوع القصب، ويئنّ الارتجاج مانحاً الأجنحة الملوّنة فسحة من الارتماء عند حضن القصة، ((لم تكن أجنحة ملوّنة، كان قد تخيّل ألوانها، وهي تندغم وسوادات اللازورد)) جال بعينين تعبتين أرجاء اليشان، كان يبدو مثل سنام بعير جاث، بعير لوّنته الأيام حتى استحال إلى كائن دونما لون محدّد، قال الفتى الجنوبي:- ها نحن ننتظر؟!!

- قال بصوت مهزوم، متخاذل: - وماذا يفيد الانتظار لرجل مثلي؟!!

قال الفتى الجنوبي: // لم يعد غراً، كان يملأ جوانحه بعطر الأسئلة، وجد نفسه فجأة يخوض في عمر من الأسئلة والأحلام والرجاءات، كبر رويداً .. وبهدف حكيم، بدأ يقرّر: - وماذا يمكن أن ننتظر .. ؟

مكتبة الفكر الجديد

قال راغباً بمسح أوهام جمجمته // اش // إن أشد ما يزعج وجوده تلك الأوهام التي لا يدري كيف ولماذا تسيطر عليه، يغمض عيني روحه، فتنبجس الرؤيا، ومثل جسد مريض، يتسربله الموت ببطء، يعلن تخاذله، ودونما رغبة بالاستمرار يسقط كامل هيئته في لجج الوَهْم //.

- ما جئت لأنتظر .. وحدنا يجب أن نستمرّ!!

- كيف .. والقلق يملأ الروح ؟

- هذا ما أطلبه!!

- وما أفكر به أنا أيضاً!!

- وإلى ماذا أوصلتك أسئلتك؟!!

- إلى ما تريد الوصول إليه.

- اسمع مني .. وأرجوك لا تجعل الملل يسيطر عليك .. هذا عالم يتجدد، ولابد من روح تتجدد معه، لابد لنا من خطوة تمكّن حياتنا من الاستمرار!!

- وكيف تراها تكون خطوة كهذه، وأنت ترى الوحشة تطوي كل شيء ؟!

- أوَ لم نكن نبحث عن هذا ؟

- بلى !

- طيب، يا ابن روحي، دعنا نتأمل كيف يمكن للروح أن تنمو وسط كل هذا الهدوء!!.

- ما جئت إلا من أجل إكمال خطوات!!

- وما أطعت إلا من أجل هدوء نفس، ظلت مضطرب به زمنها كله!!

- حسناً .. قل كيف نبدأ.

- أوَ ترى البياض المرمي هناك؟!!

- نعم ... ولكني ...!!.

- لكنك خائف .. خائف دونما مبرر لخوف كهذا!!

مكتبة الفكر الجديد

- صعب أن تطرد كل ما يحيط بك دفعة واحدة!!.

- أبداً، لا يمكن أن يبدأ الكل من كله .. لابد من جزء يقرع البدء!!.

- والآن .. ؟

- والآن اقترب، علّنا نجد ما أبعدنا عن ألفتنا طوال هذه المدة!!

اقترب الجسد من الارتخاء، أغمض عينيه، وتمدّد ناظراً استدارة القمر التي علته صدفة، كان ثمة مَن يبتسم إليه، أو يومئ بالاقتراب، تحرّكت أوصاله قليلاً، لكن ثمة مَن يشدّه إلى التراب الرطب الذي تغسله نيران الوحدة الأزلية، يهيم في فراقات بعيدة، يلقي الطرقات وراءه، طرقات متشابهة، مملوءة باللغط والسباب والآثام، حاول الابتعاد بجسده لكن الأرض كانت تمسك بلحظات إنسانه، الذي لا يدري ماذا يفعل، وكيف، ومن أجل ما نبدد أعمارنا،

من أجل ماذا احتوتنا الغرف الحمر .. والسواتر .. والأراضي الحرام .. وجماميل الجوع .. وآثام مدن الطين .. وباحة السجن المركزي، والخطايا التي أردنا من خلالها احتواء عذاباتنا، من أجل ماذا ذابت ذواتنا في عفن الدم والبارود ؟!

من أجل ماذا هجرتني السنوات بعد أن مزقت أناي إلى مئات الأنوات .. من أجل .. ما .. إذا؟!!

صرخ الرأس متوسلاً الصمت، كانت اللحظة لا تتحمل مثل هذا الامتداد، لا تتحمل فيض الأسئلة التي تشبه السكاكين، الأسئلة التي حطمت حتى أبسط صور الأحلام، ماذا يمكن أن نفعل ؟! وكيف، ولا شيء غيرك والوحشة وهذا التراب الذي لا تدري ما الذي يشدك إليه ؟! ما الذي جعلك تشعر بالألفة إزاءه مثل أول خطوة قدم .. تلفت الرأس، دون أن تبصر الروح شيئاً، كانت تسعى باتجاه العتمة، تريد الاحتفاظ بانفرادها، علّها تجد لصحبته بعض المؤانسة، وتحاول الإمساك بثنايا الأسئلة. ارتفعت فضة الضوء، ماسحة رؤوس القصب الذي بدأ يرتل

مكتبة الفكر الجديد

أناشيد الأزل، دقّت اللحظة الأولى، فانفرج بطن التراب، دقّت الثانية، فامتلأ الهور بالغناء، دقّت الثالثة، فاستقمتُ واقفاً، كان المشهد مشحوناً بالبهاء، عند الصدر، يجلس السيد المصبوغ بالبياض، عينان باسمتان، ووجه مشرب بأديم الأرض، وجسد مفتول مثل مغزل، أشارت أصابع، فهدأت الموسيقى، قال السيد، وهو يدعوه إلى التقدم- أوَ جئت أخيراً؟!!.

دونما إرادة منه، اهتزّت الرقبة، واستدار الرأس يميناً، وببطء أعاد التحديق إلى اليسار، تبسم السيد الذي جعلته خيوط الفضة يبدو مثل وردة بنفسجية، إشارة إليه بالتقدم أماماً، قال: - لكم أتعبنا انتظارك؟!!

أول الخطوات تراجعت خائفة، لكنها ما لبثت أن استجمعت قواها، وتقدمت يشوبها حذر وبعض خوف، حرّك السيد عصاه، فجلست الأجساد المغموسة بالضوء وهي ترى إليه محاولة سبر غور وجوده، ما كان يرى هذا العالم الذي نبق من وسط الماء فجأة، حاول الإمساك بليالي الموقد البعيدة، حاول جرجرة الجدة، حاول احتضان الفتى الذي كان ينظره بارتياح، حاول تذكّر الملامح التي كانت الجدة تصفها بدقّة محبّ عارف، قال السيد، وهو يأخذه إليه: - حسناً فعلت!!

قال وثمة ما يجعل حنجرته تتورم قلقاً:

- نعم!!.

مسّد السيد الشاع بالفضة رأسه، فانكشفت امام عينية حجب، واستار، كان عالمه قد استحال لحظتئذ إلى مدن من سعادات، عند أول الأبواب دفعه السيد بتؤدة، فتعالت الأصوات مرحبة، ورويداً انجرت خطواته إلى العمق الذي كان يجلّل أحلامه منذ انسرب الزمن من بين الأكف، انسراب الأرواح التي تكتظّ بفضاءات الترقب .

أبو غريب

سجن الأحكام الخاصة

2000

مكتبة الفكر الجديد

دار ميزوبوتاميا
للطبع للنشر والتوزيع

عراقيات

الرحيل الى ميزوبوتاميا..... امل بورتر
العراق ما بين الحربين - رسائل ضابط انكليزي..... امل بورتر
العراق المعاصر برؤى أجنبية..... ترجمة : د. محمود أحمد القيسي
ثورة وزعيم..... د. عبد الخالق حسين
الطائفية السياسية ومشكلة الحكم في العراق..... د. عبد الخالق حسين
أشجان وأوزان الهوية العراقية..... د. ميثم الجنابي
التوليتارية العراقية..... د. ميثم الجنابي
الحركة الصدرية ولغز المستقبل..... د. ميثم الجنابي
فلسفة الثقافة البديلة في العراق..... د. ميثم الجنابي
فلسفة الهوية العراقية..... د. ميثم الجنابي
العراق - حوار البدائل..... د. ميثم الجنابي - حاوره مازن لطيف
الصحافة الرسمية في العراق ما قبل جريدة الوقائع العراقية..... سالم الالوسي
الطاغية والطغيان في العراق..... شامل عبد القادر
رحلة يوسف رزق الله غنيمة الى ايران..... طارق الحمداني
بغداد تبوح باسرارها..... عباس عبود
بغداد ذلك الزمان..... عزيز الحاج
صحائف بغداد..... فؤاد طه
مثقفون عراقيون..... مازن لطيف
محاولة في فهم شخصية الفرد العراقي..... محمد مبارك
الان والغد..... مهدي الحافظ
العراق.. نبوءات الامل..... مهدي الحافظ
نصوص بغدادية نادرة..... د. طارق نافع الحمداني
فيصل ملك العراق..... مز ستورث أرسكين
شارع الرشيد في الذاكرة العراقية..... سالم الالوسي
حكاية من بغداد..... أثيل ستيفانا دروز
بغداد في عهد الخلافة العباسية..... غي ليسترنج
تقويم العراق..... رفائيل بطي
وزراء بغداد..... طارق حرب

مكتبة الفكر الجديد

التحضر في المجتمع العراقي ..... منى العينة جي
لطيف العاني.. مصور من العراق ..... لطيف العاني

الإعلام

الامام علي - القوة والمثال ..... د. ميثم الجنابي
هادي العلوي .. المثقف المتمرد 3(طبعات)..... د. ميثم الجنابي
محمد مكية : رائد العمارة العراقية ..... علي ثويني
محطات في فكر وحياة هادي العلوي ..... مازن لطيف
مير بصري .. سيرة وتراث ..... فاتن محيي محسن
الاب انستاس الكرملي ..... كريم عبد الحسين فرج
معاوية الثاني والتشيع في البلاط الاموي ..... محسن خزعل المحسن
الجواهري بلسانه وبقلمي ..... سليم البصون
استذكارات فنية ..... قحطان جاسم جواد
انور شاؤل.. الريادة في الادب والصحافة ..... محمد جبير
عامر عبد الله... النار ومرارة الامل ..... عبد الحسين شعبان
رجال وتاريخ ..... حميد السعدون

العلوم الإنسانية

الثقافة القانونية للمهندسين والمقاولين ..... د. حميد لطيف الدليمي
منهجية البحوث العلمية ..... د. حميد لطيف الدليمي
التثقيف الصحي والبيئي ..... علي اسماعيل الجاف
في الاحوال والاهوال ..... فالح عبد الجبار
أثر التنشئة الجتماعية في البناء الديمقراطي ..... عقيلة عبد الحسين الدهان

الفلسفة

استعادة ماركس ..... سعد محمد رحيم
مفهوم الاخلاق عند ابي حيان التوحيدي ..... محمد مخلف الدليمي
حكمة الروح الصوفي ..... ميثم الجنابي
كتاب الجيب للمحكومين بالاعدام ..... خضر ميري

السياسة

تجارب دنماركية ..... ضياء حميو
عن الثورة واليسار ..... عصام الخفاجي
إشكالية الدولة ..... علي حسن الفواز
اليسار الصعب ..... كاظم حبيب
الثورة العربية والمستقبل ..... د. ميثم الجنابي
الفوضى الامريكية ..... د. حميد السعدون
أزمة الاسلام ..... برناد لويس
العاسونية ..... عبد الكريم الزهيري

الأديان

الصابئة المندائية ..... نعيم عبد مهلهل

مكتبة الفكر الجديد

هيئة الدفاع عن ابتاع الديانات والمذاهب في العراق..... كاظم حبيب
يهود العراق..... مازن لطيف
التاريخ الهنسي ليهود العراق..... مازن لطيف
موسوعة الاضرحة والمزارات العراقية..... مازن لطيف
الاستشراق اليهودي..... عباس سليم زيدان

التاريخ

بغداد في عصر الخلافة العباسية..... (ليسترنج)
تأسيس بغداد.. الفلسفة والرموز..... زهير الهواري

الشعر

المنتفض..... احمد كريم
اجمل المخلوقات رجل..... بلقيس حميد حسن
لالىء طيفها ألق..... حميد نجم الزبيدي
عن الوردة وهي تطيح بحياتي..... حيدر الحجاج
ربما ..من يدري!..... خزعل الماجدي
شـــوغات..... خزعل الماجدي
كفوف الملائكة..... د. مهدي المانع
ثلاث مدن ، ثلاثة اسابيع في الصين..... سعدي يوسف
الاعمال الشعرية الكاملةج | ..... سلمان داود محمد
الاعمال الشعرية الكاملةج2..... سلمان داود محمد
أسئلة طويلة مقلقة..... عبد العزيز الحيدر
قمة الهاوية..... عبد النبي الشايع
هواجس ملتبسة..... عبد النبي الشايع
غواية الساعات..... عدنان الفضلي
اوروك سليل التعب..... علي الشيال
نبي الأنوثة..... فاطمة العراقية
ذاكرة الرماد..... كاظم الواسطي
كثر الحديث..... كريم العراقي
مرثية البياض..... محمد حريب
ضماد الاسئلة..... ناظم الساعدي
الف ميل من الوجع..... ناظم رشيد
سقوف..... هادي الناصر
طريقة في الغناء (شعر)..... ريسان الخزعلي
الليالي العراقية..... دنيا ميخائيل
هوامش كحل..... حامد الراوي
خريف الأسئلة..... علي طالب
البنفسج المر..... علاء جاسب
خسارات فاتنة..... ماجد طوفان
منك واليك..... عبد النعيم الساعدي
صحبة ليل طويل..... عزيز عبد الصاحب

مكتبة الفكر الجديد

رائعة ماجدولين.....نادية عزيزة
موسيقى الصباح.....رسمية محيبس
يحدث دائما.....سامي مهدي

شعر شعبي

مرايات ونده.....حمود كعيد
ابو سرحان.. كرستال القصيدة الشعبية العراقية.....ريسان الخزعلي
الحاج زاير.....ريسان الخزعلي
مدخل للشعر الشعبي.....عبد الكريم هداد
عرس العاي.....كاظم غيلان
لون الليالي صعب.....كاظم غيلان
شذارت من العامي والمولد.....محمد حسين الاعرجي
عرس العاي.....كاظم غيلان
وضوح أول.....طارق ياسين
حزن منفى.....عبد الكريم هداد
ضوه بسرداب.....لهم عادل
غنائيات وردة جمر.....ريسان الخزعلي
الهايكو السومري.....ريسان الخزعلي
شواطي الروح.....بشير العبودي

نصوص/مقالات

عراق رومي شنايدر.....نعيم عبد مهلهل
غراميات شاكيرا وسلمان المنكوب.....نعيم عبد مهلهل
الجبايش.....نعيم عبد مهلهل
الناصرية.....نعيم عبد مهلهل
غابريل ماركيز يكتب عن سامراء.....نعيم عبد مهلهل
وجوه مرت.. بورتريهات عراقية.....عبد الرحمن مجيد الربيعي
اصباح السرد.....وارد بدر السالم
انطقة المحرم.....سعد محمد رحيم

الرواية والقصة

نبوءة متأخرة(قصص).....الفريد سمعان
الزمرد والنباب(رواية).....عبد الكريم العبيدي
بائع الضحك(قصص).....ابراهيم سبتي
العربة الخضراء(رواية).....اسماعيل شاكر
الكلب الملاك(قصص).....صفاء سالم أسكندر
الشاكرية(رواية).....كريم العراقي
وهم الطائر(قصص).....ناصر قوطي
فيروز الأحدب (قصص).....نيران العبيدي
المعدان (قصص).....وارد بدر سالم
العودة الى البيت (رواية).....وديع شامخ
المعبث(قصص).....علي الحديثي

مكتبة الفكر الجديد

الشاكرية(رواية ....كريم العراقي

هروب الموناليزا(رواية)ط 1+ط2..................................بلقيس حميد حسن

للهروب خطوة اخرى(رواية.. توفيق حنون المعموري

حكاية حب في بغداد(رواية مترجمة..................................اثيل ستيفانا دورو

بوصلة غضبان بن شداد(رواية .... حسن عبد الرزاق

ابواب الفردوس(رواية...ناطق خلوصي

موت اكبر من موت(قصص .... جوتيار تمر

رسائل حب يهودية(رواية ....جاسم المير

العودة الى الجذور(رواية...سيف الالوسي

صباوررواية..شكار المياح

الزنبقة البيضاء(قصص.. جمانة القروي

عابر حدود(رواية...حميد الكفائي

الالهة والجوامسي في مديرية الامن(رواية............................ نعيم عبد مهلهل

نصف للقنيفة(رواية..سمية الشيباني

مشرحة بغداد(رواية ....برهان شاوي

عائلة الحرب(قصص.. صلاح زنكنه

المذكرات

راحلون وذكريات.. عزيز الحاج

رحلات تمفصلية .... عزيز الحاج

مذكرات داود سمرة..داود سمرة

حدث بين النهرين .... عزيز الحاج

غصن مطعم بشجرة غريبة..صلاح نيازي

نقاط الحبر الأخير(مذكرات أمير الحلو)................................ أمير الحلو

سجين الشعبة الخامسة..محمد السعدي

النقد الأدبي والثقافي

ملامح اسلوبية في الشعر الحديث .... جاسم الخالدي

حوارات في النقد العراقي من التأثر الى الحداثة.......................جاسم محمد

حفريات النص الشعري .... حمد الدوخي

سيمياء النص...حمد الدوخي

أقنعة النص .... صفاء خلف

الثقافة العراقية- مقتربات في النقد الثقافي............................ علي حسن الفواز

خطاب الحداثة- دراسة ثقافية لتجربة الشعر الحر في العراق...........كريم شغيدل

المثقف التابع .... مازن لطيف

الطائر والنخلة_قراءة في تجربة الشاعرة حسب الشيخ جعفر.............ريسان الخزعلي

في الطريق الى الحداثة .... سامي مهدي

ذاكرة الشعر... سامي مهدي

اصابع السرد...وارد بدر السالم

الدروايش والمرايا .... حمد الدوخي

افاق نقدية.. قراءة في المتون وفي مناهج التحليل .... سامي مهدي

مكتبة
الفكر الجديد

الروائيون العراقيون اليهود - دراسة في الثقافة والمتخيل والتجريب الروائي .... د.خالدة حاتم
المجلات العراقية الريادية .... سامي مهدي

المسرح

الاخراج المسرحي في العراق .... عدنان منشد
قبل النخيل ارى الغروب(نصوص مسرحية) .... محمد السيد محسن
علم الجمال في المسرح الحديث .... ماري آن شاربونيير
الخروج الى الداخل .... حيدر الكناني
فن المسرح والانسان الحديث .... بينجي علي عزاوي

الفن التشكيلي

الفن التشكيلي والمدينة .... ياسين النصير
التشكيل الجميل الجمالي .... عقيل مهدي
ضياء العزاوي .. منوغرافيا .... ضياء العزاوي
فائق حسن .. الحضور الحي والبصمة الساحرة .... قاسم محسن

العمارة

محمد مكية.. رائد العمارة العراقية .... علي ثويني
في رحاب مأذنة سوق الغزل .... معتز عناد غزوان

دار ميزوبوتاميا
طبع _ نشر _ توزيع
العراق _ بغداد_ شارع المتنبي
البريد الالكتروني: hamawendi@yahoo.com
Mazin24@ymail.com
موبايل : 07905139941
****

العمليات الفنية والتنفيذ الطباعي
دار صفحات دمشق – سورية
info@darsafahat.com

مكتبة الفكر الجديد

شروكَية

علَمتني الحرب أن ليس ثمة أكثر إدهاشاً، من رجل تعب مهزوم، يترقَب موته، كنت أقرأ في عيون الجرحى المنتظرين نقلهم إلى المفارز الطبية رغبات الخوف والتوسَل والقلق، أراقب تطور السؤال الذي يبدأ عادة بالموت ،ولكنه أبداً لا ينتهي، يتناسل مثل زهرة شوك واغزاً الجمجمة التي تظل سليمة، تهمس بالكلمات حتى إغماض العينيين المشتعلتين بالرجاء والرحيل بعيداً، والتلاشي وسط دائرة الارتياح، والإقرار بأن ليس ثمة جدوى من أيما شيء..

ما الذي يمكن أن يقوله الانتظار ، وجدتي كانت قافلة انتظار ضاعت وسط مفازات موحشة ، كانت تبحث دونما جدوى عمَن يدلَها عن درب، يوصلها إلى ما تريد ؟!!

ما الذي كانت تريده ، وهي منذ أول دهورها وجدت نفسها لعبة انتظار، لا ينتهي ؟!!

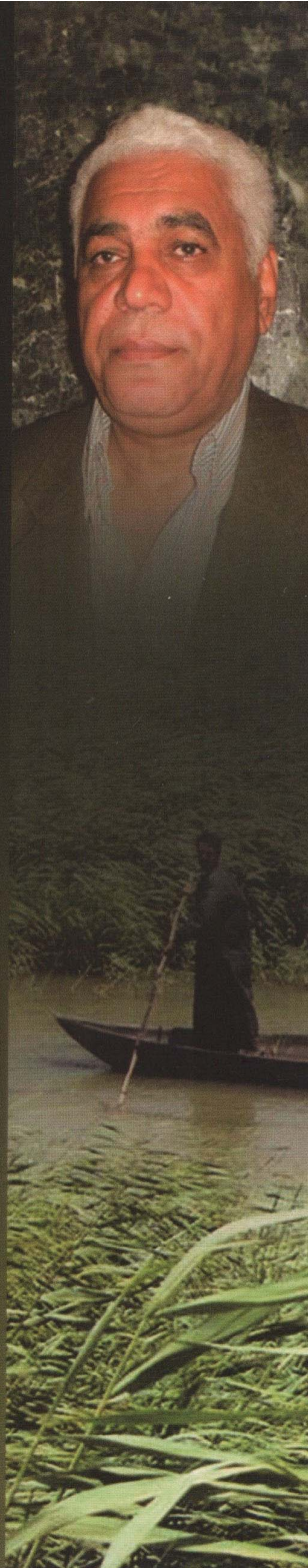

دار ميزوبوتاميا
للطباعة والنشر والتوزيع
بغداد - شارع المتنبي
MESOPOTAMIA
for Publication and Distribution

مكتبة
الفكر الجديد

تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح